في ظلال القرآن

الجزء الثامن والعشرون

بقلم

سيد قطب

الطبعة الأولى

طبع بدار إحياء الكتب العربية
عيسى البابي الحلبي وشركاه

في ظلال القرآن

الجزء الثامن والعشرون

بقلم

سيد قطب

الطبعة الأولى

طبع بدار إحياء الكتب العربية
عيسى البابي الحلبي وشركاه



من سورة المجادلة والحشر والممتحنة والصف والجمعة والمنافقون والتغابن

سُورَةُ المجادلة مدنية
وآياتها ٢٢

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

« قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى ٱللَّهِ ، وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ * ٱلَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَائِهِم مَّا هُنَّ أُمَّهَاتِهِمْ ، إِنْ أُمَّهَاتُهُمْ إِلَّا ٱللَّائِي وَلَدْنَهُمْ ، وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنكَراً مِّنَ ٱلْقَوْلِ وَزُوراً ، وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ * وَٱلَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِن نِّسَائِهِمْ ، ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَاسَّا ، ذَٰلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِ ، وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ * فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِن قَبْلِ أَن يَتَمَاسَّا ، فَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِيناً ، ذَٰلِكَ لِتُؤْمِنُوا بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ، وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ ، وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ .

« إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَادُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُ كُبِتُوا كَمَا كُبِتَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ، وَقَدْ أَنزَلْنَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ ، وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ * يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعاً ، فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا أَحْصَاهُ ٱللَّهُ وَنَسُوهُ ، وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ .

« أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَاوَاتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ؟ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ ، وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ ، وَلَا أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَمَا كَانُوا ، ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ * أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نُهُوا عَنِ ٱلنَّجْوَىٰ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُوا عَنْهُ ، وَيَتَنَاجَوْنَ بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَةِ ٱلرَّسُولِ ، وَإِذَا جَاءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ ٱللَّهُ ، وَيَقُولُونَ فِي أَنفُسِهِمْ :

أَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ ! حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ الْمَصِيرُ * يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَنَاجَيْتُمْ فَلَا تَتَنَاجَوْا بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَةِ الرَّسُولِ،وَتَنَاجَوْا بِالْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ ، وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ * إِنَّمَا النَّجْوَىٰ مِنَ الشَّيْطَانِ لِيَحْزُنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيْسَ بِضَارِّهِمْ شَيْئًا إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ، وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ .

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِي الْمَجَالِسِ فَافْسَحُوا يَفْسَحِ اللَّهُ لَكُمْ ، وَإِذَا قِيلَ انْشُزُوا فَانْشُزُوا يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ ، وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ .

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَاجَيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَةً ، ذَٰلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ وَأَطْهَرُ ، فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ * أَأَشْفَقْتُمْ أَنْ تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَاتٍ ؟ فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا وَتَابَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ ، وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ .

« أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ تَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ؟ مَا هُمْ مِنْكُمْ وَلَا مِنْهُمْ ، وَيَحْلِفُونَ عَلَى الْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ * أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ، إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ * اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ، فَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ * لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا ، أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ * يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا ، فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ ، وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ ، أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْكَاذِبُونَ * اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ فَأَنْسَاهُمْ ذِكْرَ اللَّهِ ، أُولَٰئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ ، أَلَا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ * إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَٰئِكَ فِي الْأَذَلِّينَ * كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي، إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ * لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ، أُولَٰئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ ، وَأَيَّدَهُمْ

بِرُوحٍ مِنْهُ ، وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا، رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ، أُولَٰئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِ ، أَلَا إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ . . »

نحن فى هذه السورة ـ وفى هذا الجزء كله تقريبا ـ مع أحداث السيرة فى المجتمع المدنى . مع الجماعة المسلمة الناشئة ؛ حيث تُربى وتقوّم ، وتعد للنهوض بدورها العالمى ، بل بدورها الكونى، الذى قدره الله لها فى دورة هذا الكون ومقدّراته . وهو دور ضخم يبدأ من إنشاء تصور جديد كامل شامل لهذه الحياة ، فى نفوس هذه الجماعة ، وإقامة حياة واقعية على أساس هذا التصور ، ثم تحمله هذه الجماعة إلى العالم كله لتنشىء للبشرية حياة إنسانية قائمة على أساس هذا التصور كذلك . . وهو دور ضخم إذن يقتضى إعدادا كاملا .

ولقد كان أولئك المسلمون الذين يعدهم القدر لهذا الدور الضخم ، ناسا من الناس . منهم السابقون من المهاجرين والأنصار الذين نضج إيمانهم ، واكتمل تصورهم للعقيدة الجديدة ، وخلصت نفوسهم لها ، ووصلوا . . وصلوا إلى حقيقة وجودهم وحقيقة هذا الوجود الكبير ؛ واندمجت حقيقتهم مع حقيقة الوجود ، فأصبحوا بهذا طرفا من قدر الله فى الكون ؛ لا يجدون فى أنفسهم عوجا عنه ، ولا يجدون فى خطاهم تخلفا عن خطاه ، ولا يجدون فى قلوبهم شيئا إلا الله . كانوا كما جاء عنهم فى هذه السورة : « لا تجد قوما يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله ، ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم . أولئك كتب فى قلوبهم الإيمان ، وأيدهم بروح منه ، ويدخلهم جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها . رضى الله عنهم ورضوا عنه . أولئك حزب الله . ألا إن حزب الله هم المفلحون » . .

ولكن هؤلاء السابقين كانوا قلة بالقياس إلى الجماعة المسلمة المتزايدة العدد ـ وبخاصة بعد أن أصبح الإسلام قوة ترهب ـ حتى قبل الفتح ـ ودخل فيه من لم يتلق من التربية الإسلامية القسط الكافى ، ولم يتنفس فى الجو الإسلامى فترة طويلة . كما دخل فيه من المنافقين من آثر المصلحة أو العافية على دخل فى القلوب ، وتربص بالفرص ، وذبذبة بين المعسكر الإسلامى والمعسكرات القوية المناوئة له فى ذلك الحين . سواء معسكرات المشركين أو اليهود !

ولقد اقتضت تربية النفوس وإعدادها للدور الكونى الكبير المقدر لها فى الأرض جهودا

ضخمة ، وصبرا طـويلا ، وعلاجا بطيئا ، فى صغار الأمـور وفى كبارها . . كانت حركة بناء هائلةهـذه التى قام بها الإسلام ، وقام بهارسول الإسلام- صلى الله عليه وسلم- بناء النفوس التى تنهض ببناء المجتمع الإسلامى والدولة الإسلامية ، وتقوم على منهج الله ، تفهمه وتحققه ، وتنقله إلى أطراف الأرض فى صورة حية متحركة ، لا فى صحائف وكلمات .

ونحـن نشهد فى هذه السورة ـ وفى هـذا الجزء كله ـ طرفا من تلك الجهود الضخمة ، وطـرفا من الأسلوب القرآنى كذلك فى بناء تلك النفوس ، وفى علاج الأحـداث والعادات والنزوات ؛ كما نشهد جانبـا من الصراع الطويل بين الإسلام وخصومه المختلفين من مشركين ويهود ومنافقين .

وفى هذه السورة بصفة خاصة نشهد صورة موحية من رعاية الله للجماعة الناشئة ؛ وهو يصنعها على عينه ، ويربيها بمنهجه ، ويشعرها برعايته ، ويبنى فى ضميرها الشعور الحى بوجوده ـ سبحانه ـ معها فى أخص خصائصها ، وأصغر شؤونها ، وأخفى طواياها ؛ وحراسته لها من كيد أعدائها خفيه وظاهره ؛ وأخـذها فى حماه وكنفه ، وضمها إلى لوائه وظله ؛ وتربية أخلاقها وعاداتها وتقاليدها تربية تليق بالجماعة التى تنضوى إلى كنف الله ، وتنتسب إليه ، وتؤلف حزبه فى الأرض ، وترفع لواءه لتعرف به فى الأرض جميعا .

ومن ثم تبدأ السورة بصورة عجيبة من صور هذه الفترة الفريدة فى تاريخ البشرية . فترة اتصال السماء بالأرض فى صورة مباشرة محسوسة ، ومشاركتها فى الحياة اليومية لجماعة من الناس مشاركة ظاهرة : « قد سمع الله قول التى تجادلك فى زوجها وتشتكى إلى الله ، والله يسمع تحاوركما إن الله سميع بصـير » . . فنشهد السماء تتدخل فى شأن يومى لأسرة صغيرة فقيرة مغمورة ، لتقرر حكم الله فى قضيتها ، وقد سمع ـ سبحانه ـ للمرأة وهى تحاور رسول الله فيهـا ، ولم تكد تسمعها عائشة وهى قريبة منها ! وهى صورة تملأ القلب بوجود الله وقربه وعطفه ورعايته .

يليها فى سياق السورة توكيد أن الذين يحادون الله ورسوله ـ وهم أعداء الجماعة المسلمة التى تعيش فى كنف الله ـ مكتوب عليهم الـكبت والقهر فى الأرض ، والعذاب المهين فى الآخرة ، مأخوذون بما عملوا مما أحصاه الله عليهم ، ونسوه هم وهم فاعلوه ! « والله على كل شىء شهيد » . .

ثم توكيد وتذكير بحضور الله ـ سبحانه ـ وشهوده لـكل نجوى فى خلوة ، يحسب أصحابها أنهم منفردون بها . والله معهم أينما كانوا : « ثم ينبئهم بما عملوا يوم القيامة ، إن الله بكل

شيء عليم » . . وهي صورة تملأ القلب كذلك بوجود الله وحضوره ، كما تملؤه برقابته واطلاعه .

وهذا التوكيد مقدمة لتهديد الذين يتناجون في خلواتهم لتدبير المكايد للمسلمين ، وملء قلوبهم بالحزن والهم والتوجس . تهديد بأن أمرهم مكشوف، وأن عين الله مطلعة عليهم ، ونجواهم بالإثم والعدوان ومعصية الرسول مسجلة ، وأن الله آخذهم بها ومعذبهم عليها . ونهي للمسلمين عن التناجي بغير البر والتقوى ، وتربية نفوسهم وتقويمها بهذا الخصوص .

ثم يستطرد في تربية هذه النفوس المؤمنة ؛ فيأخذها بأدب السماحة وبالطاعة في مجلس رسول الله — صلى الله عليه وسلم — ومجالس العلم والذكر . كما يأخذها بأدب السؤال والحديث مع الرسول — صلى الله عليه وسلم — والجد في هذا الأمر والتوقير .

أما بقية السورة بعد هذا فتنصرف إلى الحديث عن المنافقين الذين يتولون اليهود ؛ ويتآمرون معهم ، ويدارون تآمرهم بالكذب والحلف للرسول وللمؤمنين . وتصورهم في الآخرة كذلك حلافين كذابين ؛ يتقون بالحلف والكذب مايواجههم من عذاب الله ، كما كانوا يتقون بهما في الدنيا مايواجههم من غضب رسول الله والمؤمنين ! مع توكيد أن الذين يحادون الله ورسوله كتب الله عليهم أنهم في الأذلين وأنهم هم الأخسرون . كما كتب أنه ورسله هم الغالبون . وذلك تهوينا لشأنهم ، الذي كان بعض المنتسبين إلى الإسلام — وبعض المسلمين — يستعظمه ، فيحافظ على مودته معهم ، ولايدرك ضرورة تميز الصف المسلم تحت راية الله وحدها ، والاعتزاز برعاية الله وحده ، والاطمئنان إلى حراسته الساهرة للفئة التي يصنعها على عينه ، ويهيئها لدورها الكوني المرسوم .

وفي ختام السورة تجيء تلك الصورة الوضيئة لحزب الله . هذه الصورة التي كان يمثلها بالفعل أولئك السابقون من المهاجرين والأنصار . والتي كانت الآية الكريمة تشير لها كي ينتهي إليها أولئك الذين مازالوا بعد في الطريق !

« لاتجدقوما يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله . . » الخ الآية . . . كما وردت في أول هذا التقديم . .

* * *

« قد سمع الله قول التي تجادلك في زوجها وتشتكي إلى الله ، والله يسمع تحاوركما ، إن الله سميع بصير . الذين يظاهرون منكم من نسائهم ماهن أمهاتهم ، إن أمهاتهم إلا اللائي ولدنهم ، وإنهم ليقولون ،

منـكرا من القول وزورا ، وإن الله لعفو غفور . والذين يظاهرون من نسائهم ثم يعودون لما قالوا فتحرير رقبة من قبل أن يتماسا ، ذلـكم توعظون به ، والله بما تعملون خبير . فمن لم يجد فصيام شهرين متتابعين من قبل أن يتماسا ، فمن لم يستطع فإطعام ستين مسكينا ، ذلك لتؤمنوا بالله ورسوله . وتلك حدود الله ، وللـكافرين عذاب أليم » . .

كان الرجل فى الجاهلية يغضب لأمر من امرأته فيقول لها : أنت علىّ كظهر أمى . فتحرم عليه ، ولا تطلق منه . وتبقى هـكذا ، لاهى حل له فتقوم بينهما الصلات الزوجية ؛ ولا هى مطلقة منه فتجد لها طريقا آخر . وكان هذا طرفا من العنت الذى تلاقيه المرأة فى الجاهلية .

فلما كان الإسلام وقعت هذه الحادثة التى تشير إليها هذه الآيات ، ولم يكن قد شرع حـكم للظهار . قال الإمام أحمد : حدثنا سعد ابن إبراهيم ويعقوب ، قالا : حدثنا أبى ، حدثنا محمد ابن إسحاق ، حدثنى معمر ابن عبدالله ابن حنظلة ، عن يوسف ابن عبدالله ابن سلام ، عن خويلة بنت ثعلبة . قالت : فىّ والله وفى أوس ابن الصامت أنزل الله صدر سورة المجادلة . قالت : كنت عنده ، وكان شيخا كبيرا قد ساء خلقه ، قالت : فدخل على يوما فراجعته بشىء فغضب ، فقال : أنت على كظهر أمى . قالت : ثم خرج فجلس فى نادى قومه ساعة ، ثم دخل على ، فإذا هو يريدنى عن نفسى ، قالت : قلت : كلا والذى نفس خويلة بيده ، لاتخلص إلى وقد قلت ماقلت حتى يحكم الله ورسوله فينا بحكمه . قالت : فواثبنى ، فامتنعت منه فغلبته بما تغلب به المرأة الشيخ الضعيف ، فألقيته عنى . قالت : ثم خرجت إلى بعض جاراتى فاستعرت منها ثيابا ، ثم خرجت حتى جئت رسول الله — صلى الله عليه وسلم — فجلست بين يديه ، فذكرت له مالقيت منه ، وجعلت أشكو إليه ماألقى من سوء خلقه . قالت : فجعل رسول الله — صـلى الله عليـه وسلم — يقول : « ياخويلة ابن عمك شيخ كبير فاتقى الله فيه » قالت : فوالله مابرحت حتى نزل فىّ قرآن ؛ فتغشى رسول الله — صلى الله عليه وسلم — ماكان يتغشاه ، ثم سرى عنه ، فقال لى : « ياخويلة قد أنزل الله فيك وفى صاحبك قرآنا » . . ثم قرأ على — : « قد سمع الله قول التى تجادلك فى زوجها وتشتكى إلى الله ، والله يسمع تحاوركما إن الله سميع بصير » . . إلى قـوله تعالى : « وللكافرين عـذاب أليم » . . قالت : فقال لى رسـول الله — صـلى الله عليـه وسـلم — : « مريه فليعتق رقبة » . قالت : فقلت : يارسول الله ماعنده مايعتق . قال : « فليصم شهرين متتابعين » . قالت : فقلت : والله إنه لشيخ ماله من صيام . قال : « فليطعم ستين مسكينا

وسقا من تمر » . قالت : فقلت : والله يارسول الله ماذاك عنده . قالت : فقال رسول الله — صلى الله عليه وسلم — : « فإنا سنعينه بعرق من تمر » . قالت : فقلت يارسول الله وأنا سأعينه بعرق آخر . قال : « قد أصبت وأحسنت فاذهبي فتصدقي به عنه ، ثم استوصى بابن عمك خيرا » . قالت : ففعلت(١) .

فهذا هو الشأن الذى سمع الله مادار فيه من حوار بين رسول الله — صلى الله عليه وسلم — والمرأة التي جاءت تجادله فيه . وهذا هو الشأن الذى أنزل الله فيه حكمه من فوق سبع سماوات ، ليعطى هذه المرأة حقها ، ويريح بالها وبال زوجها ، ويرسم للمسلمين الطريق فى مثل هذه المشكلة العائلية اليومية !

وهذا هو الشأن الذى تفتتح به سورة من سور القرآن : كتاب الله الخالد ، الذى تتجاوب جنبات الوجود بكل كلمة من كلماته ، وهى تتنزل من الملأ الأعلى . . تفتتح بمثل هذا الإعلان : « قد سمع الله قول التى تجادلك فى زوجها . . . » فإذا الله حاضر هذا الشأن الفردى لامرأة من عامة المسلمين ، لايشغله عن سماعه تدبيره للملكوت السماوات والأرض ؛ ولا يشغله عن الحكم فيه شأن من شؤون السماوات والأرض !

وإنه لأمر . . إنه لأمر أن يقع مثل هذا الحادث العجيب ؛ وأن تشعر جماعة من الناس أن الله هكذا معها ، حاضر شؤونها ، جليلها وصغيرها ، معنىٌّ بمشكلاتها اليومية ، مستجيب لأزماتها العادية . . وهو الله . . الكبير المتعال ، العظيم الجليل ، القهار المتكبر ، الذى له ملك السماوات والأرض وهو الغنى الحميد .

تقول عائشة — رضى الله عنها — : الحمد لله الذى وسع سمعه الأصوات . لقد جاءت المجادلة خولة إلى رسول الله — صلى الله عليه وسلم — فى جانب البيت ، ما أسمع ما تقول . فأنزل الله عز وجل : « قد سمع الله قول التى تجادلك فى زوجها وتشتكى إلى الله . . . الآية » (٢)

وفى رواية خولة — أو خويلة للتصغير والتدليل — للحادث ، وتصرفها هى فيه ، وذهابها إلى رسول الله — صلى الله عليه وسلم — ومجادلتها له ، ونزول القرآن بالحكم . . . فى هذا كله

---

(١) رواه أبو داود فى كتاب الطلاق من سننه من طريقين عن محمد ابن إسحاق ابن يسار . . والعرق ستون صاعا .

(٢) أخرجه البخارى والنسائى .

صورة من حياة تلك الجماعة الفريدة فى تلك الفترة العجيبة . وشعورها بتلك الصلة المباشرة ، وانتظارها التوجيه من السماء فى كل شأن من شؤونها واستجابة السماء لهذا الانتظار ، الذى يجعل الجماعة كلها ــ عيال الله ــ هو يرعاها وهى تتطلع إليه تطلع الطفل الصغير لأبيه وراعيه !

وننظر فى رواية الحادث فى النص القرآنى ، فنجد عناصر التأثير والإيحاء والتربية والتوجيه تسير جنبا إلى جنب مع الحكم وتتخلله وتعقب عليه ، كما هو أسلوب القرآن الفريد :

« قد سمع الله قول التى تجادلك فى زوجها وتشتكى إلى الله ، والله يسمع تحاوركما ، إن الله سميع بصير » .. وهو مطلع ذو إيقاع عجيب .. إنكما لم تكونا وحدكما .. لقد كان الله معكما . وكان يسمع لكما . لقد سمع قول المرأة . سمعها تجادلك فى زوجها وتشتكى إلى الله . وعلم القصة كلها . وهو يعلم تحاوركما وما كان فيه . . إن الله سميع بصير . يسمع ويرى . هذا شأنه وهذه صورة منه فى الحادث الذى كان الله ثالثكما فيه ..

وكلها إيقاعات ولمسات تهز القلوب . .

ثم يقرر أصل القضية ، وحقيقة الوضع فيها :

« الذين يظاهرون منكم من نسائهم ماهن أمهاتهم . إن أمهاتهم إلا اللائى ولدنهم . وإنهم ليقولون منكرا من القول وزورا ، وإن الله لعفو غفور » ..

فهو علاج للقضية من أساسها . إن هذا الظهار قائم على غير أصل . فالزوجة ليست أما حتى تكون محرمة كالأم . فالأم هى التى ولدت . ولا يمكن أن تستحيل الزوجة أما بكلمة تقال . إنها كلمة منكرة ينكرها الواقع . وكلمة مزورة ينكرها الحق . والأمور فى الحياة يجب أن تقوم على الحق والواقع ، فى وضوح وتحديد ، فلا تختلط ذلك الاختلاط ، ولا تضطرب هذا الاضطراب..
« وإن الله لعفو غفور » فيما سلف من هذه الأمور .

وبعد تقرير أصل القضية على هذا النحو المحدد الواضح يجىء الحكم القضائى فى الموضوع .
« والذين يظاهرون من نسائهم ثم يعودون لما قالوا فتحرير رقبة من قبل أن يتماسا . ذلكم توعظون به ، والله بما تعملون خبير » ..

وقد جعل الله العتق فى كفارات متنوعة ، وسيلة من وسائل التحرير للرقاب التى أوقعها نظام الحروب فى الرق إلى أجل ، ينتهى بوسائل شتى هذه واحدة منها . وهناك أقوال كثيرة فى معنى : « ثم يعودون لما قالوا » .. نختار منها أنهم يعودون إلى الوطء الذى حرموه على أنفسهم

بالظهار . فهذا أقرب ما يناسب السياق . فتحرير رقبة من قبل العودة إلى حله .. ثم التعقيب : « ذلكم توعظون به » .. فالكفارة مذكر وواعظ بعدم العودة إلى الظهار الذى لايقوم على حق ولا معروف « والله بما تعملون خبير » . . خبير بحقيقته ، وخبير بوقوعه ، وخبير بنيتكم فيه .

وهذا التعقيب يجىء قبل إتمام الحكم لإيقاظ القلوب ، وتربية النفوس ، وتنبيهها إلى قيام الله على الأمر بخبرته وعلمه بظاهره وخافيه . ثم يتابع بيان الحكم فيه :

« فمن لم يجد فصيام شهرين متتابعين من قبل أن يتماسا . فمن لم يستطع فإطعام ستين مسكينا » . . .

ثم التعقيب للبيان والتوجيه :

« ذلك لتؤمنوا بالله ورسوله » . . . وهم مؤمنون . . ولكن هذا البيان ، وهذه الكفارات وما فيها من ربط أحوالهم بأمر الله وقضائه . . ذلك مما يحقق الإيمان ، ويربط به الحياة ؛ ويجعل له سلطانا بارزا فى واقع الحياة . « وتلك حدود الله » .. أقامها ليقف الناس عندها لايتعدونها . وهو يغضب على من لا يرعاها ولا يتحرج دونها : « وللكافرين عذاب أليم » . . بتعديهم وتحديهم وعدم إيمانهم وعدم وقوفهم عند حدود الله كالمؤمنين . .

* * *

وتلك العبارة الأخيرة : « وللكافرين عذاب أليم » . . تناسب ختام الآية السابقة ، وهى فى الوقت ذاته قنطرة تربط بينها وبين الآية اللاحقة التى تتحدث عمن يحادون الله ورسوله . على طريقة القرآن فى الانتقال من حديث لحديث فى تسلسل عجيب :

« إن الذين يحادون الله ورسوله كبتوا كما كبت الذين من قبلهم ، وقد أنزلنا آيات بينات وللكافرين عذاب مهين . يوم يبعثهم الله جميعا ، فينبئهم بما عملوا أحصاه الله ونسوه ، والله على كل شىء شهيد » . .

إن المقطع الأول فى السورة كان صورة من صور الرعاية والعناية بالجماعة المسلمة . وهذا المقطع الثانى صورة من صور الحرب والنكاية للفريق الآخر . فريق الذين يحادون الله ورسوله ، أى الذين يأخذون لهم موقفا عند الحد الآخر فى مواجهة الله ورسوله ! وذكر المحادة بمناسبة ذكره قبلها لحدود الله . فهؤلاء لايقفون عند حد الله ورسوله ، بل عند الحد الآخر المواجه !

وهو تمثيل للمتخاصمين المتنازعين ، لتفظيع عملهم وتقبيح موقفهم . وساء موقف مخلوق يتحدى فيه خالقه ورازقه ، ويقف فى تبجح عند الحد المواجه لحده !

هؤلاء المحادون المشاقون المتبجحون : « كبتوا كما كبت الذين من قبلهم » . . والأرجح أن هذا دعاء عليهم . والدعاء من الله ـ سبحانه ـ حكم . فهو المريد وهو الفعال لما يريد . والكبت القهر والذل . والذين من قبلهم إما أن يكونوا هم الغابرين من الأقوام الذين أخذهم الله بنكاله وإما أن يكونوا الذين قهرهم المسلمون فى بعض المواقع التى تقدمت نزول هذه الآية ، كما حدث فى غزوة بدر مثلا .

« وقد أنزلنا آيات بينات » . .

تفصل هذه العبارة بين مصير الذين يحادون الله ورسوله فى الدنيا ومصيرهم فى الآخرة . . لتقرير أن هذا المصير وذاك تكفلت ببيانه هذه الآيات . وكذلك لتقرير أنهم يلاقون هذه المصائر لا عن جهل ولا عن غموض فى الحقيقة ، فقد وضحت لهم وعلموها بهذه الآيات البينات .

ثم يعرض مصيرهم فى الآخرة مع التعقيب الوحى الموقظ المربى للنفوس :

« وللكافرين عذاب مهين . يوم يبعثهم الله جميعا ، فينبئهم بما عملوا أحصاه الله ونسوه . والله على كل شىء شهيد » . .

والمهانة جزاء التبجح . وهى مهانة يوم يبعثهم الله جميعا . مهانة على رؤوس الجموع . وهو عذاب يقوم على حق وبيان لما عملوا . إن كانوا هم قد نسوه فإن الله أحصاه بعلمه الذى لا يند عنه شىء ، ولا يغيب عنه خاف : « والله على كل شىء شهيد » . .

وتلتقى صورة الرعاية والعناية ، بصورة الحرب والنكاية ، فى علم الله واطلاعه ، وشهوده وحضوره . فهو شاهد حاضر للعون والرعاية ؛ وهو شاهد حاضر للحرب والنكاية . فليطمئن بحضوره وشهوده المؤمنون . وليحذر من حضوره وشهوده الكافرون !

* * *

ويستطرد السياق من تقرير حقيقة : « والله على كل شىء شهيد » .. إلى رسم صورة حية من هذا الشهود ، تمس أوتار القلوب :

« ألم تر أن الله يعلم ما فى السماوات وما فى الأرض ، ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم ، ولا خمسة إلا هو سادسهم ، ولا أدنى من ذلك ولا أكثر إلا هو معهم ، أينما كانوا ، ثم ينبئهم بما عملوا يوم القيامة ، إن الله بكل شىء عليم » . .

تبدأ الآية بتقرير علم الله الشامل لما فى السماوات ومافى الأرض على إطلاقه ، فتدع القلب يرود آفاق السماوات وأرجاء الأرض مع علم الله المحيط بكل شىء فى هذا المدى الوسيع المتطاول . من صغير وكبير ، وخاف وظاهر ، ومعلوم ومجهول ..

ثم تتدرج من هذه الآفاق وتلك الأرجاء ، وتزحف وتقرب حتى تلمس ذوات المخاطبين وتمس قلوبهم بصورة من ذلك العلم الإلهى تهز القلوب :

« ما يكون من نجوى ثلاثة إلاهو رابعهم ، ولاخمسة إلاهو سادسهم ، ولاأدنى من ذلك ولا أكثر إلاهو معهم أينما كانوا » ..

وهي حقيقة فى ذاتها ، ولكنها تخرج فى صورة لفظية عميقة التأثير . صورة تترك القلوب وجلة ترتعش مرة ، وتأنس مرة ، وهى مأخوذة بمحضر الله الجليل المأنوس . وحيثما اختلى ثلاثة تلفتوا ليشعروا بالله رابعهم . وحيثما اجتمع خمسة تلفتوا ليشعروا بالله سادسهم . وحيثما كان اثنان يتناجيان فالله هناك ! وحيثما كانوا أكثر فالله هناك !

إنها حالة لا يثبت لها قلب ؛ ولايقوى على مواجهتها إلاوهو يرتعش ويهتز ... وهو محضر مأنوس نعم .. ولكنه كذلك جليل رهيب . محضر الله : « وهو معهم أينما كانوا » . .

« ثم ينبئهم بما عملوا يوم القيامة » . .

وهذه لمسة أخرى ترجف وتزلزل .. إن مجرد حضور الله وسماعه أمر هائل . فكيف إذا كان لهذا الحضور والسماع مابعده من حساب وعقاب ؟ وكيف إذا كان مايسره المتناجون وينعزلون به ليخفوه ، سيعرض على الأشهاد يوم القيامة وينبئهم الله به فى الملأ الأعلى فى ذلك اليوم المشهود ؟ !

وتنتهى الآية بصورة عامة كما بدأت :

« إن الله بكل شىء عليم » .

وهكذا تستقر حقيقة العلم الإلهى فى القلوب ، بهذه الأساليب المنوعة فى عرضها فى الآية الواحدة . الأساليب التى تعمق هذه الحقيقة فى القلب البشرى ، وهى تدخل بها عليه من شتى المسالك والدروب !

* * *

ذلك التقرير العميق لحقيقة حضور الله وشهوده فى تلك الصورة المؤثرة المرهوبة تمهد لتهديد

المنافقين ، الذين كانوا يتناجون فيما بينهم بالمؤامرات ضد الرسول — صلى الله عليه وسلم — وضد الجماعة المسلمة بالمدينة . مع التعجيب من موقفهم المريب :

« ألم تر إلى الذين نهوا عن النجوى ثم يعودون لما نهوا عنه ، ويتناجون بالإثم والعدوان ومعصية الرسول ، وإذا جاءوك حيوك بما لم يحيك به الله ، ويقولون فى أنفسهم : لولا يعذبنا الله بما نقول ! حسبهم جهنم يصلونها وبئس المصير » .

والآية توحى بأن خطة رسول الله — صلى الله عليه وسلم — مع المنافقين فى أول الأمر كانت هى النصح لهم بالاستقامة والإخلاص ، ونهيهم عن الدسائس والمؤامرات التى يدبرونها بالاتفاق مع اليهود فى المدينة وبوحيهم . وأنهم بعد هذا كانوا يلجون فى خطتهم اللئيمة ، وفى دسائسهم الخفية ، وفى التدبير السيء للجماعة المسلمة ، وفى اختيار الطرق والوسائل التى يعصون بها أوامر الرسول — صلى الله عليه وسلم — ويفسدون عليه أمره وأمر المسلمين المخلصين .

كما أنها توحى بأن بعضهم كان يلتوى فى صيغة التحية فيحورها إلى معنى سيء خفى : « وإذا جاءوك حيوك بما لم يحيك به الله » . كأن يقولوا — كما كان اليهود يقولون — السام عليكم . وهم يوهمون أنهم يقولون : السلام عليكم . بمعنى الموت لكم أو بمعنى تسامون فى دينكم ! أو أية صيغة أخرى ظاهرها برىء وباطنها لئيم ! وهم يقولون فى أنفسهم : لو كان نبيا حقا لعاقبنا الله على قولنا هذا . أى فى تحيتهم ، أو فى مجالسهم التى يتناجون فيها ويدبرون الدسائس والمؤامرات .

وظاهر من سياق السورة من مطلعها أن الله قد أخبر الرسول — صلى الله عليه وسلم — بما كانوا يقولونه فى أنفسهم ، وبمجالسهم ومؤامراتهم . فقد سبق فى السورة إعلان أن الله قد سمع للمرأة المجادلة ؛ وأنه ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم . . . الخ . مما يوحى بأنه أطلع رسوله على مؤامرات أولئك المنافقين وهو حاضر مجالسهم ! وبما يقولونه كذلك فى أنفسهم .

ثم رد عليهم بقوله تعالى :

« حسبهم جهنم يصلونها فبئس المصير » .

وكشف هذه المؤامرات الخفية ، وإفشاء نجواهم التى عادوا إليها بعدما نهوا عنها ، وكذلك فضح ما كانوا يقولونه فى أنفسهم: « لولا يعذبنا الله بما نقول » .. هذا كله هو تصديق وتطبيق لحقيقة علم الله بما فى السماوات وما فى الأرض ، وحضوره لكل نجوى ، وشهوده لكل اجتماع .

وهو يوقع فى نفوس المنافقين أن أمرهم مفضوح ، كما يوحى للمؤمنين بالاطمئنان والوثوق .

* * *

وهنا يلتفت إلى الذين آمنوا، يخاطبهم بهذا النداء : « ياأيها الذين آمنوا» لينهاهم عن التناجى بما يتناجى به المنافقون من الإثم والعدوان ومعصية الرسول ، ويذكرهم تقوى الله ، ويبين لهم أن النجوى على هذا النحوهى من إيحاء الشيطان ليحزن الذين آمنوا ، فليست تليق بالمؤمنين :

« ياأيها الذين آمنوا إذا تناجيتم فلاتتناجوا بالإثم والعدوان ومعصية الرسول ، وتناجوا بالبر والتقوى ، واتقوا الله الذى إليه تحشرون . إنما النجوى من الشيطان ليحزن الذين آمنوا وليس بضارهم شيئا إلا بإذن الله ، وعلى الله فليتوكل المؤمنون » . .

ويبدو أن بعض المسلمين ممن لم تنطبع نفوسهم بعد بحاسة التنظيم الإسلامى ، كانوا يتجمعون عندما تحزب الأمور، ليتناجوا فيما بينهم ويتشاوروا بعيدا عن قيادتهم . الأمر الذى لاتقره طبيعة الجماعة الإسلامية ، وروح التنظيم الإسلامى ، التى تقتضى عرض كل رأى وكل فكرة وكل اقتراح على القيادة ابتداء، وعدم التجمعات الجانبية فى الجماعة . كما يبدو أن بعض هذه التجمعات كان يدور فيها ماقد يؤدى إلى البلبلة ، ومايؤذى الجماعة المسلمة — ولولم يكن قصد الإيذاء قائما فى نفوس المتناجين — ولكن مجرد إثارتهم للمسائل الجارية وإبداء الآراء فيها على غير علم ، قد يؤدى إلى الإيذاء ، وإلى عدم الطاعة .

وهنا يناديهم الله بصفتهم التى تربطهم به ، وتجعل للنداء وقعه وتأثيره : « ياأيها الذين آمنوا » .. لينهاهم عن التناجى — إذا تناجوا — بالإثم والعدوان ومعصية الرسول . ويبين لهم مايليق بهم من الموضوعات التى يتناجى بها المؤمنون : « وتناجوا بالبر والتقوى » . . لتدبير وسائلهما وتحقيق مدلولهما . والبر : الخير عامة . والتقوى : اليقظة والرقابة لله سبحانه ، وهى لاتوحى إلا بالخير . ويذكرهم بمخافة الله الذى يحشرون إليه ، فيحاسبهم بما كسبوا . وهو شاهده ومحصيه . مهما ستروه وأخفوه .

قال الإمام أحمد : حدثنا بهز وعفان ، قالا : أخبرنا همام ، عن قتادة ، عن صفوان ابن محرز ، قال : كنت آخذا بيد ابن عمر ، إذ عرض له رجل ، فقال : كيف سمعت رسول الله — صلى الله عليه وسلم — يقول فى النجوى يوم القيامة ؟ قال : سمعت رسول الله — صلى الله عليه وسلم — يقول : « إن الله يدنى المؤمن ، فيضع عليه كنفه ، ويستره من الناس ، ويقرره بذنوبه ، ويقول له :

أتعرف ذنب كذا ؟ أتعرف ذنب كذا ؟ أتعرف ذنب كذا ؟ حتى إذا قرره بذنوبه ، ورأى فى نفسه أنه قد هلك قال : فإنى قد سترتها عليك فى الدنيا وأنا أغفرها لك اليوم . ثم يعطى كتاب حسناته . وأما الكفار والمنافقون فيقول الأشهاد هؤلاء الذين كذبوا على ربهم ، ألا لعنة الله على الظالمين » (١) .

ثم ينفرهم من التناجى والمسارة والتدسس بالقول فى خفية عن الجماعة المسلمة ، التى هم منها، ومصلحتهم مصلحتها ، وينبغى ألا يشعروا بالانفصال عنها فى شأن من الشئون . فيقول لهم : إن رؤية المسلمين للوسوسة والهمس والانعزال بالحديث تبث فى قلوبهم الحزن والتوجس ، وتخلق جوا من عدم الثقة ؛ وأن الشيطان يغرى المتناجين ليحزنوا نفوس إخوانهم ويدخلوا إليها الوساوس والهموم . ويطمئن المؤمنين بأن الشيطان لن يبلغ فيهم ما يريد :

« إنما النجوى من الشيطان ليحزن الذين آمنوا ، وليس بضارهم شيئا — إلا بإذن الله — وعلى الله فليتوكل المؤمنون » . .

فالمؤمنون لا يتوكلون إلا على الله . فليس وراء ذلك توكل ، وليس من دون الله من يتوكل عليه المؤمنون !

وقد وردت الأحاديث النبوية الكريمة بالنهى عن التناجى فى الحالات التى توقع الريبة وتزعزع الثقة وتبعث التوجس :

جاء فى الصحيحين من حديث الأعمش — بإسناده — عن عبد الله ابن مسعود — رضى الله عنه — قال : قال رسول الله — صلى الله عليه وسلم — : « إذا كنتم ثلاثة فلا يتناجى اثنان دون صاحبهما فإن ذلك يحزنه » .

وهو أدب رفيع ، كما أنه تحفظ حكيم لإبعاد كل الريب والشكوك . فأما حيث تكون هناك مصلحة فى كتمان سر ، أو ستر عورة ، فى شأن عام أو خاص ، فلا مانع من التشاور فى سر وتكتم . وهذا يكون عادة بين القادة المسئولين عن الجماعة . ولا يجوز أن يكون تجمعا جانبيا بعيدا عن علم الجماعة . فهذا هو الذى نهى عنه القرآن ونهى عنه الرسول . وهذا هو الذى يفتت الجماعة أو يوقع فى صفوفها الشك وفقدان الثقة . وهذا هو الذى يدبره الشيطان ليحزن الذين آمنوا . ووعد الله قاطع فى أن الشيطان لن يبلغ بهذه الوسيلة ما يريد فى الجماعة

(١) أخرجه البخارى ومسلم .

المؤمنة ، لأن الله حارسها وكالئها ؛ وهو شاهد حاضر فى كل مناجاة ، وعالم بما يدور فيها من كيد ودس وتآمر . ولن يضر الشيطان المؤمنين . . « إلا بإذن الله » . . وهو استثناء تحفظى لتقرير طلاقة المشيئة فى كل موطن من مواطن الوعد والجزم ، لتبقى المشيئة حرة وراء الوعد والجزم . .

« وعلى الله فليتوكل المؤمنون » . . فهو الحارس الحامى ، وهو القوى العزيز ، وهو العليم الخبير . وهو الشاهد الحاضر الذى لايغيب . ولا يكون فى الكون إلا مايريد . وقد وعد بحراسة المؤمنين . فأى طمأنينة بعد هذا وأى يقين ؟

* * *

ثم يأخذ الذين آمنوا بأدب آخر من آداب الجماعة :

« يا أيها الذين آمنوا إذا قيل لكم : تفسحوا فى المجالس فافسحوا يفسح الله لكم . وإذا قيل : انشزوا فانشزوا ، يرفع الله الذين آمنوا منكم والذى أوتوا العلم درجات . والله بما تعملون خبير » . .

ويظهر من بعض الروايات التى حكت سبب نزول الآية أن لها علاقة واقعية بالمنافقين ، مما يجعل بينها وبين الآيات قبلها أكثر من ارتباط واحد فى السياق .

قال قتادة : نزلت هذه الآية فى مجالس الذكر ، وذلك أنهم كانوا إذا رأوا أحدهم مقبلا ضنوا بمجالسهم عند رسول الله — صلى الله عليه وسلم — فأمرهم الله تعالى أن يفسح بعضهم لبعض.

وقال مقاتل ابن حيان : أنزلت هذه الآية يوم الجمعة . وكان رسول الله — صلى الله عليه وسلم — يومئذ فى الصفة ، وفى المكان ضيق . وكان يكرم أهل بدر من المهاجرين والأنصار . فجاء ناس من أهل بدر وقد سُبقوا إلى المجالس فقاموا حيال رسول الله — صلى الله عليه وسلم — فقالوا : السلام عليكم أيها النبى ورحمة الله وبركاته ، فرد النبى — صلى الله عليه وسلم — عليهم . ثم سلموا على القوم بعد ذلك فردوا عليهم فقاموا على أرجلهم ينتظرون أن يوسع لهم . فعرف النبى — صلى الله عليه وسلم — ما يحملهم على القيام ، فلم يُفسح لهم . فشق ذلك على النبى — صلى الله عليه وسلم — فقال لمن حوله من المهاجرين والأنصار من غير أهل بدر : قم يافلان . وأنت يافلان . فلم يزل يقيمهم بعدة النفر الذين هم قيام بين يديه من المهاجرين والأنصار أهل بدر . فشق ذلك على من أقيم من مجلسه ،وعرف النبى — صلى الله عليه وسلم — الكراهة فى وجوههم .

فقال المنافقون : ألستم تزعمون أن صاحبكم هذا يعدل بين الناس ؟ والله مارأيناه قد عدل على هؤلاء ! إن قوما أخذوا مجالسهم وأحبوا القرب من نبيهم ، فأقامهم وأجلس من أبطأ عنه . . فبلغنا أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال : « رحم الله رجلا يفسح لأخيه » . فجعلوا يقومون بعد ذلك سراعا ، فيفسح القوم لإخوانهم . ونزلت هذه الآية يوم الجمعة .

وإذا صحت هذه الرواية فإنها لا تتنافى مع الأحاديث الأخرى التي تنهى عن أن يقيم الرجل الرجل من مكانه ليجلس فيه . كما جاء في الصحيحين: « لايقيم الرجل الرجل من مجلسه فيجلس فيه ، ولكن تفسحوا وتوسعوا » . . وماورد كذلك من ضرورة استقرار القادم حيث انتهى به المجلس . فلا يتخطى رقاب الناس ليأخذ مكانا في الصدر !

فالآية تحض على الإفساح للقادم ليجلس ، كما تحض على إطاعة الأمر إذا قيل لجالس أن يرفع فيرفع . وهذا الأمر يجيء من القائد المسئول عن تنظيم الجماعة . لامن القادم .

والغرض هو إيجاد الفسحة في النفس قبل إيجاد الفسحة في المكان . ومتى رحب القلب اتسع وتسامح ، واستقبل الجالس إخوانه بالحب والسماحة، فأفسح لهم في المكان عن رضى وارتياح. فأما إذا رأى القائد أن هناك اعتبارا من الاعتبارات يقتضي إخلاء المكان فالطاعة يجب أن ترعى عن طواعية نفس ورضى خاطر وطمأنينة بال . مع بقاء القواعد الكلية مرعية كذلك ، من عدم تخطي الرقاب أو إقامة الرجل للرجل ليأخذ مكانه . وإنما هي السماحة والنظام يقررها الإسلام . والأدب الواجب في كل حال .

وعلى طريقة القرآن في استجاشة الشعور عند كل تكليف ، فإنه يعد المفسحين في المجالس بفسحة من الله لهم وسعة : « فافسحوا يفسح الله لكم » . . ويعد الناشزين الذين يرفعون من المكان ويخلونه عن طاعة لأمر الرسول برفعة في المقام : « وإذا قيل انشزوا فانشزوا يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات » .. وذلك جزاء تواضعهم وقيامهم عند تلقي الأمر بالقيام .

وقد كانت المناسبة مناسبة قرب من الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ لتلقي العلم في مجلسه . فالآية تعلمهم : أن الإيمان الذي يدفع إلى فسحة الصدر وطاعة الأمر ، والعلم الذي يهذب القلب فيتسع ويطيع ، يؤديان إلى الرفعة عند الله درجات . وفي هذا مقابل لرفعة المكان الذي تطوعوا بتركه ورفعوا عنه لاعتبار رآه الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ « والله بما تعملون خبير » . . فهو يجزي به عن علم ومعرفة بحقيقة ماتعملون ، وبما وراءه من شعور مكنون .

وهكذا يتولى القرآن تربية النفوس وتهذيبها ، وتعليمها الفسحة والسماحة والطاعة بأسلوب التشويق والاستجاشة . فالدين ليس بالتكاليف الحرفية ، ولكنه تحول فى الشعور ، وحساسية فى الضمير . .

* * *

كذلك يعلمهم القرآن أدبا آخر فى علاقتهم برسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فيبدو أنه كان هناك تزاحم على الخلوة برسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ليحدثه كل فرد فى شأن يخصه ؛ ويأخذ فيه توجيهه ورأيه ؛ أوليستمتع بالانفراد به مع عدم التقدير لمهام رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ الجماعية ؛ وعدم الشعور بقيمة وقته ، وبجدية الخلوة به ، وأنها لاتكون إلا لأمر ذى بال . فشاء الله أن يشعرهم بهذه المعانى بتقرير ضريبة للجماعة من مال الذى يريد أن يخلو برسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ويقتطع من وقته الذى هو من حق الجماعة . فى صورة صدقة يقدمها قبل أن يطلب المناجاة والخلوة :

« ياأيها الذين آمنوا إذا ناجيتم الرسول فقدموا بين يدى نجواكم صدقة . ذلك خير لكم وأطهر . فإن لم تجدوا فإن الله غفور رحيم » . .

وقد عمل بهذه الآية الإمام على ـ كرم الله وجهه ـ فكان معه ـ كما روى عنه ـ دينار فصرفه دراهم . وكان كلما أراد خلوة برسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ لأمر تصدق بدرهم ! ولكن الأمر شق على المسلمين . وعلم الله ذلك منهم.وكان الأمر قد أدى غايته ، وأشعرهم بقيمة الخلوة التى يطلبونها . فخفف الله عنهم ونزلت الآية التالية برفع هذا التكليف ؛ وتوجيههم إلى العبادات والطاعات المصلحة للقلوب :

« أأشفقتم أن تقدموا بين يدى نجواكم صدقات ؟ فإذ لم تفعلوا وتاب الله عليكم فأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة وأطيعوا الله ورسوله . والله خبير بما تعملون » . .

وفى هاتين الآيتين والروايات التى ذكرت أسباب نزولهما نجد لونا من ألوان الجهود التربوية لإعداد هذه الجماعة المسلمة فى الصغير والكبير من شئون الشعور والسلوك .

* * *

ثم يعود السياق إلى المنافقين الذين يتولون اليهود ، فيصور بعض أحوالهم ومواقفهم ، ويتوعدهم بافتضاح أمرهم ، وسوء مصيرهم ، وانتصار الدعوة الإسلامية وأصحابها على الرغم من كل تدبيراتهم :

« ألم تر إلى الذين تولوا قوما غضب الله عليهم؟ ماهم منكم ولامنهم ، ويحلفون على الكذب وهم يعلمون . أعد الله لهم عذابا شديدا ، إنهم ساء ماكانوا يعملون . اتخذوا أيمانهم جنة فصدوا عن سبيل الله ، فلهم عذاب مهين . لن تغنى عنهم أموالهم ولا أولادهم من الله شيئا. أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون . يوم يبعثهم الله جميعا فيحلفون له كما يحلفون لكم ويحسبون أنهم على شيء . ألا إنهم هم الكاذبون .استحوذ عليهم الشيطان فأنساهم ذكر الله ، أولئك حزب الشيطان ، ألاإن حزب الشيطان هم الخاسرون » ..

وهذه الحملة القوية على المنافقين الذين يتولون قوما غضب الله عليهم — وهم اليهود — تدل على أنهم كانوا يمعنون فى الكيد للمسلمين ،ويتآمرون مع ألد أعدائهم عليهم ؛ كما تدل على أن سلطة الإسلام كانت قد عظمت ، بحيث يخافها المنافقون ، فيضطرون — عندما يواجههم رسول الله — صلى الله عليه وسلم — والمؤمنون بما يكشفه الله من تدبيراتهم ومؤامراتهم — إلى الحلف بالكذب لإنكار ما ينسب إليهم من مؤامرات وأقوال ؛ وهم يعلمون أنهم كاذبون فى هذه الأيمان . إنما هم يتقون بأيمانهم ما يتوقعونه من مؤاخذتهم بما ينكشف من دسائسهم: « اتخذوا أيمانهم جنة » أى وقاية . وبذلك يستمرون فى دسائسهم للصد عن سبيل الله !

والله يتوعدهم مرات فى خلال هذه الآيات : « أعد الله لهم عذابا شديدا . إنهم ساء ما كانوا يعملون » . . « فلهم عذاب مهين » . . « لن تغنى عنهم أموالهم ولا أولادهم من الله شيئا . أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون » . .

ويصور مشهدهم يوم القيامة فى وضع مزر مهين ، وهم يحلفون لله كما كانوا يحلفون للناس : « يوم يبعثهم الله جميعا فيحلفون له كما يحلفون لكم » . . مما يشير إلى أن النفاق قد تأصل فى كيانهم ، حتى ليصاحبهم إلى يوم القيامة . وفى حضرة الله ذى الجلال . الذى يعلم خفايا القلوب وذوات الصدور ! « ويحسبون أنهم على شيء » . . وهم على هواء لايستندون إلى شيء . أى شيء !

ويدمغهم بالكذب الأصيل الثابت : « ألا إنهم هم الكاذبون » . .

ثم يكشف عن علة حالهم هذه . فقد استولى عليهم الشيطان كلية « فأنساهم ذكر الله » .. والقلب الذى ينسى ذكر الله يفسد ويتمحض للشر : « أولئك حزب الشيطان » . . الخالص للشيطان الذى يقف تحت لوائه ، ويعمل باسمه ، وينفذ غاياته . وهو الشر الخالص الذى ينتهى إلى الخسران الخالص : « ألا إن حزب الشيطان هم الخاسرون » . .

وهى حملة شديدة عنيفة تناسب الشر والأذى والفتنة التى يدبرونها للمسلمين مع أعدائهم الماكرين . وتطمئن قلوب المسلمين . والله — سبحانه وتعالى — يتولى عنهم الحملة على أعدائهم المستورين !

* * *

ولما كان أولئك المنافقون يأوون إلى اليهود شعورا منهم بأنهم قوة تخشى وترجى. ويطلبون عندهم العون والمشورة . فإن الله ييئسهم منهم ، ويقرر أنه كتب على أعدائه الذلة والهزيمة ، وكتب لنفسه ولرسوله الغلبة والتمكين :

« إن الذين يحادون الله ورسوله أولئك فى الأذلين . كتب الله لأغلبن أنا ورسلى . إن الله قوى عزيز » .. وهذا وعد الله الصادق الذى كان والذى لا بد أن يكون على الرغم مما قد يبدو أحيانا من الظاهر الذى يخالف هذا الوعد الصادق .

فالذى وقع بالفعل أن الإيمان والتوحيد قد غلبا على الكفر والشرك . واستقرت العقيدة فى الله فى هذه الأرض ؛ ودانت لها البشرية بعد كل ما وقف فى طريقها من عقبات الشرك والوثنية ، وبعد الصراع الطويل مع الكفر والشرك والإلحاد . وإذا كانت هناك فترات عاد فيها الإلحاد أو الشرك إلى الظهور فى بعض بقاع الأرض — كما يقع الآن فى الدول الملحدة والوثنية — فإن العقيدة فى الله ظلت هى المسيطرة بصفة عامة . فضلا على أن فترات الإلحاد والوثنية إلى زوال مؤكد ، لأنها غير صالحة للبقاء . والبشرية تهتدى فى كل يوم إلى أدلة جديدة تهدى إلى الاعتقاد فى الله والتمكين لعقيدة الإيمان والتوحيد .

والمؤمن يتعامل مع وعد الله على أنه الحقيقة الواقعة . فإذا كان الواقع الصغير فى جيل محدود أو فى رقعة محدودة يخالف تلك الحقيقة ، فهذا الواقع هو الباطل الزائل . الذى يوجد فترة فى الأرض لحكمة خاصة . لعلها استجاشة الإيمان وإهاجته لتحقيق وعد الله فى وقته المرسوم .

وحين ينظر الإنسان اليوم إلى الحرب الهائلة التى شنها أعداء الإيمان على أهل الإيمان فى صورها المتنوعة، من بطش ومن ضغط ومن كيد بكل صنوف الكيد فى عهود متطاولة ، بلغ فى بعضها من عنف الحملة على المؤمنين أن قتلوا وشردوا وعذبوا وقطعت أرزاقهم وسلطت عليهم جميع أنواع النكاية . ثم بقى الإيمان فى قلوب المؤمنين ، يحميهم من الانهيار ، ويحمى شعوبهم كلها من ضياع شخصيتها وذوبانها فى الأمم الهاجمة عليها، ومن خضوعها للطغيان الغاشم إلا ريثما

تنقض عليه وتحطمه . . حين ينظر الإنسان إلى هذا الواقع فى المدى المتطاول يجد مصداق قوله الله تعالى . يجده فى هذا الواقع ذاته بدون حاجة إلى الانتظار الطويل !

وعلى أية حال فلايخالج المؤمن شك فى أن وعد الله هو الحقيقة الكائنة التى لابد أن تظهر فى الوجود، وأن الذين يحادون الله ورسوله هم الأذلون، وأن الله ورسله هم الغالبون.وأن هذا هو الكائن والذى لابد أن يكون . ولكن الظواهر غير هذا ماتكون !

***

وفى النهاية تجيء القاعدة الثابتة التى يقف عليها المؤمنون ، أوالميزان الدقيق للإيمان فى النفوس : « لاتجد قوما يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله ، ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم . أولئك كتب فى قلوبهم الإيمان وأيدهم بروح منه ، ويدخلهم جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها . رضى الله عنهم ورضوا عنه . أولئك حزب الله . ألا إن حزب الله هم المفلحون » . .

إنها المفاصلة الكاملة بين حزب الله وحزب الشيطان ، والانحياز النهائى للصف المتميز ، والتجرد من كل عائق وكل جاذب ، والارتباط فى العروة الواحدة بالحبل الواحد .

« لاتجد قوما يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله » . .

فما جعل الله لرجل من قلبين فى جوفه ، وما يجمع إنسان فى قلب واحد ودين : ودا لله ورسوله وودا لأعداء الله ورسوله ! فإما إيمان أولا إيمان . أما هما معا فلا يجتمعان .

« ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم » . .

فروابط الدم والقرابة هذه تتقطع عند حد الإيمان . إنها يمكن أن ترعى إذا لم تكن هناك محادة وخصومة بين اللوائين : لواء الله ولواء الشيطان . والصحبة بالمعروف للوالدين المشركين مأمور بها حين لاتكون هناك حرب بين حزب الله وحزب الشيطان .فأما إذا كانت المحادة والمشاقة والحرب والخصومة فقد تقطعت تلك الأواصر التى لاترتبط بالعروة الواحدة وبالحبل الواحد . ولقد قتل أبو عبيدة أباه فى يوم بدر . وهم الصديق أبو بكر بقتل ولده عبد الرحمن . وقتل مصعب ابن عمير أخاه عبيد ابن عمير . وقتل عمر وحمزة وعلى وعبيدة والحارث أقرباءهم وعشيرتهم . متجردين من علائق الدم والقرابة إلى آصرة الدين والعقيدة . وكان هذا أبلغ ماارتقى إليه تصور الروابط والقيم فى ميزان الله .

« أولئك كتب فى قلوبهم الإيمان » . .

فهو مثبت فى قلوبهم يد الله مكتوب فى صدورهم بيمين الرحمان . فلا زوال له ولا اندثار ، ولا انطماس فيه ولا غموض !

« وأيدهم بروح منه » . .

وما يمكن أن يعزموا هذه العزمة إلا بروح من الله . وما يمكن أن تشرق قلوبهم بهذا النور إلا بهذا الروح الذى يمدهم بالقوة والإشراق ، ويصلهم بمصدر القوة والإشراق .

« ويدخلهم جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها » .

جزاء ما تجردوا فى الأرض من كل رابطة وآصرة ؛ ونفضوا عن قلوبهم كل عرض من أعراضها الفانية .

« رضى الله عنهم ورضوا عنه » . .

وهذه صورة وضيئة راضية مطمئنة ، ترسم حالة المؤمنين هؤلاء ، فى مقام عال رفيع . وفى جو راض وديع . . ربهم راض عنهم وهم راضون عن ربهم . انقطعوا عن كل شىء ووصلوا أنفسهم به ؛ فتقبلهم فى كنفه ، وأفسح لهم فى جنابه ، وأشعرهم برضاه . فرضوا رضيت نفوسهم هذا القرب وأنست به واطمأنت إليه . .

« أولئك حزب الله » . .

فهم جماعته . المتجمعة تحت لوائه . المتحركة بقيادته . المهتدية بهديه . المحققة لمنهجه . الفاعلة فى الأرض ما قدره وقضاه . فهى قدر من قدر الله .

« ألا إن حزب الله هم المفلحون » .

ومن يفلح إذن إذا لم يفلح أنصار الله المختارون ؟

وهكذا تنقسم البشرية إلى حزبين اثنين : حزب الله وحزب الشيطان . وإلى رايتين اثنتين : راية الحق وراية الباطل . . فإما أن يكون الفرد من حزب الله فهو واقف تحت راية الحق ، وإما أن يكون من حزب الشيطان فهو واقف تحت راية الباطل . . وهما صفان متميزان لا يختلطان ولا يتميعان ! !

لا نسب ولا صهر ، ولا أهل ولا قرابة ، ولا وطن ولا جنس ، ولا عصبية ولا قومية . . إنما هى العقيدة ، والعقيدة وحدها . فمن انحاز إلى حزب الله ووقف تحت راية الحق فهو وجميع الواقفين تحت هذه الراية إخوة فى الله . تختلف ألوانهم وتختلف أوطانهم ، وتختلف عشائرهم

وتختلف أسرهم ، ولـكنهم يلتقون فى الرابطة التى تؤلف حزب الله، فتذوب الفوارق كلها تحت الراية الواحدة . ومن استحوذ عليه الشيطان فوقف تحت راية الباطل ، فلن تربطه بأحد من حزب الله رابطة . لامن أرض ، ولامن جنس ، ولامن وطن ولامن لون ، ولامن عشـيرة ولامن نسب ولامن صهر . . لقد انبتت الوشيجة الأولى التى تقوم عليها هذه الوشائج فانبتت هذه الوشائج جميعا . .

* * *

ومع إيحاء هذه الآية بأنه كان هناك فى الجماعة المسلمة من تشده أواصر الدم والقرابة وجواذب المصلحة والصداقة، مما تعالجه هذه الآية فى النفوس، وهى تضع ميزان الإيمان بهذا الحسم الجازم ، والمفاضلة القاطعة . . إلا أنها فى الوقت ذاته ترسم صورة لطائفة كانت قائمة كذلك فى الجماعة المسلمة ، ممن تجردوا وخلصوا ووصلوا إلى ذلك المقام .

وهذه الصورة هى أنسب ختام للسورة التى بدأت بتصوير رعاية الله وعنايته بهذه الأمة فى واقعة المرأة الفقيرة التى سمع الله لها وهى تجادل رسوله ــ صلى الله عليه وسلم ــ فى شأنها وشأن زوجها !

فالانقطاع لله الذى يرعى هذه الأمة مثل هذه الرعاية هو الاستجابة الطبيعية. والمفاضلة بين حزب الله وحزب الشيطان هى الأمر الذى لاينبغى غيره للأمة التى اختارها الله للدور الـكونى الذى كلفها إياه .

سورة الحشر مدنية
وآياتها ٢٤

بسم الله الرحمن الرحيم

« سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَاوَاتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ، وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ * هُوَ ٱلَّذِي أَخْرَجَ
ٱلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَابِ مِنْ دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ ٱلْحَشْرِ ، مَا ظَنَنْتُمْ أَنْ يَخْرُجُوا ،
وَظَنُّوا أَنَّهُمْ مَانِعَتُهُمْ حُصُونُهُمْ مِنَ ٱللَّهِ ، فَأَتَاهُمُ ٱللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا ، وَقَذَفَ
فِي قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ ، يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي ٱلْمُؤْمِنِينَ ، فَٱعْتَبِرُوا يَاأُولِي
ٱلْأَبْصَارِ * وَلَوْلَا أَنْ كَتَبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمُ ٱلْجَلَاءَ لَعَذَّبَهُمْ فِي ٱلدُّنْيَا ، وَلَهُمْ فِي ٱلْآخِرَةِ عَذَابُ
ٱلنَّارِ * ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا ٱللَّهَ وَرَسُولَهُ ، وَمَنْ يُشَاقِّ ٱللَّهَ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ .

« مَا قَطَعْتُمْ مِنْ لِينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَىٰ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ وَلِيُخْزِيَ
ٱلْفَاسِقِينَ * وَمَا أَفَاءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ مِنْهُمْ فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ ،
وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ ، وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ * مَا أَفَاءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ
رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَامَىٰ وَٱلْمَسَاكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ ،
كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ ٱلْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ ؛ وَمَا آتَاكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ
فَٱنْتَهُوا ، وَٱتَّقُوا ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ * لِلْفُقَرَاءِ ٱلْمُهَاجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا
مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَانًا ، وَيَنْصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُ ،
أُولَٰئِكَ هُمُ ٱلصَّادِقُونَ * وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُوا ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ
إِلَيْهِمْ ، وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا ، وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ

خَصَاصَةٌ ، وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ * وَٱلَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ : رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ ، وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ .

« أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَابِ : لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَداً أَبَداً ، وَإِنْ قُوتِلْتُمْ لَنَنْصُرَنَّكُمْ ، وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ * لَئِنْ أُخْرِجُوا لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ ، وَلَئِنْ قُوتِلُوا لَا يَنْصُرُونَهُمْ وَلَئِنْ نَصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ ٱلْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنْصَرُونَ * لَأَنْتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِمْ مِنَ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ * لَا يُقَاتِلُونَكُمْ جَمِيعاً إِلَّا فِي قُرًى مُحَصَّنَةٍ أَوْ مِنْ وَرَاءِ جُدُرٍ ، بَأْسُهُمْ بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ ، تَحْسَبُهُمْ جَمِيعاً وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ ، ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ * كَمَثَلِ ٱلَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَرِيباً ذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ ، وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ * كَمَثَلِ ٱلشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلْإِنْسَانِ : ٱكْفُرْ . فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ : إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكَ إِنِّي أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَالَمِينَ * فَكَانَ عَاقِبَتَهُمَا أَنَّهُمَا فِي ٱلنَّارِ خَالِدَيْنِ فِيهَا وَذَٰلِكَ جَزَاءُ ٱلظَّالِمِينَ .

« يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا ٱتَّقُوا ٱللَّهَ ، وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ لِغَدٍ ، وَٱتَّقُوا ٱللَّهَ ، إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ * وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا ٱللَّهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ ، أُولَٰئِكَ هُمُ ٱلْفَاسِقُونَ * لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ ٱلنَّارِ وَأَصْحَابُ ٱلْجَنَّةِ ، أَصْحَابُ ٱلْجَنَّةِ هُمُ ٱلْفَائِزُونَ .

« لَوْ أَنْزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعاً مُتَصَدِّعاً مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ، وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ * هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِي لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَالِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَادَةِ هُوَ ٱلرَّحْمَانُ ٱلرَّحِيمُ * هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِي لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَامُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ ، سُبْحَانَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ * هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَالِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ ، لَهُ ٱلْأَسْمَاءُ ٱلْحُسْنَىٰ ، يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي ٱلسَّمَاوَاتِ وَٱلْأَرْضِ ، وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ » .

نزلت هذه السورة فى حادث بنى النضير ـ حى من أحياء اليهود ـ فى السنة الرابعة من الهجرة . تصف كيف وقع ؟ ولماذا وقع ؟ وما كان فى أعقابه من تنظيمات فى الجماعة الإسلامية . . تروبها بطريقة القرآن الخاصة ، وتعقب على الأحداث والتنظيمات بطريقة القرآن كذلك فى تربية تلك الجماعة تربية حية بالأحداث والتوجيهات والتعقيبات .

وقبل أن نستعرض النصوص القرآنية فى السورة ، نعرض شيئا مما ذكرته الروايات عن ذلك الحادث الذى نزلت السورة بشأنه ؛ لنرى ميزة العرض القرآنى ، وبعد آماده وراء الأحداث التى تنزل بشأنها النصوص ، فتفى بمقتضيات الأحداث ، وتمتد وراءها وحولها فى مجالات أوسع وأشمل من مقتضيات تلك الأحداث المحدودة بالزمان والمكان .

كانت وقعة بنى النضير فى أوائل السنة الرابعة من الهجرة بعد غزوة أحد وقبل غزوة الأحزاب . ومما يذكر عنها أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ذهب مع عشرة من كبار أصحابه منهم أبو بكر وعمر وعلى ـ رضى الله عنهم ـ إلى محلة بنى النضير ، يطلب منهم المشاركة فى أداء دية قتيلين بحكم ما كان بينه وبينهم من عهد فى أول مقدمه على المدينة . فاستقبله يهود بنى النضير بالبشر والترحاب ووعدوا بأداء ماعليهم ، بينما كانوا يدبرون أمرا لاغتيال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ومن معه . وكان ـ صلى الله عليه وسلم ـ جالسا إلى جدار من بيوتهم. فقال بعضهم لبعض : إنكم لن تجدوا الرجل على مثل حاله هذه . فمن رجل منكم يعلو هذا البيت ، فيلقى عليه صخرة ، فيريحنا منه ؟ فانتدب لذلك عمرو ابن جحاش ابن كعب . فقال : أنا لذلك . فصعد ليلقى عليه صخرة كما قال . فألهم رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ مايبيت اليهود من غدر . فقام كأنما ليقضى أمرا . فلما غاب استبطأه من معه ، فخرجوا من المحلة يسألون عنه ، فعلموا أنه دخل المدينة .

وأمر رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بالتهيؤ لحرب بنى النضير لظهور الخيانة منهم ، ونقض عهد الأمان الذى بينه وبينهم . وكان قد سبق هذا إقذاع كعب ابن الأشرف ـ من بنى النضير ـ فى هجاء رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وتأليبه الأعداء عليه . وما قيل من أن كعبا ورهطا من بنى النضير اتصلوا بكفار قريش اتصال تآمر وتحالف وكيد ضد النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ مع قيام ذلك العهد بينهم وبينه . مما جعل رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يأذن لمحمد ابن مسلمة فى قتل كعب ابن الأشرف . فقتله .

فلما كان التبييت للغدر برسول الله فى محلة بنى النضير لم يبق مفر من نبذ عهدهم إليهم . وفق القاعدة الإسلامية : وإما تخافن من قوم خيانة فانبذ إليهم على سواء إن الله لا يحب الخائنين » . .
فتجهز رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وحاصر محلة بنى النضير ، وأمهلهم ثلاثة أيام ـ وقيل عشرة ـ ليفارقوا جواره ويجلوا عن المحلة على أن يأخذوا أموالهم ، ويقيموا وكلاء عنهم على بساتينهم ومزارعهم . ولكن المنافقين فى المدينة ـ وعلى رأسهم عبد الله ابن أبى بن سلول رأس النفاق ـ أرسلوا إليهم يحرضونهم على الرفض والمقاومة ، وقالوا لهم : أن اثبتوا وتمنعوا فإنا لن نسلمكم . إن قوتلتم قاتلنا معكم ، وإن أخرجتم خرجنا معكم .

وفى هذا يقول الله تعالى : « ألم تر إلى الذين نافقوا يقولون لإخوانهم الذين كفروا من أهل الكتاب : لئن أخرجتم لنخرجن معكم ولا نطيع فيكم أحدا أبدا ، وإن قوتلتم لننصرنكم والله يشهد إنهم لكاذبون . لئن أخرجوا لايخرجون معهم ، ولئن قوتلوا لاينصرونهم ، ولئن نصروهم ليولن الأدبار ثم لاينصرون . لأنتم أشد رهبة فى صدورهم من الله ، ذلك بأنهم قوم لايفقهون . . . »

فتحصن اليهود فى الحصون ؛ فأمر رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بقطع نخيلهم والتحريق فيها . فنادوه : أن يامحمد قد كنت تنهى عن الفساد وتعيبه على من صنعه . فمابال قطع النخيل وتحريقها ؟ وفى الرد عليهم نزل قوله تعالى : « ماقطعتم من لينة أوتركتموها قائمة على أصولها فبإذن الله وليخزى الفاسقين » . .

ولما بلغ الحصار ستا وعشرين ليلة ، يئس اليهود من صدق وعد المنافقين لهم ، وقذف الله فى قلوبهم الرعب ، فسألوا رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن يجليهم ويكف عن دمائهم ، كما سبق جلاء بنى قينقاع (وقد ذكرنا سببه وظروفه فى تفسير سورة الأحزاب فى الجزء الحادى والعشرين [1]) على أن لهم ماحملت الإبل من أموالهم إلا السلاح . فأجابهم رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فاحتملوا من أموالهم مااستقلت به الإبل . فكان الرجل منهم يهدم بيته عن خشبة بابه فيحمله على ظهر بعيره ؛ أويخربه حتى لايقع فى أيدى المسلمين ؛ وكان المسلمون قد هدموا وخربوا بعض الجدران التى اتخذت حصونا فى أيام الحصار .

وفى هذا يقول الله فى هذه السورة : « هو الذى أخرج الذين كفروا من أهل الكتاب

---

(١) ص ١٠٣ .

من ديارهم لأول الحشر ماظننتم أن يخرجوا وظنوا أنهم مانعتهم حصونهم من الله ، فأتاهم الله من حيث لم يحتسبوا ، وقذف فى قلوبهم الرعب ، يخربون بيوتهم بأيديهم وأيدى المؤمنين ، فاعتبروا ياأولى الأبصار. ولولا أن كتب الله عليهم الجلاء لعذبهم فى الدنيا ولهم فى الآخرة عذاب النار . ذلك بأنهم شاقوا الله ورسوله ومن يشاق الله فإن الله شديد العقاب » ..

وكان منهم من سار إلى خيبر ، ومنهم من سار إلى الشام . وكان من أشرافهم ممن سار إلى خيبر سلام بن أبى الحقيق ، وكنانة ابن الربيع ابن أبى الحقيق ، وحيى ابن أخطب ، ممن ورد ذكرهم بعد ذلك فى تأليب المشركين على المسلمين فى غزوة الأحزاب ووقعة بنى قريظة (فى سورة الأحزاب) وكان لبعضهم كذلك ذكر فى فتح خيبر (فى سورة الفتح) .

وكانت أموال بنى النضير فيئا خالصا لله وللرسول : لم يوجف المسلمون عليه بخيل ولا جمال . فقسمها رسول الله — صلى الله عليه وسلم — على المهاجرين خاصة دون الأنصار عدا رجلين من الأنصار فقيرين هما سهل ابن حنيف ، وأبو دجانة سماك ابن خرشة . وذلك أن المهاجرين لم يكن لهم مال بعد الذى تركوه فى مكة وتجردوا منه كله لعقيدتهم . وكان الأنصار قد أنزلوهم دورهم وشاركوهم مالهم فى أريحية عالية ، وأخوة صادقة ، وإيثار عجيب . فلما واتت هذه الفرصة سارع رسول الله — صلى الله عليه وسلم — لإقامة الأوضاع الطبيعية فى المجتمع الإسلامى ، كى يكون للفقراء مال خاص ، وكى لايكون المال متداولا فى الأغنياء وحدهم . ولم يعط من الأنصار إلا الفقيرين اللذين يستحقان لفقرهما .

وتكلم فى أموال بنى النضير بعض من تكلم — والراجح أنهم من المنافقين — فقال تعالى : « وما أفاء الله على رسوله منهم فما أوجفتم عليه من خيل ولا ركاب ، ولكن الله يسلط رسله على من يشاء والله على كل شىء قدير » ..

وقال رسول الله — صلى الله عليه وسلم — للأنصار : « إن شئتم قسمتم للمهاجرين من أموالكم ودياركم وشاركتموهم فى هذه الغنيمة . وإن شئتم كانت لكم دياركم وأموالكم ، ولم يقسم لكم شىء من الغنيمة » فقالت الأنصار : بل نقسم من أموالنا وديارنا ونؤثرهم بالغنيمة ولانشاركهم فيها .

وفى هذا نزل قوله تعالى : « للفقراء المهاجرين الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم يبتغون فضلا من الله ورضوانا ، وينصرون الله ورسوله ، أولئك هم الصادقون . والذين تبوأوا الدار

والإيمان من قبلهم يحبون من هاجر إليهم ولا يجدون في صدورهم حاجة مما أوتوا ، ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة . ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون » .

* * *

فهذا هو الحادث الذى نزلت فيه هذه السورة ، وتعلقت به نصوصها ، بما فى ذلك خاتمة السورة التى يتوجه فيها الخطاب للذين آمنوا ممن شهدوا هذا الحادث وممن يعرفونه بعد ذلك . على طريقة القرآن فى تربية النفوس بالأحداث وبالتعقيب عليها ، وربطها بالحقائق الكلية الكبيرة . . ثم الإيقاع الأخير فى السورة بذكر صفات الله الذى يدعو الذين آمنوا ويخاطبهم بهذا القرآن . وهى صفات ذات فاعلية وأثر فى هذا الكون ؛ وعلى أساس تصور حقيقتها يقوم الإيمان الواعى المدرك البصير .

وتبدأ السورة وتختتم بتسبيح الله الذى له ما فى السماوات والأرض وهو العزيز الحكيم . فيتناسق البدء والختام ، مع موضوع السورة ، ومع دعوة المؤمنين للتقوى والخشوع والتفكر فى تدبير الله الحكيم .

والآن نسير مع النصوص القرآنية لنرى كيف تصور الأحداث ، وكيف تربى النفوس بهذه الأحداث . .

* * *

« سبح لله ما فى السماوات وما فى الأرض ، وهو العزيز الحكيم » . .

بهذه الحقيقة التى وقعت وكانت فى الوجود . حقيقة تسبيح كل شىء فى السماوات وكل شىء فى الأرض لله ، واتجاهها إليه بالتنزيه والتمجيد . . تفتتح السورة التى تقص قصة إخراج الله للذين كفروا من أهل الكتاب من ديارهم ، وإعطائها للمؤمنين به المسبحين بحمده المجدين لأسمائه الحسنى . . . « وهو العزيز الحكيم » . . القوى القادر على نصر أوليائه وسحق أعدائه . . الحكيم فى تدبيره وتقديره .

* * *

ثم يقص نبأ الحادث الذى نزلت فيه السورة :

« هو الذى أخرج الذين كفروا من أهل الكتاب من ديارهم لأول الحشر . ما ظننتم أن يخرجوا ، وظنوا أنهم مانعتهم حصونهم من الله ؛ فأتاهم الله من حيث لم يحتسبوا ، وقذف فى قلوبهم

الرعب ، يخربون بيوتهم بأيديهم وأيدى المؤمنين ، فاعتبروا يا أولى الأبصار . ولولا أن كتب الله عليهم الجلاء لعذبهم فى الدنيا ، ولهم فى الآخرة عذاب النار . ذلك بأنهم شاقوا الله ورسوله ، ومن يشاق الله فإن الله شديد العقاب » .

ومن هذه الآيات نعلم أن الله هو الذى أخرج الذين كفروا من أهل الكتاب من ديارهم لأول الحشر . والله هو فاعل كل شىء . ولكن صيغة التعبير تقرر هذه الحقيقة فى صورة مباشرة ، توقع فى الحس أن الله تولى هذا الإخراج من غير ستار لقدرته من فعل البشر ! وساق المخرجين للأرض التى منها يحشرون ، فلم تعد لهم عودة إلى الأرض التى أخرجوا منها .

ويؤكد فعل الله المباشر فى إخراجهم وسوقهم بالفقرة التالية فى الآية :

« ماظننتم أن يخرجوا ، وظنوا أنهم مانعتهم حصونهم من الله » . .

فلا أنتم كنتم تتوقعون خروجهم ولا هم كانوا يسلمون فى تصور وقوعه ! فقد كانوا من القوة والمنعة فى حصونهم بحيث لاتتوقعون أنتم أن تخرجوهم منها كما أخرجوا . وبحيث غرتهم هذه المنعة حتى نسوا قوة الله التى لاتردها الحصون !

« فأتاهم الله من حيث لم يحتسبوا . وقذف فى قلوبهم الرعب » .

أتاهم من داخل أنفسهم! لا من داخل حصونهم! أتاهم من قلوبهم فقذف فيها الرعب، ففتحوا حصونهم بأيديهم ! وأراهم أنهم لايملكون ذواتهم ، ولا يحكمون قلوبهم ، ولا يمتنعون على الله بإرادتهم وتصميمهم ! فضلا على أن يمتنعوا عليه ببنيانهم وحصونهم . وقد كانوا يحسبون حساب كل شىء إلا أن يأتيهم الهجوم من داخل كيانهم . فهم لم يحتسبوا هذه الجهة التى أتاهم الله منها . وهكذا حين يشاء الله أمرا . يأتى له من حيث يعلم ومن حيث يقدر ، وهو يعلم كل شىء، وهو على كل شىء قدير . فلا حاجة إذن إلى سبب ولا إلى وسيلة ، مما يعرفه الناس ويقدرونه . فالسبب حاضر دائما والوسيلة مهيأة . والسبب والنتيجة من صنعه ، والوسيلة والغاية من خلقه؛ ولن يمتنع عليه سبب ولا نتيجة ، ولن يعز عليه وسيلة ولا غاية . . . وهو العزيز الحكيم . .

ولقد تحصن الذين كفروا من أهل الكتاب بحصونهم فأتاهم الله من حيث لم يحتسبوا وقذف فى قلوبهم الرعب . ولقد امتنعوا بدورهم وبيوتهم فسلطهم الله على هذه الدور والبيوت يخربونها بأيديهم ، ويمكنون المؤمنين من إخرابها :

« يخربون بيوتهم بأيديهم وأيدى المؤمنين » ..

وبهذا تتم حكاية ماوقع للذين كفروا من أهل الكتاب ، فى تلك الصورة الموحية ، وهذه الحركة المصورة . . والله ـ سبحانه ـ يأتيهم من وراء الحصون فتسقط بفعلهم هم ؛ ثم يزيدون فيخربونها بأيديهم وأيدى المؤمنين .

هنا يجىء أول تعقيب فى ظل هذه الصورة ، وعلى إيقاع هذه الحركة :

« فاعتبروا ياأولى الأبصار » ..

وهو هتاف يجىء فى مكانه وفى أوانه . والقلوب متهيئة للعظة متفتحة للاعتبار .

والآية التالية تقرر أن إرادة الله فى النكاية بهم ماكانت لتعفيهم بأية حالة من نكال يصيبهم فى الدنيا غير ماينتظرهم فى الآخرة :

« ولولا أن كتب الله عليهم الجلاء لعذبهم فى الدنيا ، ولهم فى الآخرة عذاب النار » . .

فهو أمر مقرر أن ينالهم النكال من الله . بهذه الصورة التى وقعت أو بصورة أخرى. ولولا أن اختار الله جلاءهم لعذبهم عذابا آخر . غير عذاب النار الذى ينتظرهم هناك. فقد استحقوا عذاب الله فى صورة من صوره على كل حال !

« ذلك بأنهم شاقوا الله ورسوله . ومن يشاق الله فإن الله شديد العقاب » . .

والمشاقة أن يأخذوا لهم شقا غير شق الله، وجانبا غير جانبه . وقد جعل الله جانبه هو جانب رسوله حين وصف علة استحقاقهم للعذاب فى صدر الآية . فاكتفى فى عجزها بمشاقة الله وحده فهى تشمل مشاقة الرسول وتتضمنها. ثم ليقف المشاقون فى ناحية أمام الله ـ سبحانه ـ وهو موقف فيه تبجح قبيح ، حين يقف المخاليق فى وجه الخالق يشاقونه ! وموقف كذلك رعيب ، وهذه المخاليق الضئيلة الهزيلة تتعرض لغضب الله وعقابه . وهو شديد العقاب .

وهكذا تستقر فى القلوب حقيقة مصائر المشاقين لله فى كل أرض وفى كل وقت . من خلال مصير الذين كفروا من أهل الكتاب ، وما استحقوا به هذا العقاب.

ولايفوتنا أن نلحظ تسمية القرآن ليهود بنى النضير بأنهم « الذين كفروا من أهل الكتاب » وتكرار هذه الصفة فى السورة . فهى حقيقة لأنهم كفروا بدين الله فى صورته العليا التى جاء بها محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ وقد كان اليهود ينتظرونها ويتوقعونها. وذكر هذه الصفة فى الوقت نفسه يحمل بيانا بسبب التنكيل بهم ؛ كما أنه يعبىء شعور المسلمين تجاههم تعبئة روحية تطمئن

لها قلوبهم فيما فعلوا معهم ، وفيما حل بهم من نكال وعذاب على أيديهم . فذكر هـذه الحقيقة هنا مقصود ملحوظ !

* * *

ثم يطمئن المؤمنين على صواب ماأوقعوه بهؤلاء الذين كفروا وشاقوا الله ورسوله من تقطيع نخيلهم وتحريقه ، أوتركه كذلك قائما ، وبيان حكم الله فيه . وقد دخل نفوس بعض المسلمين شيء من هـذا :

« ماقطعتم من لينة أوتركتموها قائمة على أصولها فبإذن الله ، وليخزى الفاسقين » . .

واللينة الجيدة من النخل ، أونوع جيد منه معروف للعرب إذ ذاك . وقد قطع المسلمون بعض نخل اليهود ، وأبقوا بعضه . فتحرجت صدورهم من الفعل ومن الترك . وكانوا منهيين قبل هـذا الحادث وبعده عن مثل هذا الاتجاه فى التخريب والتحريق . فاحتاج هذا الاستثناء إلى بيان خاص ، يطمئن القلوب . فجاءهم هذا البيان يربط الفعل والترك بإذن الله . فهو الذى تولى بيده هذه الوقعة ؛ وأراد فيها ماأراد ، وأنفذ فيها ماقدره، وكان كل ماوقع من هذا بإذنه . أراد به أن يخزى الفاسقين . وقطع النخيل يخزيهم بالحسرة على قطعه ؛ وتركه يخزيهم بالحسرة على فوته . وإرادة الله وراء هذا وذاك على السواء .

بذلك تستقر قلوب المؤمنين المتحرجة ، وتشفى صدورهم مما حاك فيها ، وتطمئن إلى أن الله هو الذى أراد وهو الذى فعل . والله فعال لما يريد . وما كانوا هم إلا أداة لإنفاذ مايريد.

* * *

فأما المقطع الثانى فى السورة فيقرر حكم الفيء الذى أفاءه الله على رسوله فى هذه الوقعةوفيما يماثلها ،ممالم يتكلف فيه المسلمون غزوا ولاقتالا .. أى الوقائع التى تولتها يد الله جهرة ومباشرة وبدون ستار من الخلق كهذه الوقعة :

« وما أفاء الله على رسوله منهم فما أوجفتم عليه من خيل ولا ركاب . ولكن الله يسلط رسله على من يشاء، والله على كل شيء قدير. ما أفاء الله على رسوله من أهل القرى فلله وللرسول ولذى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل . كى لايكون دولة بين الأغنياء منكم . وما آتاكم الرسول فخذوه . وما نهاكم عنه فانتهوا واتقوا الله ، إن الله شديد العقاب . للفقراء المهاجرين الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم ، يبتغون فضلا من الله ورضوانا ، وينصرون

الله ورسوله ، أولئك هم الصادقون . والذين تبوأوا الدار والإيمان من قبلهم يحبون من هاجر إليهم ، ولا يجدون فى صدورهم حاجة مما أوتوا ، ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة . ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون . والذين جاءوا من بعدهم يقولون : ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ، ولا تجعل فى قلوبنا غلا للذين آمنوا . ربنا إنك رؤوف رحيم » . .

وهذه الآيات التى تبين حكم الله فى هذا الفىء وأمثاله ، تحوى فى الوقت ذاته وصفا لأحوال الجماعة المسلمة فى حينها ؛ كما تقرر طبيعة الأمة المسلمة على توالى العصور ، وخصائصها المميزة التى تترابط بها وتتماسك على مدار الزمان ، لاينفصل فيها جيل عن جيل ، ولا قوم عن قوم ، ولا نفس عن نفس ، فى الزمن المتطاول بين أجيالها المتعاقبة فى جميع بقاع الأرض . وهى حقيقة ضخمة كبيرة ينبغى الوقوف أمامها طويلا فى تدبر عميق . .

« وما أفاء الله على رسوله منهم فما أوجفتم عليه من خيل ولا ركاب ، ولكن الله يسلط رسله على من يشاء ، والله على كل شىء قدير » .

والإيجاف : الركض والإسراع . والركاب : الجمال . والآية تذكر المسلمين أن هذا الفىء الذى خلفه وراءهم بنو النضير لم يركضوا هم عليه خيلا ، ولم يسرعوا إليه ركبا، فحكمه ليس حكم الغنيمة التى أعطاهم الله أربعة أخماسها ، واستبقى خمسها فقط لله والرسول ولذى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل ، كما حكم الله فى غنائم بدر الكبرى . إنما حكم هذا الفىء أنه كله لله والرسول ولذى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل . والرسول — صلى الله عليه وسلم — هو الذى يتصرف فيه كله فى هذه الوجوه . وذو القربى المذكورون فى الآيتين هم قرابة رسول الله — صلى الله عليه وسلم — أن كانت الصدقات لاتحل لهم ، فليس لهم فى الزكاة نصيب ، وأن كان النبى لايورث فليس لذوى قرابته من ماله شىء . وفيهم الفقراء (١) الذين لا مورد لهم . فجعل لهم من خمس الغنائم نصيبا ، كما جعل لهم من هذا الفىء وأمثاله نصيبا . فأما بقية الطوائف والمصارف فأمرها معروف . والرسول — صلى الله عليه وسلم — هو المتصرف فيها .

(١) هناك خلاف فقهى . هل الفقراء من قرابة الرسول — صلى الله عليه وسلم — هم المستحقون أم جميعهم والراجح جميعهم .

هذا هو حكم الفيء تبينه الآيات . ولكنها لاتقتصر على الحكم وعلته القريبة. إنما تفتح القلوب على حقيقة أخرى كبيرة : « ولكن الله يسلط رسله على من يشاء » . . فهو قدر الله . وهم طرف من هذا القدر يسلطه على من يشاء . « والله على كل شيء قدير » . .

بهذا يتصل شأن الرسل بقدر الله المباشر؛ويتحدد مكانهم في دولاب القدر الدوار . ويتبين أنهم ــ ولوأنهم بشر ــ متصلون بإرادة الله ومشيئته اتصالا خاصا ،يجعل لهم دورا معينا في تحقيق قدر الله في الأرض ، بإذن الله وتقديره. فما يتحركون بهواهم، ومايأخذون أويدعون لحسابهم . ومايغزون أويقعدون ، ومايخاصمون أويصالحون ، إلالتحقيق جانب من قدر الله في الأرض منوط بهم وبتصرفاتهم وتحركاتهم في هذه الأرض . والله هو الفاعل من وراء ذلك كله . .وهو على كل شيء قدير . .

« وما أفاء الله على رسوله من أهل القرى فلله وللرسول ولذى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل . . كى لايكون دولة بين الأغنياء منكم . وما آتاكم الرسول فخذوه . ومانهاكم عنه فانتهوا . واتقوا الله إن الله شديد العقاب » . .

وتبين هذه الآية الحكم الذى أسلفنا تفصيلا . ثم تعلل هذه القسمة فتضع قاعدة كبرى من قواعد التنظيم الاقتصادى والاجتماعى في المجتمع الإسلامى : « كى لايكون دولة بين الأغنياء منكم » . . كما تضع قاعدة كبرى في التشريع الدستورى للمجتمع الإسلامى : « وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا » . . ولو أن هاتين القاعدتين جاءتا بمناسبة هذا الفيء وتوزيعه ، إلا أنهما تتجاوزان هذا الحادث الواقع إلى آماد كثيرة في أسس النظام الاجتماعى الإسلامى .

والقاعدة الأولى ، قاعدة التنظيم، الاقتصادى تمثل جانبا كبيرا من أسس النظرية الاقتصادية في الإسلام . فالملكية الفردية معترف بها في هذه النظرية . ولكنها محددة بهذه القاعدة. قاعدة ألايكون المال دولة بين الأغنياء ، ممنوعا من التداول بين الفقراء . فكل وضع ينتهى إلى أن يكون المال دولة بين الأغنياء وحدهم هو وضع يخالف النظرية الاقتصادية الإسلامية كما يخالف هدفا من أهداف التنظيم الاجتماعى كله . وجميع الارتباطات والمعاملات في المجتمع الإسلامى يجب أن تنظم بحيث لاتخلق مثل هذا الوضع أو تبقى عليه إن وجد .

ولقد أقام الإسلام بالفعل نظامه على أساس هذه القاعدة . ففرض الزكاة . وجعل حصيلتها

فى العام اثنين ونصفا فى المئة من أصل رؤوس الأموال النقدية ، وعشرة أوخمسة فى المئة من جميع الحاصلات . وما يعادل ذلك فى الأنعام . وجعل الحصيلة فى الركاز وهو كنوز الأرض مثلها فى المال النقدى . وهى نسب كبيرة . ثم جعل أربعة أخماس الغنيمة للمجاهدين فقراء وأغنياء بينما جعل الفىء كله للفقراء . وجعل نظامه المختار فى إيجار الأرض هو المزارعة [1] — أى المشاركة فى المحصول الناتج بين صاحب الأرض وزارعها . وجعل للإمام الحق فى أن يأخذ فضول أموال الأغنياء فيردها على الفقراء . وأن يوظف فى أموال الأغنياء عند خلو بيت المال . وحرم الاحتكار . وحظر الربا . وهما الوسيلتان الرئيسيتان لجعل المال دولة بين الأغنياء .

وعلى الجملة أقام نظامه الاقتصادى كله بحيث يحقق تلك القاعدة الكبرى التى تعد قيدا أصيلا على حق الملكية الفردية بجانب القيود الأخرى [2] .

ومن ثم فالنظام الإسلامى نظام يبيح الملكية الفردية ، ولكنه ليس هو النظام الرأسمالى ، كما أن النظام الرأسمالى ليس منقولا عنه ، فما يقوم النظام الرأسمالى إطلاقا بدون ربا وبدون احتكار ، إنما هو نظام خاص من لدن حكيم خبير . نشأ وحده . وسار وحده ، وبقى حتى اليوم وحده . نظاما فريدا متوازن الجوانب ، متعادل الحقوق والواجبات . متناسقا تناسق الكون كله . مذ كان صدوره عن خالق الكون . والكون متناسق موزون !

فأما القاعدة الثانية — قاعدة تلقى الشريعة من مصدر واحد : « وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا » . . فهى كذلك تمثل النظرية الدستورية الإسلامية . فسلطان القانون فى الإسلام مستمد من أن هذا التشريع جاء به الرسول — صلى الله عليه وسلم — قرآنا أو سنة . . والأمة كلها والإمام معها لا تملك أن تخالف عما جاء به الرسول . فإذا شرعت ما يخالفه لم يكن لتشريعها هذا سلطان ، لأنه فقد السند الأول الذى يستمد منه السلطان . . وهذه النظرية تخالف جميع النظريات البشرية الوضعية ، بما فيها تلك التى تجعل الأمة مصدر السلطات ، بمعنى أن للأمة أن تشرع لنفسها ما تشاء ، وكل ما تشرعه فهو ذو سلطان . فمصدر السلطات فى الإسلام هو شرع الله الذى جاء به الرسول — صلى الله عليه وسلم — والأمة تقوم على هذه الشريعة وتحرسها وتنفذها — والإمام نائب عن الأمة فى هذا — وفى هذا تنحصر حقوق الأمة . فليس لها أن تخالف عما آتاها الرسول فى أى تشريع .

(١) يوجد خلاف فقهى ولكن الراجح الظاهر هو الذى أثبتناه .
(٢) يراجع فصل سياسة المال فى كتاب : العدالة الاجتماعية فى الإسلام .

فأما حين لاتوجد نصوص فيما جاء به الرســول بخصوص أمر يعرض للأمة فسبيلها أن تشرع له بما لا يخالف أصلا من أصول ماجاءبه الرسول . وهذا لاينقض تلك النظرية ، إنما هو فرع عنها. فالمرجع في أي تشريع هو أن يتبع ماجاء به الرسول إن كان هناك نص . وألا يخالف أصلا من أصوله فيما لانص فيه . وتنحصر سلطة الأمة ـ والإمام النائب عنها ـ فى هذه الحدود . وهو نظام فريد لايماثله نظام آخر مما عرفته البشرية من نظم وضعية . وهو نظام يربط التشريع للناس بناموس الـكون كله . وينسق بين ناموس الـكون الذى وضعه الله له والقانون الذى يحـكم البشر وهو من الله . كى لايصطدم قانون البشر بناموس الـكون ، فيشقى الإنسان أو يتحطم أو تذهب جهوده أدراج الرياح !

وتربط الآية هاتين القاعدتين فى قلوب المؤمنين بمصدرها الأول . . وهو الله . . فتدعوهم إلى التقوى وتخوفهم عقاب الله : « واتقــوا الله إن الله شديد العقاب » . . وهذا هو الضمان الأكبر الذى لا احتيال عليه ، ولا هروب منه . فقد علم المؤمنون أن الله مطلع على السرائر ، خبير بالأعمال ، وإليــه المرجع والمآب . وعلموا أنه شديد العقاب . وعلموا أنهــم مكلفون ألا يـكون المال دولة بينهم ، وأن يأخذوا ما آتاهم الرســول عن رضى وطاعة ، وأن ينتهوا عما نهاهم عنه فى غير ترخص ولا تساهل وأمامهم يوم عصيب . . .

ولقد كان توزيع ذلك الفيء ـ فيء بنى النضير ـ على المهاجرين وحدهم عدا رجلين من الأنصار إجراء خاصا بهذا الفيء ، تحقيقا لقاعدة : « كى لا يكون دولة بين الأغنياء منكم » . . فأما الحـكم العام ، فهو أن يكون للفقراء عامة . من المهاجرين ومن الأنصار وممن يأتى بعدهم من الأجيال . وهذا ما تضمنته الآيات التالية فى السياق .

ولـكن القرآن لايذكر الأحكام جافة مجردة ، إنما يوردها فى جو حىّ يتجاوب فيه الأحياء. ومن ثم أحاط كل طائفــة من هذه الطوائف الثلاث بصفاتها الواقعية الحية التى تصور طبيعتها وحقيقتها ؛ وتقرر الحـكم حيا يتعامل مع هؤلاء الأحياء :

« للفقراء المهاجرين الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم يبتغون فضلا من الله ورضوانا ، وينصرون الله ورسوله ، أولئك هم الصادقون » . .

وهى صورة صادقة تبرز فيها أهم الملامح المميزة للمهاجرين . . أخرجــوا إخراجا من ديارهم وأموالهم . أكرههم على الخروج الأذى والاضطهاد والتنـكر من قرابتهم وعشيرتهم فى

مـكة . لاالذنب إلا أن يقولوا ربنا الله . . . وقد خرجوا تاركين ديارهم وأموالهم « يبتغون فضلا من الله ورضوانا » اعتمادهم على الله فى فضله ورضوانه . لاملجأ لهم سواه ، ولا جناب لهم إلا حماه . . وهم مع أنهم مطاردون قليلون « ينصرون الله ورسوله » . . بقلوبهم وسيوفهم فى أحرج الساعات وأضيق الأوقات . « أولئك هم الصادقون » . . الذين قالوا كلمة الإيمان بألسنتهم ، وصدقوها بعملهم . وكانوا صادقين مع الله فى أنهم اختاروه . وصادقين مع رسوله فى أنهم اتبعوه . وصادقين مع الحق فى أنهم كانوا صورة منه تدب على الأرض ويراها الناس !

« والذين تبوأوا الدار والإيمـان من قبلهم ، يحبون من هاجر إليهم ، ولا يجـدون فى صدورهم حاجة مما أوتوا ، ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهـم خصاصة . ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون » . .

وهذه كذلك صورة وضيئة صادقة تبرز أهم الملامح المميزة للأنصار . هذه المجموعة التى تفردت بصفات ، وبلغت إلى آفاق ، لولا أنها وقعت بالفعل ، لحسبها الناس أحلاما طائرة ورؤى مجنحة ومثلا عليا قد صاغها خيال محلق . .

« والذين تبوأوا الدار والإيمان من قبلهم » . . أى دار الهجرة . يثرب مدينة الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ وقد تبوأها الأنصار قبل المهاجرين . كما تبوأوا فيها الإيمان . وكأنه منزل لهم ودار . وهو تعبير ذو ظلال . وهو أقرب مايصور موقف الأنصار من الإيمان . لقد كان دارهم ونزلهم ووطنهم الذى تعيش فيه قلوبهم ، وتسكن إليه أرواحهم ، ويثوبون إليه ويطمئنون له ، كما يثوب المرء ويطمئن إلى الدار .

« يحبون من هاجر إليهم ولايجدون فى صدورهم حاجة مما أوتوا » . . ولم يعرف تاريخ البشرية كله حادثا جماعيا كحادث استقبال الأنصار للمهاجرين . بهذا الحب الـكريم . وبهذا البذل السخى . وبهذه المشاركة الرضية . وبهذا التسابق إلى الإيواء واحتمال الأعباء . حتى ليروى أنه لم ينزل مهاجر فى دار أنصارى إلا بقرعة . لأن عدد الراغبين فى الإيواء المتزاحمين عليه أكثر من عدد المهاجرين ! « ولايجدون فى صدورهم حاجة مما أوتوا » . . مما يناله المهاجرون من مقام مفضل فى بعض المواضع ، ومن مال يختصون به كهذا الفىء . فلايجدون فى أنفسهم شيئا من هذا . ولا يقول : حسدا ولاضيقا . إنما يقول : « شيئا » . مما يلقى ظلال النظافة الـكاملة لصدورهم والبراءة المطلقة لقلوبهم ، فلاتجد شيئا أصلا .

« ويؤثرون على أنفسهم ولوكان بهم خصاصة » .. والإيثار على النفس مع الحاجة قمة عليا . وقد بلغ إليها الأنصار بما لم تشهد البشرية له نظيرا . وكانوا كذلك فى كل مرة وفى كل حالة بصورة خارقة لمألوف البشر قديما وحديثا .

« ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون ».. فهذا الشح. شح النفس . هو المعوق عن كل خير . لأن الخير بذل فى صورة من الصور . بذل فى المال . وبذل فى العاطفة . وبذل فى الجهد . وبذل فى الحياة عند الاقتضاء . وما يمكن أن يصنع الخير شحيح يهم دائما أن يأخذ ولا يهم مرة أن يعطى . ومن يوق شح نفسه، فقد وقى هذا المعوّق عن الخير ، فانطلق إليه معطيا باذلا كريما . وهذا هو الفلاح فى حقيقة معناه .

« والذين جاءوا من بعدهم ، يقولون : ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ، ولا تجعل فى قلوبنا غلا للذين آمنوا . ربنا إنك رؤوف رحيم » ..

وهذه الصورة الثالثة النظيفة الرضية الواعية . وهى تبرز أهم ملامح التابعين . كما تبرز أخص خصائص الأمة المسلمة على الإطلاق فى جميع الأوطان والأزمان .

هؤلاء الذين يجيئون بعد المهاجرين والأنصار ــ ولم يكونوا قد جاءوا بعد عند نزول الآية فى المدينة ، إنما كانوا قد جاءوا فى علم الله وفى الحقيقة القائمة فى هذا العلم المطلق من حدود الزمان والمكان ــ سمة نفوسهم أنها تتوجه إلى ربها فى طلب المغفرة ، لا لذاتها ولكن كذلك لسلفها الذين سبقوا بالإيمان ؛ وفى طلب براءة القلب من الغل للذين آمنوا على وجه الإطلاق ، ممن يربطهم معهم رباط الإيمان . مع الشعور برأفة الله ، ورحمته ، ودعائه بهذه الرحمة ، وتلك الرأفة : « ربنا إنك رؤوف رحيم » ..

وتتجلى من وراء تلك النصوص طبيعة هذه الأمة المسلمة وصورتها الوضيئة فى هذا الوجود. تتجلى الآصرة القوية الوثيقة التى تربط أول هذه الأمة بآخرها ، وآخرها بأولها ، فى تضامن وتكافل وتواد وتعاطف . وشعور بوشيجة القربى العميقة التى تتخطى الزمان والمكان والجنس والنسب ؛ وتتفرد وحدها فى القلوب ، تحرك المشاعر خلال القرون الطويلة ، فيذكر المؤمن أخاه المؤمن بعد القرون المتطاولة، كما يذكر أخاه الحى ، أو أشد ، فى إعزاز وكرامة وحب . ويحسب السلف حساب الخلف . ويمضى الخلف على آثار السلف .. صفا واحداً وكتيبة واحدة على مدار الزمان واختلاف الأوطان ، تحت راية الله تغذ السير صعدا إلى الأفق الكريم ، متطلعة إلى ربها الواحد الرؤوف الرحيم .

إنها صورة باهرة، تمثل حقيقة قائمة ؛ كما تمثل أرفع وأكرم مثال للبشرية يتصوره قلب كريم.
صورة تبدو كرامتها ووضاءتها على أتمها حين تقرن مثلا إلى صورة الحقد الذميم والهدم اللئيم التي تمثلها وتبشر بها الشيوعية فى إنجيل كارل ماركس . صورة الحقد الذى ينغل فى الصدور، وينخر فى الضمير ، على الطبقات ، وعلى أجيال البشرية السابقة، وعلى أممها الحاضرة التى لاتعتنق الحقد الطبقى الذميم . وعلى الإيمان والمؤمنين من كل أمة وكل دين !

صورتان لاالتقاء بينهما فى لمحة ولاسمة،ولالمسة ولاظل .صورة ترفع البشرية إلى أعلامراقيها؛ وصورة تهبط بها إلى أدنى دركاتها . صورة تمثل الأجيال من وراء الزمان والمكان والجنس والوطن والعشيرة والنسب متضامنة مترابطة متكافلة متوادة متعارفة صاعدة فى طريقها إلى الله ، بريئة الصدور من الغل ، طاهرة القلوب من الحقد ، وصورة تمثل البشرية أعداء متناحرين يلقى بعضهم بعضا بالحقد والدخل والدغل والغش والخداع والالتواء . حتى وهم فى المعبد يقيمون الصلاة . فالصلاة ليست سوى أحبولة ، والدين كله ليس إلا فخا ينصبه رأس المال للكادحين !

« ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ، ولا تجعل فى قلوبنا غلا للذين آمنوا . ربنا إنك رؤوف رحيم » . .

هذه هى قافلة الإيمان . وهذا هو دعاء الإيمان . وإنها لقافلة كريمة . وإنه لدعاء كريم .

***

وحين ينتهى السياق من رسم هذه الصورة الوضيئة ، ورفعها على الأفق فى إطار النور . يعود إلى الحادث الذى نزلت فيه السورة ، ليرسم صورة لفريق آخر ممن اشتركوا فيها . فريق المنافقين :

« ألم تر إلى الذين نافقوا يقولون لإخوانهم الذين كفروا من أهل الكتاب : لئن أخرجتم لنخرجن معكم ، ولا نطيع فيكم أحدا أبدا ، وإن قوتلتم لننصرنكم ، والله يشهد إنهم لكاذبون . لئن أخرجوا لا يخرجون معهم ، ولئن قوتلوا لاينصرونهم ، ولئن نصروهم ليولن الأدبار ، ثم لاينصرون .لأنتم أشد رهبة فى صدورهم من الله ،ذلك بأنهم قوم لا يفقهون. لايقاتلونكم جميعا إلا فى قرى محصنة أومن وراء جدر، بأسهم بينهم شديد ،تحسبهم جميعا وقلوبهم شتى، ذلك بأنهم قوم لايعقلون . كمثل الذين من قبلهم قريبا ذاقوا وبال أمرهم ، ولهم عذاب أليم . كمثل الشيطان إذ قال للإنسان : اكفر . فلما كفر قال : إنى برىء منك ، إنى أخاف الله رب العالمين . فكان عاقبتهما أنهما فى النار خالدين فيها ، وذلك جزاء الظالمين » . .

وهى حكاية لما قاله المنافقون ليهود بنى النضير ، ثم لم يفوا به ، وخذلوهم فيه ، حتى أتاهم الله من حيث لم يحتسبوا وقذف فى قلوبهم الرعب . ولكن فى كل جملة قرآنية لفتة تقرر حقيقة، وتمس قلبا ، وتبعث انفعالا ، وتقرر مقوما من مقومات التربية والمعرفة والإيمان العميق .

وأول لفتةهى تقرير القرابة بين المنافقين والذين كفروا من أهل الكتاب : « ألم تر إلى الذين نافقوا يقولون لإخوانهم الذين كفروا من أهل الكتاب» . فأهل الكتاب هؤلاء كفروا. والمنافقون إخوانهم ولو أنهم يلبسون رداء الإسلام !

ثم هذا التوكيد الشديد فى وعد المنافقين لإخوانهم: « لئن أخرجتم لنخرجن معكم ولا نطيع فيكم أحدا أبدا ، وإن قوتلتم لننصرنكم » ..

والله الخبير بحقيقتهم يقرر غير مايقررون ، ويؤكد غير مايؤكدون : « والله يشهد إنهم لكاذبون . لئن أخرجوا لايخرجون معهم ، ولئن قوتلوا لاينصرونهم ، ولئن نصروهم ليولن الأدبار . ثم لاينصرون » ..

وكان ماشهد به الله . وكذب ماأعلنوه لإخوانهم وقرروه !

ثم يقرر حقيقة قائمة فى نفوس المنافقين وإخوانهم الذين كفروا من أهل الكتاب : « لأنتم أشد رهبة فى صدورهم من الله . ذلك بأنهم قوم لايفقهون » ..

فهم يرهبون المؤمنين أشد مما يرهبون الله . ولو خافوا الله ماخافوا أحدا من عباده . فإنما هو خوف واحد ورهبة واحدة . ولايجتمع فى قلب خوف من الله وخوف من شىء سواه . فالعزة لله جميعا ، وكل قوى الكون خاضعة لأمره ، «ومامن دابة إلا هو آخذ بناصيتها» فمم يخاف إذن ذلك الذى يخاف الله؟ ولكن الذين لايفقهون هذه الحقيقة يخافون عباد الله أشد مما يخافون الله .. « ذلك بأنهم قوم لايفقهون » ..

وهكذا يكشف عن حقيقة القوم الواقعة . ويقرر فى الوقت ذاته تلك الحقيقة المجردة . ويمضى يقرر حالة قائمة فى نفوس المنافقين والذين كفروا من أهل الكتاب ، تنشأ من حقيقتهم السابقة، ورهبتهم للمؤمنين أشد من رهبتهم لله .

« لايقاتلونكم جميعا إلا فى قرى محصنة أومن وراء جدر . بأسهم بينهم شديد . تحسبهم جميعا وقلوبهم شتى . ذلك بأنهم قوم لايعقلون » ..

ومازال الأيام تتكشف حقيقة الإعجاز فى « تشخيص » حالة المنافقين وأهل الكتاب حينما

التقى المؤمنون بهم فى أى زمان وفى أى مكان . بشكل واضح للعيان . ولقد شهدت الاشتباكات الأخيرة فى الأرض المقدسة بين المؤمنين الفدائيين وبين اليهود مصداق هذا الخبر بصورة عجيبة. فما كانوا يقاتلونهم إلا فى المستعمرات المحصنة فى أرض فلسطين . فإذا انكشفوا لحظة واحدة ولوا الأدبار كالجرذان . حتى لكأن هذه الآية نزلت فيهم ابتداء . وسبحان العليم الخبير !

وتبقى الملامح النفسية الأخرى « بأسهم بينهم شديد » .. « تحسبهم جميعا وقلوبهم شتى » على خلاف المؤمنين الذين تتضامن أجيالهم ، وتجمعهم آصرة الإيمان من وراء فواصل الزمان والمكان ، والجنس والوطن والعشيرة . . « ذلك بأنهم قوم لا يعقلون » . .

والظاهر قد تخدع فنرى تضامن الذين كفروا من أهل الكتاب فيما بينهم ، ونرى عصبيتهم بعضهم لبعض، كما نرى تجمع المنافقين أحيانا فى معسكر واحد . ولكن الخبر الصادق من السماء يأتينا بأنهم ليسوا كذلك فى حقيقتهم ؛ إنما هو مظهر خارجى خادع . وبين الحين والحين ينكشف هذا الستار الخداع . فيبدو من ورائه صدق الخبر فى دنيا الواقع المنظور ، وينكشف الحال عن نزاع فى داخل المعسكر الواحد ، قائم على اختلاف المصالح ، وتفرق الأهواء ، وتصادم الاتجاهات . وما صدق المؤمنون مرة ، وتجمعت قلوبهم على الله حقا إلا وانكشف المعسكر الآخر أمامهم عن هذه الاختلافات وهذا التضارب وهذا الرياء الذى لا يمثل حقيقة الحال . وما صبر المؤمنون وثبتوا إلا وشهدوا مظهر التماسك بين أهل الباطل يتفسخ وينهار ، وينكشف عن الخلاف الحاد والشقاق والكيد والدس فى القلوب الشتيتة المتفرقة !

إنما ينال المنافقون والذين كفروا من أهل الكتاب . . من المسلمين . . عندما تتفرق قلوب المسلمين ، فلا يعودون يمثلون حقيقة المؤمنين التى عرضتها الآية فى المقطع السابق فى هذه السورة . فأما فى غير هذه الحالة فالمنافقون أضعف وأعجز ، وهم والذين كفروا من أهل الكتاب متفرقو الأهواء والمصالح والقلوب « بأسهم بينهم شديد » .. « تحسبهم جميعا وقلوبهم شتى » . .

والقرآن يقر هذه الحقيقة فى قلوب المؤمنين ، ليهون فيها من شأن أعدائهم ؛ ويرفع منها هيبة هؤلاء الأعداء ورهبتهم . فهو إيحاء قائم على حقيقة ؛ وتعبئة روحية ترتكن إلى حق ثابت . ومتى أخذ المسلمون قرآنهم مأخذ الجد هان عليهم أمر عدوهم وعدو الله ، وتجمعت قلوبهم فى الصف الواحد ، فلم تقف لهم قوة فى الحياة .

والمؤمنون بالله ينبغى لهم أن يدركوا حقيقة حالهم وحال أعدائهم . فهذا نصف المعركة . والقرآن يطلعهم على هذه الحقيقة فى سياق وصفه لحادث وقع ، وفى سياق التعقيب عليه ، وشرح ماوراءه من حقائق ودلائل ، شرحا يفيد منه الذين شهدوا ذلك الحادث بعينه ، ويتدبره كل من جاء بعدهم ، وأراد أن يعرف الحقيقة من العالم بالحقيقة !

ولم يكن حادث بنى النضير هو الأول من نوعه ، فقد سبقه حادث بنى قينقاع الذى تشير إليه الآية بعد ذلك غالبا :

« كمثل الذين من قبلهم قريبا ذاقوا وبال أمرهم ولهم عذاب أليم » . .

ووقعة بنى قينقاع كانت بعد غزوة بدر وقبل غزوة أحد . وكان بينهم وبين رسول الله — صلى الله عليه وسلم — عهد . فلما انتصر المسلمون على المشركين فى بدر كره اليهود ذلك ، وحقدوا على المسلمين أن ينالوا هذا الانتصار العظيم ، وخافوا أن يؤثر هذا على موقفهم فى المدينة فيضعف من مركزهم بقدر مايقوى من مركز المسلمين . وبلغ رسول الله — صلى الله عليه وسلم — مايتهامسون به وما يفكرون فيه من الشر ، فذكرهم العهد وحذرهم مغبة هذا الاتجاه . فردوا ردا غليظا مغيظا فيه تهديد . قالوا : يامحمد . إنك لترى أنا قومُك ! لايغرنك أنك لقيت قوما لاعلم لهم بالحرب فأصبت منهم فرصة . إنا والله لئن حاربناك لتعلمن أنا نحن الناس !

ثم أخذوا يتحرشون بالمسلمين؛ وذكرت الروايات من هذا أن امرأة من العرب قدمت ببضاعة لها فباعتها بسوق بنى قينقاع، وجلست إلى صائغ بها، فجعلوا يريدونها على كشف وجهها ، فأبت، فعمد الصائغ إلى طرف ثوبها فعقده إلى ظهرها ، فلما قامت انكشفت سوأتها ، فضحكوا بها ، فصاحت . فوثب رجل من المسلمين على الصائغ فقتله . وشدت يهود على المسلم فقتلوه فاستصرخ أهل المسلم المسلمين . فغضب المسلمون ، فوقع الشر بينهم وبين بنى قينقاع .

وحاصرهم رسول الله — صلى الله عليه وسلم — حتى نزلوا على حكمه . فقام رأس المنافقين عبد الله ابن أبى ابن سلول يجادل رسول الله عنهم ، باسم ماكان بينهم وبين الخزرج من عهد ولكن الحقيقة كانت هى هذه الصلة بين المنافقين وإخوانهم الذين كفروا من أهل الكتاب ! فرضى رسول الله — صلى الله عليه وسلم — فى النهاية أن يجلوا عن المدينة ، وأن يأخذوا معهم أموالهم ومتاعهم — إلا السلاح — ورحلوا إلى الشام .

فهذه هى الواقعة التى يشير إليها القرآن ويقيس عليها حال بنى النضير وحقيقتهم . . وحال المنافقين مع هؤلاء وهؤلاء !

ويضرب للمنافقين الذين أغروا إخوانهم الذين كفروا من أهل الكتاب بالمقاومة ،فانتهوا بهم إلى تلك النهاية البائسة . يضرب لهم مثلا بحال دائمة . حال الشيطان مع الإنسان ، الذى يستجيب لإغرائه فينتهى وإياه إلى شر مصير :

« كمثل الشيطان إذ قال للإنسان : اكفر . فلما كفر قال : إنى برىء منك إنى أخاف الله رب العالمين . فكان عاقبتهما أنهما فى النار خالدين فيها ، وذلك جزاء الظالمين » . .

وصورة الشيطان هنا ودوره مع من يستجيب له من بنى الإنسان ، تتفقان مع طبيعته ومهمته . فأعجب العجب أن يستمع إليه الإنسان . وحاله هو هذا الحال !

وهى حقيقة دائمة ينتقل السياق القرآنى إليها من تلك الواقعة العارضة . فيربط بين الحادث المفرد والحقيقة الكلية ، فى مجال حى من الواقع ؛ ولا ينعزل بالحقائق المجردة فى الذهن . فالحقائق المجردة الباردة لا تؤثر فى المشاعر ، ولا تستجيش القلوب للاستجابة . وهذا فرق ما بين منهج القرآن فى خطاب القلوب ، ومنهج الفلاسفة والدارسين والباحثين !

وبهذا المثل الموحى تنتهى قصة بنى النضير . وقد ضمت فى ثناياها وفى أعقابها هذا الحشد من الصور والحقائق والتوجيهات . واتصلت أحداثها المحلية الواقعة بالحقائق الكبرى المجردة الدائمة . وكانت رحلة فى عالم الواقع وفى عالم الضمير ، تمتد إلى أبعد من حدود الحادث ذاته . وتفترق روايتها فى كتاب الله عن روايتها فى كتب البشر بمقدار ما بين صنع الله وصنع البشر من فوارق لا تقاس !!

* * *

وعند هذا الحد من رواية الحادث والتعقيب عليه وربطه بالحقائق البعيدة المدى يتجه الخطاب فى السورة إلى المؤمنين ، يهتف بهم باسم الإيمان ، ويناديهم بالصفة التى تربطهم بصاحب الخطاب ، وتيسر عليهم الاستجابة لتوجيهه وتكليفه . يتجه إليهم ليدعوهم إلى التقوى . والنظر فيما أعدوه للآخرة ، واليقظة الدائمة ، والحذر من نسيان الله كالذين نسوه من قبل ، ممن رأوا مصير فريق منهم ، وممن كتب عليهم أنهم من أصحاب النار :

« يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله ، ولتنظر نفس ما قدمت لغد ، واتقوا الله إن الله خبير بما تعملون . ولا تكونوا كالذين نسوا الله فأنساهم أنفسهم ، أولئك هم الفاسقون . لا يستوى أصحاب النار وأصحاب الجنة . أصحاب الجنة هم الفائزون » . .

والتقوى حالة فى القلب يشير إليها اللفظ بظلاله ، ولكن العبارة لاتبلغ تصوير حقيقتها. حالة تجعل القلب يقظا حساسا شاعرا بالله فى كل حالة . خائفا متحرجا مستحييا أن يطلع عليه الله فى حالة يكرهها . وعين الله على كل قلب فى كل لحظة . فمتى يأمن أن لايراه ؟!

« ولتنظر نفس ماقدمت لغد » ..

وهو تعبير كذلك ذو ظلال وإيحاءات أوسع من ألفاظه .. ومجرد خطوره على القلب يفتح أمامه صفحة أعماله بل صفحة حياته ، ويمد بصره فى سطورها كلها يتأملها وينظر رصيد حسابه بمفرداته وتفصيلاته . لينظر ماذا قدم لغده فى هذه الصفحة .. وهذا التأمل كفيل بأن يوقظه إلى مواضع ضعف ومواضع نقص ومواضع تقصير ، مهما يكن قد أسلف من خير وبذل من جهد . فكيف إذا كان رصيده من الخير قليلا ، ونصيبه من البر ضئيلا ؟ إنها لمسة لاينام بعدها القلب أبدا ، ولايكف عن النظر والتقليب !

ولا تنتهى الآية التى تثير كل هذه المشاعر حتى تلح على القلوب المؤمنة بمزيد من الإيقاع :

« واتقوا الله إن الله خبير بما تعملون » ..

فتزيد هذه القلوب حساسية ورهبة واستحياء .. والله خبير بما يعملون ..

وبمناسبة ماتدعوهم إليه هذه الآية من يقظة وتذكر يحذرهم فى الآية التالية من أن يكونوا « كالذين نسوا الله فأنساهم أنفسهم » .. وهى حالة عجيبة . ولكنها حقيقة .. فالذى ينسى الله يهيم فى هذه الحياة بلا رابطة تشده إلى أفق أعلى ، وبلا هدف لهذه الحياة يرفعه عن السائمة التى ترعى . وفى هذا نسيان لإنسانيته . وهذه الحقيقة تضاف إليها أو تنشأ عنها حقيقة أخرى ، وهى نسيان هذا المخلوق لنفسه فلا يدخر لها زادا للحياة الطويلة الباقية ، ولا ينظر فيما قدم لها فى الغداة من رصيد .

« أولئك هم الفاسقون » .. المنحرفون الخارجون .

وفى الآية التالية يقرر أن هؤلاء هم أصحاب النار ، ويشير للمؤمنين ليسلكوا طريقا غير طريقهم وهم أصحاب الجنة . وطريق أصحاب الجنة غير طريق أصحاب النار :

« لايستوى أصحاب النار وأصحاب الجنة . أصحاب الجنة هم الفائزون » ..

لا يستويان طبيعة وحالا ، ولا طريقا ولاسلوكا ، ولا وجهة ولا مصيرا . فهما على مفرق طريقين لا يلتقيان أبدا فى طريق . ولا يلتقيان أبدا فى سمة . ولا يلتقيان أبدا فى خطة . ولا يلتقيان أبدا فى سياسة . ولا يلتقيان أبدا فى صف واحد فى دنيا ولا آخرة ..

« أصحاب الجنة هم الفائزون » . . يثبت مصيرهم ويدع مصير أصحاب النار مسكوتا عنه . معروفا . وكأنه ضائع لايعنى به التعبير !

* * *

ثم يجىء الإيقاع الذى يتخلل القلب ويهزه ؛ وهو يعرض أثر القرآن فى الصخر الجامد لو تنزل عليه : « لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعا متصدعا من خشية الله . وتلك الأمثال نضربها للناس لعلهم يتفكرون » .

وهى صورة تمثل حقيقة . فإن لهذا القرآن لثقلا وسلطانا وأثرا مزلزلا لايثبت له شىء يتلقاه بحقيقته . ولقد وجد عمر ابن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ ماوجد ، عند ماسمع قارئا يقرأ: « والطور، وكتاب مسطور ، فى رق منشور ، والبيت المعمور ، والسقف المرفوع ، والبحر المسجور ، إن عذاب ربك لواقع ماله من دافع . . . » فارتكن إلى الجدار . ثم عاد إلى بيته يعوده الناس شهرا مما ألم به !

واللحظات التى يكون فيها الكيان الإنسانى متفتحا لتلقى شىء من حقيقة القرآن يهتز فيها اهتزازا ويرتجف ارتجافا . ويقع فيه من التغيرات والتحولات مايمثله فى عالم المادة فعل المغنطيس والكهرباء بالأجسام . أو أشد .

والله خالق الجبال ومنزل القرآن يقول : « لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعا متصدعا من خشية الله » . . والذين أحسوا شيئا من مس القرآن فى كيانهم يتذوقون هذه الحقيقة تذوقا لايعبر عنه إلا هذا النص القرآنى المشع الموحى .

« وتلك الأمثال نضربها للناس لعلهم يتفكرون » . .

وهى خليقة بأن توقظ القلوب للتأمل والتفكير . .

* * *

وأخيرا تجىء تلك التسبيحة المديدة بأسماء الله الحسنى ؛ وكأنما هى أثر من آثار القرآن فى كيان الوجود كله ، ينطلق بها لسانه وتتجاوب بها أرجاؤه ؛ وهذه الأسماء واضحة الآثار فى صميم هذا الوجود وفى حركته وظواهره ، فهو إذ يسبح بها يشهد كذلك بآثارها :

« هو الله الذى لا إله إلا هو ، عالم الغيب والشهادة ، هو الرحمان الرحيم .

« هو الله الذى لا إله إلا هو ، الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر. سبحان الله عما يشركون .

« هو الله الخالق البارئ المصور ، له الأسماء الحسنى ، يسبح له مافى السماوات والأرض وهو العزيز الحكيم » . .

إنها تسبيحة مديدة بهذه الصفات المجيدة . ذات ثلاثة مقاطع . يبدأ كل مقطع منها بصفة التوحيد : « هو الله الذى لاإله إلاهو » .. أو « هو الله » . .

ولكل اسم من هذه الأسماء الحسنى أثر فى هذا الكون ملحوظ ، وأثر فى حياة البشر ملموس . فهى توحى إلى القلب بفاعلية هذه الأسماء والصفات . فاعلية ذات أثر وعلاقة بالناس والأحياء . وليست هى صفات سلبية أومنعزلة عن كيان هذا الوجود ، وأحواله وظواهره المصاحبة لوجوده .

« هو الله الذى لاإله إلاهو » . . فتتقرر فى الضمير وحدانية الاعتقاد ، ووحدانية العبادة، ووحدانية الاتجاه ، ووحدانية الفاعلية من مبدأ الخلق إلى منتهاه . ويقوم على هذه الوحدانية منهج كامل فى التفكير والشعور والسلوك ، وارتباطات الناس بالكون وبسائر الأحياء . وارتباطات الناس بعضهم ببعض على أساس وحدانية الإله .

« عالم الغيب والشهادة » .. فيستقر فى الضمير الشعور بعلم الله للظاهر والمستور . ومن ثم تستيقظ مراقبة هذا الضمير لله فى السر والعلانية ؛ ويعمل الإنسان كل مايعمل بشعور المراقب من الله المراقِب لله ، الذى لايعيش وحده ، ولوكان فى خلوة أومناجاة ! ويتكيف سلوكه بهذا الشعور الذى لايغفل بعده قلب ولاينام !

« هو الرحمان الرحيم »فيستقر فى الضمير شعور الطمأنينة لرحمةالله والاسترواح. ويتعادل الخوف والرجاء ، والفزع والطمأنينة . فالله فى تصور المؤمن لا يطارد عباده ولكن يراقبهم . ولايريد الشر بهم بل يحب الهدى ، ولايتركهم بلا عون وهم يصارعون الشرور والأهواء .

« هوالله الذىلاإله إلاهو » .. يعيدها فى أولالتسبيحة التالية ، لأنها القاعدة التىتقوم عليها سائر الصفات ..

« الملك » .. فيستقرفى الضمير أن لاملك إلاالله الذى لاإله إلاهو . وإذا توحدت الملكية لم يبق للمملوكين إلاسيد واحد يتجهون إليه ، ولايخدمون غيره . فالرجل لايخدم سيدين فى وقت واحد « ما جعل الله لرجل من قلبين فى جوفه » ..

« القدوس » وهو اسم يشع القداسة المطلقة والطهارة المطلقة . ويلقى فى ضمير المؤمنهذا

الإشعاع الطهور ، فينظف قلبه هو ويطهره ، ليصبح صالحا لتلقى فيوض الملك القدوس ، والتسبيح له والتقديس .

« السلام » . . وهو اسم كذلك يشيع السلام والأمن والطمأنينة فى جنبات الوجود ، وفى قلب المؤمن تجاه ربه . فهو آمن فى جواره ، سالم فى كنفه . وحيال هذا الوجود وأهله من الأحياء والأشياء . ويؤوب القلب من هذا الاسم بالسلام والراحة والاطمئنان .وقد هدأت شرته وسكن بلباله وجنح إلى الموادعة والسلام .

« المؤمن » واهب الأمن وواهب الإيمان . ولفظ هذا الاسم يشعر القلب بقيمة الإيمان ، حيث يلتقى فيه بالله ، ويتصف منه بإحدى صفات الله . ويرتفع إذن إلى الملأ الأعلى بصفة الإيمان.

« المهيمن » . . وهذا بدء صفحة أخرى فى تصور صفة الله — سبحانه — إذ كانت الصفات السابقة : « القدوس السلام المؤمن » صفات تتعلق مجردة بذات الله . فأما هذه فتتعلق بذات الله فاعلة فى الكون والناس . توحى بالسلطان والرقابة .

وكذلك : « العزيز . الجبار . المتكبر » . . فهى صفات توحى بالقهر والغلبة والجبروت والاستعلاء . فلا عزيز إلا هو . ولا جبار إلا هو . ولا متكبر إلا هو . وما يشاركه أحد فى صفاته هذه . وما يتصف بها سواه . فهو المتفرد بها بلا شريك .

ومن ثم يجىء ختام الآية : « سبحان الله عما يشركون » . .

ثم يبدأ المقطع الأخير فى التسبيحة المديدة .

« هو الله » . . فهى الألوهية الواحدة . وليس غيره بإله .

« الخالق » . . « البارىء » .. والخلق : التصميم والتقدير . والبرء: التنفيذ والإخراج، فهما صفتان متصلتان والفارق بينهما لطيف دقيق . .

« المصور » . وهى كذلك صفة مرتبطه بالصفتين قبلها . ومعناها إعطاء الملامح المتميزة والسمات التى تمنح لكل شىء شخصيته الخاصة .

وتوالى هذه الصفات المترابطة اللطيفة الفروق ، يستجيش القلب لمتابعة عملية الخلق والإنشاء والإيجاد والإخراج مرحلة مرحلة — حسب التصور الإنسانى — فأما فى عالم الحقيقة فليست هناك مراحل ولا خطوات . وما نعرفه عن مدلول هذه الصفات ليس هو حقيقتها المطلقة فهذه لايعرفها إلا الله . إنما نحن ندرك شيئا من آثارها هو الذى نعرفها به فى حدود طاقتنا الصغيرة !

« له الأسماء الحسنى » . . الحسنى فى ذاتها . بلا حاجة إلى استحسان من الخلق ولا توقف على استحسانهم . والحسنى التى توحى بالحسن للقلوب وتفيضه عليها . وهى الأسماء التى يتدبرها المؤمن ليصوغ نفسه وفق إيحائها واتجاهها ، إذ يعلم أن الله يحب له أن يتصف بها . وأن يتدرج فى مراقيه وهو يتطلع إليها .

وخاتمة هذه التسبيحة المديدة بهذه الأسماء الحسنى ، والسبحة البعيدة مع مدلولاتها الموحية وفى فيوضها العجيبة ، هى مشهد التسبيح لله يشيع فى جنبات الوجود ، وينبعث من كل موجود:

« يسبح له مافى السماوات والأرض وهو العزيز الحكيم » . .

وهو مشهد يتوقعه القلب بعد ذكر تلك الأسماء ؛ ويشارك فيه مع الأشياء والأحياء . . كما يتلاقى فيه المطلع والختام . فى تناسق والتئام .

سورة الممتحنة مدنية
وآياتها ١٣

بسم الله الرحمن الرحيم

« ياأيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوي وعدوكم أولياء تلقون إليهم بالمودة ، وقد كفروا بما جاءكم من الحق ، يخرجون الرسول وإياكم ، أن تؤمنوا بالله ربكم ، إن كنتم خرجتم جهاداً في سبيلي وابتغاء مرضاتي ، تسرون إليهم بالمودة ، وأنا أعلم بما أخفيتم وما أعلنتم ، ومن يفعله منكم فقد ضل سواء السبيل * إن يثقفوكم يكونوا لكم أعداء ، ويبسطوا إليكم أيديهم وألسنتهم بالسوء ، وودوا لو تكفرون * لن تنفعكم أرحامكم ولا أولادكم ، يوم القيامة يفصل بينكم ، والله بما تعملون بصير * قد كانت لكم أسوة حسنة في إبراهيم والذين معه ، إذ قالوا لقومهم : إنا برآء منكم ومما تعبدون من دون الله ، كفرنا بكم ، وبدا بيننا وبينكم العداوة والبغضاء أبدا حتى تؤمنوا بالله وحده ، إلا قول إبراهيم لأبيه : لأستغفرن لك ، وما أملك لك من الله من شيء ، ربنا عليك توكلنا ، وإليك أنبنا ، وإليك المصير * ربنا لا تجعلنا فتنة للذين كفروا ، واغفر لنا ربنا ، إنك أنت العزيز الحكيم * لقد كان لكم فيهم أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر ، ومن يتول فإن الله هو الغني الحميد .

« عسى الله أن يجعل بينكم وبين الذين عاديتم منهم مودة ، والله قدير

وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ * لَا يَنْهَاكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ، إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ * إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي ٱلدِّينِ وَأَخْرَجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ ، وَظَاهَرُوا عَلَى إِخْرَاجِكُمْ أَنْ تَوَلَّوْهُمْ، وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ ٱلظَّالِمُونَ .

« يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمُ ٱلْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَٱمْتَحِنُوهُنَّ ، ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِهِنَّ ، فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى ٱلْكُفَّارِ ، لَا هُنَّ حِلٌّ لَهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ ، وَآتُوهُمْ مَا أَنْفَقُوا ، وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ ، وَلَا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ ٱلْكَوَافِرِ ، وَٱسْأَلُوا مَا أَنْفَقْتُمْ وَلْيَسْأَلُوا مَا أَنْفَقُوا ، ذَلِكُمْ حُكْمُ ٱللَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ ، وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ * وَإِنْ فَاتَكُمْ شَيْءٌ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ إِلَى ٱلْكُفَّارِ فَعَاقَبْتُمْ فَآتُوا ٱلَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَاجُهُمْ مِثْلَ مَا أَنْفَقُوا وَٱتَّقُوا ٱللَّهَ ٱلَّذِي أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ .

« يَا أَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ ٱلْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَى أَنْ لَا يُشْرِكْنَ بِٱللَّهِ شَيْئًا ، وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ ، وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَادَهُنَّ ، وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ، وَلَا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ ، فَبَايِعْهُنَّ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُنَّ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ .

« يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ ، قَدْ يَئِسُوا مِنَ ٱلْآخِرَةِ كَمَا يَئِسَ ٱلْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَابِ ٱلْقُبُورِ » . .

هذه السورة حلقة فى سلسلة التربية الإيمانية والتنظيم الاجتماعى والدولة فى المجتمع المدنى . حلقة من تلك السلسلة الطويلة ،أومن ذلك المنهج الإلهى المختار للجماعة المسلمة المختارة، التى ناط بها الله تحقيق منهجه الذى يريده للحياة الإنسانية ، فى صورة واقعية عملية ، كما يستقر فى الأرض نظاما ذا معالم وحدود وشخصية مميزة ؛ تبلغ إليه البشرية أحيانا ، وتقصر عنه أحيانا ،

ولكنها تبقى معلقة دائما بمحاولة بلوغه ؛ وتبقى أمامها صورة واقعية منه ، تحققت يوما فى هذه الأرض .

وقد اقتضى هذا ــ كما قلنا فى أول هذا الجزء ــ إعدادا طويلا فى خطوات ومراحل . وكانت الأحداث التى تقع فى محيط هذه الجماعة ، أو تتعلق بها ، مادة من مواد هذا الإعداد . مادة مقدرة فى علم الله ، تقوم عليها مادة أخرى هى التفسير والتوضيح والتعقيب والتوجيه .

وفى مضطرب الأحداث، وفى تيار الحياة المتدفق ، تمت عملية بناء النفوس المختارة لتحقيق ذلك المنهج الإلهى فى الأرض . فلم تكن هناك عزلة إلا العزلة بالتصور الإيمانى الجديد ، وعدم خلطه بأية رقع غريبة عنه فى أثناء التكوين النفسى لهذه الجماعة . وكانت التربية المستمرة متجهة دائما إلى إنشاء هذا التصور الإيمانى الخاص المميز ، المنعزل بحقيقته وطبيعته عن التصورات السائدة فى العالم كله يومذاك ، وفى الجزيرة العربية بصفة خاصة : أما الناس الذين ينشأ هذا التصور المتميز فى نفوسهم فلم يكونوا بمعزل عن واقع الحياة ومضطرب الأحداث ، بل كانوا يصهرون فى بوتقة الحوادث يوما بعد يوم ، ومرة بعد مرة ، ويعاد صهرهم فى الأمر الواحد والخلق الواحد مرات كثيرة ، وتحت مؤثرات متنوعة ؛ لأن الله الذى خلق هذه النفوس يعلم أنها ليست كلها مما يتأثر ويستجيب ويتكيف ويستقر على ما تكيف به منذ اللمسة الأولى . وكان يعلم أن رواسب الماضى ، وجواذب الميول الطبيعية ، والضعف البشرى ، وملامسات الواقع ، وتحكم الإلف والعادة ، كلها قد تكون معوقات قوية تغلب عوامل التربية والتوجيه مرة بعد مرة . وتحتاج فى مقاومتها إلى التذكير المتكرر ، والصهر المتوالى .. فكانت الأحداث تتوالى كما هى منسوقة فى قدر الله ، وتتوالى الموعظة بها . والتحذير على ضوئها ، والتوجيه بهديها ، مرة بعد مرة .

وكان رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ يقوم فى يقظة دائمة وإلهام بصير ، بالتقاط الأحداث والوقائع والمناسبات فى كل فرصة ، واستخدامها بحكمة بالغة فى بناء هذه النفوس . والوحى والإلهام يؤيدانه ويسددانه ــ صلى الله عليه وسلم ــ حتى تصنع تلك الجماعة المختارة على عين الله . بتوفيق الله . على يدى رسول الله .

***

هذه السورة حلقة فى سلسلة ذلك الإعداد الطويل ، تستهدف ــ مع غيرها مما جاء فى مثل موضوعها ــ إقامة عالم ربانى خالص فى ضمير المسلم . عالم محوره الإيمان بالله وحده ، يشد المسلمين

إلى هذا المحور وحده ، بعروة واحدة لا انفصام لها ؛ ويبرئ نفوسهم من كل عصبية أخرى . عصبية للقوم أوللجنس أوللأرض أوللعشيرة أوللقرابة . ليجعل فى مكانها جميعا عقدة واحدة . هى عقدة الإيمان بالله . والوقوف تحت راية الله . فى حزب الله .

إن العالم الذى يريده الإسلام عالم ربانى إنسانى . ربانى بمعنى أنه يستمد كل مقوماته من توجيه الله وحكمه ، ويتجه إلى الله بكل شعوره وعمله . وإنسانى بمعنى أنه يشمل الجنس الإنسانى كله – فى رحاب العقيدة – وتذوب فيه فواصل الجنس والوطن واللغة والنسب . وسائر مايميز إنسانا عن إنسان ، عدا عقيدة الإيمان . وهذا هو العالم الرفيع اللائق أن يعيش فيه الإنسان الكريم على الله ، المتضمن كيانه نفحة من روح الله

ودون إقامة هذا العالم تقف عقبات كثيرة – كانت فى البيئة العربية وماتزال فى العالم كله إلى اليوم – عقبات من التعصب للبيت ، والتعصب للعشيرة ، والتعصب للقوم ، والتعصب للجنس ، والتعصب للأرض . كما تقف عقبات أخرى من رغائب النفوس وأهواء القلوب ، من الحرص والشح وحب الخير للذات ، ومن الكبرياء الذاتية والالتواءات النفسية .. وألوان غيرها كثير من ذوات الصدور !

وكان على الإسلام أن يعالج هذا كله فى الجماعة التى يعدها لتحقيق منهج الله فى الأرض فى صورة عملية واقعة . وكانت هذه الصورة حلقة فى سلسلة هذا العلاج الطويل .

وكان بعض المهاجرين الذين تركوا ديارهم وأموالهم وأهليهم فى سبيل عقيدتهم ، ماتزال نفوسهم مشدودة إلى بعض من خلفوا هنالك من ذرية وأزواج وذوى قربى . وعلى الرغم من كل ماذاقوا من العنت والأذى فى قريش فقد ظلت بعض النفوس تود لو وقعت بينهم وبين أهل مكة المحاسنة والمودة ؛ وأن لو انتهت هذه الخصومة القاسية التى تكلفهم قتال أهليهم وذوى قرابتهم ، وتقطع مابينهم وبينهم من صلات !

وكان الله يريد استصفاء هذه النفوس واستخلاصها من كل هذه الوشائج ، وتجريدها لدينه وعقيدته ومنهجه . وهو – سبحانه – يعلم ثقل الضغط الواقع عليها من الميول الطبيعية ورواسب الجاهلية جميعا – وكان العرب بطبيعتهم أشد الناس احتفالا بعصبية القبيلة والعشيرة والبيت – فكان يأخذهم يوما بعد يوم بعلاجه الناجع البالغ ، بالأحداث وبالتعقيب على الأحداث ، ليكون العلاج على مسرح الحوادث وليكون الطرق والحديد ساخن !

وتذكر الروايات حادثا معينا نزل فيه صدر هذه السورة . وقد تكون هذه الروايات صحيحة فى سبب النزول المباشر . ولكن مدى النصوص القرآنية دائما أبعد من الحوادث المباشرة .

وقد قيل فى هذا الحادث : إن حاطب ابن أبى بلتعة كان رجلا من المهاجرين . وكان من أهل بدر أيضاً . وكان له بمكة أولاد ومال ، ولم يكن من قريش أنفسهم بل كان حليفا لعثمان. فلما عزم رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ على فتح مكة لما نقض أهلها عهد الحديبية أمر المسلمين بالتجهيز لغزوهم ، وقال : « اللهم عمّ عليهم خبرنا » . . وأخبر رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ جماعة من أصحابه بوجهته ، كان منهم حاطب . فعمد حاطب فكتب كتابا وبعثه مع امرأة مشركة ــ قيل من مزينة ــ جاءت المدينة تسترفد ــ إلى أهل مكة يعلمهم بعزم رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ على غزوهم ، ليتخذ بذلك عندهم يدا . فأطلع الله ــ تعالى ــ رسوله على ذلك استجابة لدعائه . وإمضاء لقدره فى فتح مكة . فبعث فى أثر المرأة ، فأخذ الكتاب منها .

وقد روى البخارى فى المغازى ، ورواه مسلم فى صحيحه من حديث حصين ابن عبد الرحمان ، عن سعد ابن عبيدة عن أبى عبد الرحمان السلمى ، عن على ــ رضى الله عنه ــ قال : « بعثنى رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ وأبا مرثد والزبير ابن العوام ــ وكلنا فارس ــ وقال : انطلقوا حتى تأتوا روضة خاخ ، فإن بها امرأة من المشركين معها كتاب من حاطب ابن أبى بلتعة إلى المشركين » . فأدركناها تسير على بعير لها حيث قال رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ فقلنا : الكتاب ؟ فقالت مامعى كتاب . فأنخناها فالتمسنا فلم نر كتابا . فقلنا : ما كذب رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ لتخرجن الكتاب أو لنجردنك . فلما رأت الجد أهوت إلى حجزتها ، وهى محتجزة بكساء ، فأخرجته . فانطلقنا به إلى رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ فقال عمر : يارسول الله . قد خان الله ورسوله والمؤمنين، فدعنى فلأضرب عنقه . فقال النبى ــ صلى الله عليه وسلم ــ : « ماحملك على ماصنعت ؟ » قال حاطب : والله مابى إلا أن أكون مؤمنا بالله ورسوله ــ صلى الله عليه وسلم ــ أردت أن تكون لى عند القوم يد ، يدفع الله بها عن أهلى ومالى ، وليس أحد من أصحابك إلا له هناك من عشيرته من يدفع الله به عن أهله وماله. قال : « صدق لاتقولوا إلا خيرا » . فقال عمر : إنه قد خان الله ورسوله والمؤمنين ، فدعنى فلأضرب عنقه. فقال : « أليس من أهل بدر ؟ ــ فقال ــ: لعل الله اطلع إلى أهل بدر فقال :

اعملوا ماشئتم فقد وجبت لكم الجنة ـ أو ـ قد غفرت لكم » فدمعت عينا عمر ، وقال : الله ورسوله أعلم .. وزاد البخارى فى كتاب المغازى : فأنزل الله السورة : « يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوى وعدوكم أولياء تلقون إليهم بالمودة » . . وفى رواية أخرى أن الذين أرسلوا كانوا هم على والزبير والمقداد .

والوقوف قليلا أمام هذا الحادث ومادار بشأنه لايخرج بنا عن « ظلال القرآن » والتربية به وبالأحداث والتوجيهات والتعقيبات عن طريق رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ القائد المربى العظيم ..

وأول مايقف الإنسان أمامه هو فعلة حاطب ،وهو المسلم المهاجر ، وهو أحد الذين أطلعهم رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ على سر الحملة .. وفيها مايكشف عن منحنيات النفس البشرية العجيبة ، وتعرض هذه النفس للحظات الضعف البشرى مهما بلغ من كمالها وقوتها؛ وأن لاعاصم إلا الله من هذه اللحظات فهو الذى يعين عليها .

ثم يقف الإنسان مرة أخرى أمام عظمة الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ وهو لايعجل حتى يسأل: « ماحملك على ماصنعت » فى سعة صدر وعطف على لحظة الضعف الطارئة فى نفس صاحبه، وإدراك ملهم بأن الرجل قد صدق ، ومن ثم يكف الصحابة عنه : « صدق لاتقولوا إلا خيرا » .. ليعينه وينهضه من عثرته ، فلايطارده بها ولايدع أحدا يطارده . بينما نجد الإيمان الجاد الحاسم الجازم فى شدة عمر : « إنه قد خان الله ورسوله والمؤمنين . فدعنى فلأضرب عنقه » .. فعمر ـ رضى الله عنه ـ إنما ينظر إلى العثرة ذاتها فيثور لها حسه الحاسم وإيمانه الجازم . أما رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فينظر إليها من خلال إدراكه الواسع الشامل للنفس البشرية على حقيقتها ، ومن كل جوانبها ، مع العطف الكريم الملهم الذى تنشئه المعرفة الكلية . فى موقف المربى الكريم العطوف المتأنى الناظر إلى جميع الملابسات والظروف ..

ثم يقف الإنسان أمام كلمات حاطب ، وهو فى لحظة ضعفه ، ولكن تصوره لقدر الله وللأسباب الأرضية هو التصور الإيمانى الصحيح . . ذلك حين يقول : « أردت أن تكون لى عند القوم يد . . يدفع الله بها عن أهلى ومالى » . . فالله هو الذى يدفع ، وهذه اليد لاتدفع بنفسها ، إنما يدفع الله بها . ويؤكد هذا التصور فى بقية حديثه وهو يقول : « وليس أحد من أصحابك إلا له هناك من عشيرته من يدفع . . الله . . به عن أهله وماله » فهو الله حاضر فى تصوره ، وهو الذى يدفع لا العشيرة . إنما العشيرة أداة يدفع الله بها . .

ولعل حس رسول الله اللهم قدراعى هذا التصور الصحيح الحي في قول الرجل ، فكان هذا من أسباب قوله — صلى الله عليه وسلم — : « صدق ..لاتقولوا إلاخيرا » ..

وأخيرا يقف الإنسان أمام تقدير الله، في الحادث ؛ وهو أن يكون حاطب من القلة التي يعهد إليها رسول الله — صلى الله عليه وسلم — بسر الحملة . وأن تدركه لحظة الضعف البشرى وهو من القلة المختارة . ثم يجرى قدر الله بكف ضرر هذه اللحظة عن المسلمين . كأنما القصد هو كشفها فقط وعلاجها ! ثم لايكون من الآخرين الذين لم يعهد إليهم بالسر اعتراض على ماوقع ، ولاتنفج بالقول : هاهوذا أحد من استودعوا السرخانوه ، ولو أودعناه نحن ماجنا به ! فلم يرد من هذا شيء . مما يدل على أدب المسلمين مع قيادتهم ، وتواضعهم في الظن بأنفسهم، واعتبارهم بما حدث لأخيهم . . .

والحادث متواتر الرواية . أما نزول هذه الآيات فيه فهو أحد روايات البخارى . ولا نستبعد صحة هذه الرواية ؛ ولكن مضمون النص القرآني — كما قلنا — أبعد مدى ، وأدل على أنه كان يعالج حالة نفسية أوسع من حادث حاطب الذى تواترت به الروايات ، بمناسبة وقوع هذا الحادث ، على طريقة القرآن .

كان يعالج مشكلة الأواصر القريبة ، والعصبيات الصغيرة ، وحرص النفوس على مألوفاتها الموروثة ليخرج بها من هذا الضيق المحلى إلى الأفق العالمى الإنسانى .

وكان ينشىء في هذه النفوس صورة جديدة ، وقيما جديدة ، وموازين جديدة ، وفكرة جديدة عن الكون والحياة والإنسان ،ووظيفة المؤمنين في الأرض ، وغاية الوجود الإنسانى.

وكان كأنما يجمع هذه النبتات الصغيرة الجديدة في كنف الله ؛ ليعلمهم الله ويبصرهم بحقيقة وجودهم وغايته ، وليفتح أعينهم على مايحيط بهم من عداوات ومكر وكيد ، وليشعرهم أنهم رجاله وحزبه ،وأنه يريد بهم أمرا، ويحقق بهم قدَرا . ومن ثم فهم يوسمون بسمته ويحملون شارته، ويعرفون بهذه الشارة وتلك السمة بين الأقوام جميعا . في الدنيا والآخرة . وإذن فليكونوا خالصين له ، منقطعين لولايته ، متجردين من كل وشيجة غير وشيجته . في عالم الشعور وعالم السلوك .

والسورة كلها في هذا الاتجاه . حتى الآيات التشريعية التنظيمية الواردة في آخرها عن معاملة المهاجرات المؤمنات ، ومبايعة من يدخلن في الإسلام ، والفصل بين المؤمنات وأزواجهن من

الكفار . وبين المؤمنين وزوجاتهم من الكوافر . . فكلها تنظيمات منبثقة من ذلك التوجيه العام .

ثم ختام السورة كما بدأت بالنهى عن موالاة أعداء الله ، ممن غضب عليهم ، الله سواء من المشركين أو من اليهود . ليتم التميز والانفراد والمفاصلة من جميع الوشائج والروابط غير رابطة العقيدة وغير وشيجة الإيمان . .

* * *

« ياأيها الذين آمنوا لاتتخذوا عدوى وعدوكم أولياء تلقون إليهم بالمودة ، وقد كفروا بما جاءكم من الحق ، يخرجون الرسول وإياكم ، أن تؤمنوا بالله ربكم . إن كنتم خرجتم جهادا فى سبيلى وابتغاء مرضاتى تسرون إليهم بالمودة وأنا أعلم بما أخفيتم وما أعلنتم ؟ ومن يفعله منكم فقد ضل سواء السبيل . إن يثقفوكم يكونوا لكم أعداء ، ويبسطوا إليكم أيديهم وألسنتهم بالسوء ، وودوا لو تكفرون » . .

تبدأ السورة بذلك النداء الودود الموحى : « ياأيها الذين آمنوا » .. نداء من ربهم الذى آمنوا به ، يدعوهم باسم الإيمان الذى ينسبهم إليه . يدعوهم ليبصرهم بحقائق موقفهم ، ويحذرهم حبائل أعدائهم ، ويذكرهم بالمهمة الملقاة على عاتقهم .

وفى مودة يجعل عدوهم عدوه ، وعدوه عدوهم :

« لا تتخذوا عدوى وعدوكم أولياء تلقون إليهم بالمودة » . .

فيشعر المؤمنين بأنهم منه وإليه . يعاديهم من يعاديه . فهم رجاله المنتسبون إليه الذين يحملون شارته فى هذه الأرض . وهم أوداؤه وأحباؤه . فلا يجوز أن يلقوا بالمودة إلى أعدائهم وأعدائه .

ويذكرهم بجريرة هؤلاء الأعداء عليهم وعلى دينهم وعلى رسولهم ، وعدوانهم على هذا كله فى تجن وظلم :

« وقد كفروا بما جاءكم من الحق . يخرجون الرسول وإياكم . أن تؤمنوا بالله ربكم » . .

فماذا أبقوا بعد هذه الجرائر الظالمة للموالاة والمودة ؟ كفروا بالحق . وأخرجوا الرسول والمؤمنين ، لالشىء إلا لأنهم آمنوا بالله ربهم ؟ إنه يهيج فى قلوب المؤمنين هذه الذكريات المرتبطة بعقيدتهم . وهى التى حاربهم المشركون من أجلها ، لامن أجل أى سبب آخر . ويبرز

القضية التي عليها الخلاف والخصومة والحرب . فهي قضية العقيدة دون سواها . قضية الحق الذى كفروا به والرسول الذى أخرجوه ، والإيمان الذى من أجله أخرجوهم .

وإذا تمحضت القضية هكذا وبرزت ، ذكّرهم بأنه لا محل إذن للمودة بينهم وبين المشركين إن كانوا قد خرجوا من ديارهم ابتغاء رضوان الله وجهادا فى سبيله :

« إن كنتم خرجتم جهادا فى سبيلى وإبتغاء مرضاتى » . .

فما يجتمع فى قلب واحد أن يهاجر جهادا فى سبيل الله ابتغاء مرضاة الله ، مع مودة لمن أخرجه من أجل إيمانه بالله ، وهو عدو الله وعدو رسول الله !

ثم يحذرهم تحذيرا خفيا مماتكن قلوبهم ،وما يسرون به إلى أعدائهم وأعداء الله من المودة ، وهو مطلع على خفية القلوب وعلانيتها :

« تسرون إليهم بالمودة وأنا أعلم بما أخفيتم وما أعلنتم » .

ثم يهددهم تهديدا مخيفا ، يثير فى القلب المؤمن الوجل والمخافة :

« ومن يفعله منكم فقد ضل سواء السبيل » . .

وهل يخيف المؤمن شيء مايخيفه أن يضل سواء السبيل بعد الهداية والوصول ؟ !

وهذا التهديد وذلك التحذير يتوسطان تبصير المؤمنين بحقيقة أعدائهم وما يضمرون لهم من الشر والكيد . ثم تجيء البقية :

« إن يثقفوكم يكونوا لكم أعداء ويبسطوا إليكم أيديهم وألسنتهم بالسوء » . .

فلا تعرض لهم فرصة يتمكنون فيها من المسلمين حتى يتصرفوا معهم تصرف العدو الأصيل . ويوقعوا بهم ما يملكون من أذى ومن تنكيل بالأيدى وبالألسنة وبكل وسيلة وكل سبيل .

والأدهى من هذا كله والأشد والأنكى :

« وودوا لو تكفرون » . .

وهذه عند المؤمن أشد من كل أذى ومن كل سوء يصيبه باليد أو اللسان . فالذى يود له أن يخسر هذاالكنز العزيز . كنز الإيمان. ويرتد إلى الكفر ،هو أعدى من كل عدو يؤذيه باليد وباللسان !

والذى يذوق حلاوة الإيمان بعد الكفر، ويهتدى بنوره بعد الضلال،ويعيش عيشة المؤمن بتصوراته ومداركه ومشاعره واستقامة طريقه وطمأنينة قلبه يكره العودة إلى الكفر كما يكره

أن يلقى فى النار . أو أشد . فعدو الله هو الذى يود أن يرجعه إلى جحيم الكفر وقد خرج منه إلى جنة الإيمان ، وإلى فراغ الكفر الخاوى بعد عالم الإيمان المعمور.

لهذا يتدرج القرآن فى تهييج قلوب المؤمنين ضد أعدائه وأعدائهم حتى يصل إلى قمته بقوله لهم عنهم : « وودوا لو تكفرون » ..

* * *

هذه هى الجولة الأولى بلمساتها المتعددة . ثم تليها جولة ثانية بلمسة واحدة تعالج مشاعر القرابة ووشائجها المتأصلة ؛ والتى تشتجر فى القلوب فتجرها جرا إلى المودة ؛ وتنسيها تكاليف التميز بالعقيدة :

« لن تنفعكم أرحامكم ولاأولادكم . يوم القيامة يفصل بينكم . والله بما تعملون بصير » ..

إن المؤمن يعمل ويرجو الآخرة يزرع هنا وينتظر الحصاد هناك . فلمسة قلبه بما يكون فى الآخرة من تقطيع وشائج القربى كلها إذا تقطعت وشيجة العقيدة ، من شأنها أن تهون عنده شأن هذه الوشائج فى فترة الحياة الدنيا القصيرة ؛ وتوجهه إلى طلب الوشيجة الدائمة التى لاتنقطع فى دنيا ولا فى آخرة .

ومن ثم يقول لهم : « لن تنفعكم أرحامكم ولاأولادكم » ..التى تهفون إليها وتتعلق قلوبكم بها ؛ وتضطركم إلى موادة أعداء الله وأعدائكم وقاية لها — كما حدث لحاطب فى حرصه على أولاده وأمواله — وكما تجيش خواطر آخرين غيره حول أرحامهم وأولادهم الذين خلفوهم فى دار الهجرة. لن تنفعكم أرحامكم ولاأولادكم . ذلك أنه « يوم القيامة يفصل بينكم » .. لأن العروة التى تربطكم مقطوعة . وهى العروة التى لارباط بغيرها عند الله .

« والله بما تعملون بصير » . . مطلع على العمل الظاهر والنية وراءه فى الضمير .

* * *

ثم تأتى الجولة الثالثة فتصل المسلمين بأول هذه الأمة الواحدة : أمة التوحيد .وهذه القافلة الواحدة : قافلة الإيمان .فإذا هى ممتدة فى الزمان ، متميزة بالإيمان ، متبرئة من كل وشيجة تنافى وشيجة العقيدة .. إنها الأمة الممتدة منذ إبراهيم . أبيهم الأول وصاحب الحنيفية الأولى . وفيه أسوة لافى العقيدة وحدها ، بل كذلك فى السيرة ، وفى التجارب التى عاناها مع عاطفة القرابة ووشائجها ؛ ثم خلص منها هو ومن آمن معه ، وتجرد لعقيدته وحدها :

« قد كانت لكم أسوة حسنة فى إبراهيم والذين معه ؛ إذ قالوا لقومهم : إنا برآء منكم ، ومما تعبدون من دون الله ، كفرنا بكم ، وبدا بيننا وبينكم العداوة والبغضاء أبدا حتى تؤمنوا بالله وحده . إلاقول إبراهيم لأبيه ، لأستغفرن لك ، وماأملك لك من الله من شيء . ربنا عليك توكلنا ، وإليك أنبنا ، وإليك المصير . ربنا لاتجعلنا فتنة للذين كفروا ، واغفر لنا ربنا ، إنك أنت العزيز الحكيم .. لقد كان لكم فيهم أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر . ومن يتول فإن الله هو الغنى الحميد » ..

وينظر المسلم فإذا له نسب عريق ، وماض طويل ، وأسوة ممتدة على آماد الزمان . وإذا هو راجع إلى إبراهيم . لافى عقيدته فحسب ، بل فى تجاربه التى عاناها كذلك . فيشعر أن له رصيدا من التجارب أكبر من رصيده الشخصى وأكبر من رصيد جيله الذى يعيش فيه . إن هذه القافلة الممتدة فى شعاب الزمان من المؤمنين بدين الله ، الواقفين تحت راية الله ، قد مرت بمثل مايمر به ، وقد انتهت فى تجربتها إلى قرار اتخذته . فليس الأمر جديدا ولامبتدعا ولاتكليفا يشق على المؤمنين .. ثم إن له لأمة طويلة عريضة يلتقى معها فى العقيدة ويرجع إليها ، إذاانبتت الروابط بينه وبين أعداء عقيدته. فهو فرع من شجرة ضخمة باسقة عميقة الجذور كثيرة الفروع وارفة الظلال .. الشجرة التى غرسها أول المسلمين .. إبراهيم ..

مر إبراهيم والذين معه بالتجربة التى يعانيها المسلمون المهاجرون . وفيهم أسوة حسنة : « إذ قالوا لقومهم : إنا برآء منكم ومما تعبدون من دون الله ، كفرنا بكم ، وبدا بيننا وبينكم العداوة والبغضاء أبدا حتى تؤمنوا بالله وحده » ..

فهى البراءة من القوم ومعبوداتهم وعباداتهم. وهو الكفر بهم والإيمان بالله. وهى العداوة والبغضاء لاتنقطع حتى يؤمن القوم بالله وحده . وهى المفاصلة الحاسمة الجازمة التى لاتستبقى شيئا من الوشائج والأواصر بعد انقطاع وشيجة العقيدة وآصرة الإيمان . وفى هذا فصل الخطاب فى مثل هذه التجربة التى يمر بها المؤمن فى أى جيل . وفى قرار إبراهيم والذين معه أسوة لخلفائهم من المسلمين إلى يوم الدين .

ولقد كان بعض المسلمين يجد فى استغفار إبراهيم لأبيه ـ وهو مشرك ـ ثغرة تنفذ منها عواطفهم الحبيسة ومشاعرهم الموصولة بذوى قرباهم من المشركين . فجاء القرآن ليشرح لهم حقيقة موقف إبراهيم فى قوله لأبيه : « لأستغفرن لك » ..

فلقد قال هذا قبل أن يستيقن من إصرار أبيه على الشرك . قاله وهو يرجو إيمانهويتوقعه: « فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه » . . كما جاء فى سورة أخرى .

ويثبت هنا أن إبراهيم فوض الأمر كله لله ، وتوجه إليه بالتوكل والإنابة والرجوع إليه على كل حال :

« وما أملك لك من الله من شىء . ربنا عليك توكلنا وإليك أنبنا وإليك المصير » . .

وهذا التسليم المطلق لله ، هو السمة الإيمانية الواضحة فى إبراهيم يبرزها هنا ليوجه إليها قلوب أبنائه المسلمين . كحلقة من حلقات التربية والتوجيه بالقصص والتعقيب عليه ، وإبراز مافى ثناياه من ملامح وسمات وتوجيهات على طريقة القرآن الكريم [1] .

ويستطرد لهذا فى إثبات بقية دعاء إبراهيم ونجواه لمولاه :

« ربنا لاتجعلنا فتنة للذين كفروا » . .

فلاتسلطهم علينا . فيكون فىذلك فتنة لهم ، إذ يقولون : لوكان الإيمان يحمىأهله ماسلطنا عليهم وقهرناهم ! وهى الشبهة التى كثيرا ماتحيك فى الصدور ، حين يتمكن الباطل من الحق ، ويتسلط الطغاة على أهل الإيمان — لحكمة يعلمها الله — فى فترة من الفترات . والمؤمن يصبر للابتلاء ، ولكن هذا لايمنعه أن يدعو الله ألايصيبه البلاء الذى يجعله فتنة وشبهة تحيك فى الصدور .

وبقية الدعاء :

« واغفرلنا » . .

يقولها إبراهيم خليل الرحمان . إدراكا منه لمستوى العبادة التى يستحقها منه ربه ، وعجزه بشريته عن بلوغ المستوى الذى يكافىء به نعم الله وآلاءه ، ويمجد جلالهوكبرياءه فيطلبالمغفرة من ربه ، ليكون فى شعوره وفى طلبه أسوة لمن معه ولمن يأتى بعده .

ويختم دعاءه وإنابته واستغفاره يصف ربه بصفته المناسبة لهذا الدعاء :

« ربنا إنك أنت العزيز الحكيم » . .

العزيز : القادر على الفعل ، الحكيم : فيما يمضى من تدبير .

وفى نهاية هذا العرض لموقف إبراهيم والذين معه ، وفى استسلام إبراهيم وإنابته يعود فيقرر الأسوة ويكررها ؛ مع لمسة جديدة لقلوب المؤمنين :

---

(١) يراجع فصل : القصة فى القرآن فى كتاب : التصوير الفنى فى القرآن .

« لقد كان لكم فيهم أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر . ومن يتول فإن الله هو الغنى الحميد » . .

فالأسوة فى إبراهيم والذين معه متحققة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر . هؤلاء هم الذين يدركون قيمة التجربة التى عاناها هذا الرهط الكريم، ويجدون فيها أسوة تتبع، وسابقة تهدى. فمن كان يرجو الله واليوم الآخر فليتخذ منها أسوة . . وهو تلميح موح للحاضرين من المؤمنين .

فأما من يريد أن يتولى عن هذا المنهج - من يريد أن يحيد عن طريق القافلة . من يريد أن ينسلخ من هذا النسب العريق . فما بالله من حاجة إليه — سبحانه — « فإن الله هو الغنى الحميد » . .

وتنتهى الجولة وقد عاد المؤمنون أدراجهم إلى أوائل تاريخهم المديد ، ورجعوا بذكرياتهم إلى نشأتهم فى الأرض ؛ وعرفوا تجاربهم المذخورة لهم فى الأجيال المتطاولة ، ورأوا القرار الذى انتهى إليه من مروا بهذه التجربة ؛ ووجدوها طريقا معبدة من قبل ليسوا هم أول السالكين فيها .

والقرآن الكريم يؤكد هذا التصور ويكرره ليتصل ركب المؤمنين ، فلا يشعر بالغربة أو الوحشة سالك — ولو كان وحده فى جيل ! ولا يجد مشقة فى تكليف نهض به السالكون معه فى الطريق !

* * *

بعدئذ يعود فينسم على هذه القلوب التى يعلم الله ما بها من حنين ورغبة فى زوال حالة العداء والجفوة التى تكلفهم هذه المشقة . ينسم عليها بنسمة الأمل الندية فى أن ينضم هؤلاء الأعداء إلى راية الإسلام ، وإلى صفوف المسلمين ؛ فيكون هذا هو الطريق لزوال الجفوة وقيام الود على أساسه الركين . . ثم يخفف عنهم مرة أخرى — وهو يضع القاعدة الإسلامية الكبرى فى العلاقات الدولية بين المسلمين وغيرهم، فيجعل المقاطعة والخصومة خاصة بحالة العداء والعدوان . فأما حين ينتفى العداء والعدوان فهو البر لمن يستحق البر ، وهو القسط فى المعاملة والعدل :

« عسى الله أن يجعل بينكم وبين الذين عاديتم منهم مودة ، والله قدير والله غفور رحيم . لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم فى الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم .

إن الله يحب المقسطين . إنما ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم فى الدين وأخرجوكم من دياركم ، وظاهروا على إخراجكم أن تولوهم . ومن يتولهم فأولئك هم الظالمون » . .

إن الإسلام دين سلام ، وعقيدة حب ، ونظام يستهدف أن يظلل العالم كله بظله ، وأن يقيم فيه منهجه ، وأن يجمع الناس تحت لواء الله إخوة متعارفين متحابين . وليس هنالك من عائق يحول دون اتجاهه هذا إلا عدوان أعدائه عليه وعلى أهله . فأما إذا سالموهم فليس الإسلام براغب فى الخصومة ولا متطوع بها كذلك ! وهو حتى فى حالة الخصومة يستبقى أسباب الود فى النفوس بنظافة السلوك وعدالة المعاملة ، انتظارا لليوم الذى يقتنع فيه خصومه بأن الخير فى أن ينضووا تحت لوائه الرفيع . ولا ييأس الإسلام من هذا اليوم الذى تستقيم فيه النفوس ، فتتجه هذا الاتجاه المستقيم .

وفى الآية الأولى من هذا المقطع إشارة إلى هذا الرجاء الذى لا يغلب عليه اليأس ؛ فى معرض التخفيف على نفوس بعض المهاجرين ، وتغذية قلوبهم المتعبة بمشقة المقاطعة والحرب للأهل والعشيرة :

« عسى الله أن يجعل بينكم وبين الذين عاديتم منهم مودة » . .

وهذا الرجاء من الله ، معناه القطع بتحققه . والمؤمنون الذين سمعوه لابد قد أيقنوا به . ولقد وقع بعد هذا بوقت قصير أن فتحت مكة ، وأن أسلمت قريش ، وأن وقف الجميع تحت لواء واحد ، وأن طويت الثارات والمواجد ، وأن عاد الجميع إخوة مؤتلفى القلوب .

« والله قدير » . . يفعل مايريد بلا معقب .

« والله غفور رحيم » . . يغفر ماسلف من الشرك والذنوب . .

وإلى أن يتحقق وعد الله الذى دل عليه لفظ الرجاء رخص الله لهم فى موادة من لم يقاتلوهم فى الدين ولم يخرجوهم من ديارهم . ورفع عنهم الحرج فى أن يبروهم ، وأن يتحروا العدل فى معاملاتهم معهم فلا يبخسونهم من حقوقهم شيئا . ولكنه نهى أشد النهى عن الولاء لمن قاتلوهم فى الدين وأخرجوهم من ديارهم وساعدوا على إخراجهم . وحكم على الذين يتولونهم بأنهم هم الظالمون . . ومن معانى الظلم الشرك بالرجوع إلى قوله تعالى : « إن الشرك لظلم عظيم » . . وهو تهديد رهيب يجزع منه المؤمن ، ويتقى أن يدخل فى مدلوله المخيف !

وتلك القاعدة فى معاملة غير المسلمين هى أعدل القواعد التى تتفق مع طبيعة هذا الدين

ووجهته ونظرته إلى الحياة الإنسانية، بل نظرته الكلية لهذا الوجود ، الصادر عن إله واحد ، المتجه إلى إله واحد ، المتعاون فى تصميمه اللدنى وتقديره الأزلى ، من وراء كل اختلاف وتنويع (١) .

وهى أساس شريعته الدولية ،التى تجعل حالة السلم بينه وبين الناس جميعا هى الحالة الثابتة، لايغيرها إلا وقوع الاعتداء الحربى وضرورة رده ، أوخوف الخيانة بعد المعاهدة ، وهى تهديد بالاعتداء ؛ أوالوقوف بالقوة فى وجه حرية الدعوة وحرية الاعتقاد . وهو كذلك اعتداء . وفيما عدا هذا فهى السلم والمودة والبر والعدل للناس أجمعين (٢) .

ثم هى القاعدة التى تتفق مع التصور الإسلامى الذى يجعل القضية بين المؤمنين ومخالفيهم هى قضية هذه العقيدة دون غيرها ؛ ويجعل القيمة التى يضن بها المؤمن ويقاتل دونها هى قضية العقيدة وحدها . فليس بينهم وبين الناس مايتخاصمون عليه ويتقاتلون إلا حرية الدعوة وحرية الاعتقاد ،وتحقيق منهج الله فى الأرض ، وإعلاء كلمة الله .

وهذا التوجيه يتفق مع اتجاه السورة كلها إلى إبراز قيمة العقيدة ، وجعلها هى الراية الوحيدة التى يقف تحتها المسلمون. فمن وقف معهم تحتها فهو منهم، ومن قاتلهم فيها فهو عدوهم . ومن سالمهم فتركهم لعقيدتهم ودعوتهم ، ولم يصد الناس عنها ، ولم يحل بينهم وبين سماعها ، ولم يفتن المؤمنين بها ، فهو مسالم لايمنع الإسلام من البر به والقسط معه .

إن المسلم يعيش فى هذه الأرض لعقيدته ، ويجعلها قضيته مع نفسه ومع الناس من حوله. فلا خصومة على مصلحة ، ولا جهاد فى عصبية — أى عصبية — من جنس أوأرض أوعشيرة أو نسب. إنما الجهاد لتكون كلمة الله هى العليا ، ولتكون عقيدته هى المنهج المطبق فى الحياة .

ولقد نزلت بعد ذلك سورة التوبة وفيها « براءة من الله ورسوله إلى الذين عاهدتم من المشركين .. الخ » .. فانتهت بهذا حالة المعاهدة والموادعة بين المسلمين والمشركين كافة . بعد مهلة أربعة أشهر لأصحاب المعاهدات غير المسماة الأجل، ومهلة إلى انتهاء الأجل لأصحاب المعاهدات المسماة . ولكن هذا إنما كان بعد ماأثبتت التجارب أن القوم لايرعون عهودهم مع المسلمين إلا ريثما تسنح لهم الفرصة لنقضها وهم الرابحون ! فانطبقت القاعدة الأخرى : « وإما تخافن من قوم خيانة فانبذ إليهم على سواء إن الله لايحب الخائنين » .. وكان هذا ضرورة لتأمين القاعدة

(١) يراجع فصل : طبيعة السلام فى الإسلام : فى كتاب : السلام العالمى والإسلام .

(٢) يراجع فصل : سلام العالم فى كتاب السلام العالمى والإسلام .

الإسلامية ـ وهى حينئذ شبه الجزيرة كلها ـ من التربصين بالمسلمين من أعدائهم العايشين لهم من المشركين وأهل الكتاب الذين تكررت غدراتهم ونقضهم للعهود . وهى حالة اعتداء فى صميمها . تنطبق عليها حالة الاعتداء . وبخاصة أن الامبراطوريتين المحيطتين بأرض الإسلام قد بدأتا تجمعان له وتشعران بخطره، وتؤلبان عليه الإمارات العربية المتاخمة الخاضعة للدولتين الرومانيةوالفارسية . فلم يبق بد من تطهير المعسكر الإسلامى من بقية أعدائه قبل الالتحام فى المعارك الخارجية المتوقعة يومذاك .

ونكتفى بهذا القدر من الاستطراد لنعود إلى سياق السورة فى حكم المؤمنات المهاجرات :
« ياأيها الذين آمنوا إذا جاءكم المؤمنات مهاجرات فامتحنوهن ، الله أعلم بإيمانهن، فإن علمتموهن مؤمنات فلاترجعوهن إلى الكفار ، لاهن حل لهم ولاهم يحلون لهن ، وآتوهم ماأنفقوا ، ولاجناح عليكم أن تنكحوهن إذا آتيتموهن أجورهن ؛ ولا تمسكوا بعصم الكوافر ، واسألوا ماأنفقتم وليسألوا ماأنفقوا . ذلكم حكم الله يحكم بينكم ، والله عليم حكيم . وإن فاتكم شىء من أزواجكم إلى الكفار فعاقبتم فآتوا الذين ذهبت أزواجهم مثل ما أنفقوا ، واتقوا الله الذى أنتم به مؤمنون » ..

وقد ورد فى سبب نزول هذه الأحكام أنه كان بعد صلح الحديبية الذى جاء فيه : « على ألا يأتيك منا أحد وإن كان على دينك إلارددته إلينا » .. فلما كان الرسول صلى الله عليه وسلم والمسلمون معه بأسفل الحديبية جاءته نساء مؤمنات يطلبن الهجرة والانضمام إلى دارالإسلام فى المدينة، وجاءت قريش تطلب ردهن تنفيذا للمعاهدة . ويظهر أن النص لم يكن قاطعا فى موضوع النساء ، فنزلت هاتان الآيتان تمنعان رد المهاجرات المؤمنات إلى الكفار ، يُفتنّ فى دينهن وهن ضعاف.

ونزلت أحكام هذه الحالة الدولية معها ، تنظم التعامل فيها على أعدل قاعدة تتحرى العدل فى ذاته دون تأثر بسلوك الفريق الآخر ، ومافيها من شطط وجور . على طريقة الإسلام فى كل معاملاته الداخلية والدولية .

وأول إجراء هوامتحان هؤلاء المهاجرات لتحرى سبب الهجرة ، فلا يكون تخلصا من زواج مكروه ، ولاطلبا لمنفعة ، ولاجريا وراء حب فردى فى دار الإسلام !

قال ابن عباس : كان يمتحنهن : بالله ماخرجت من بغض زوج ، وبالله ماخرجت رغبة عن أرض إلى أرض ، وبالله ماخرجت التماس دنيا ، وبالله ماخرجت إلاحبا لله ورسوله .

وقال عكرمة : يقال لها : ماجاءبك إلاحب الله ورسوله ، وماجاءبك عشق رجل منا ، ولافرارا من زوجك .

وهذا هو الامتحان . . وهو يعتمد على ظاهر حالهـن واقرارهن مع الحلف بالله . فأما خفايا الصدور فأمرها إلى الله، لاسبيل للبشر إليها : « الله أعلم بإيمانهن . . فإذا ما أقررن هكذا « فلا ترجعوهن إلى الكفار » . .

« لاهن حل لهم ولا هم يحلون لهن » . .

فقد انبتت الوشيجة الأولى . . وشيجة العقيدة . . فلم تعد هناك وشيجة أخرى يمكن أن تصل هذه القطيعة . والزوجية حالة امتزاج واندماج واستقرار ، لايمكن أن تقوم إذا انقطعت هذه الوشيجة الأولى . والإيمان هو قوام حياة القلب الذى لاتقوم مقامه عاطفة أخرى ، فإذا خوى منه قلب لم يستطع قلب مؤمن أن يتجاوب معه ، ولا أن يأنس به ، ولا أن يواده ولا أن يسكن إليه ويطمئن فى جواره . والزواج مودة ورحمة وأنس وسكن .

وكان الأمر فى أول الهجرة متروكا بغير نص ، فلم يكن يفرق بين الزوجة المؤمنة والزوج الكافر ؛ ولا بين الزوج المؤمن والزوجة الكافرة ، لأن المجتمع الإسلامى لم يكن قد استقرت قواعده بعد. فأما بعد صلح الحديبية — أو فتح الحديبية كما يعتبره كثير من الرواة — فقد آن أن تقع المفاصلة الكاملة ؛ وأن يستقر فى ضمير المؤمنين والمؤمنات ، كما يستقر فى واقعهم ، أن لارابطة إلا رابطة الإيمان ، وأن لا وشيجة إلا وشيجة العقيدة ، وأن لا ارتباط إلا بين الذين يرتبطون بالله .

ومع إجراء التفريق إجراء التعويض — على مقتضى العدل والمساواة — فيرد على الزوج الكافر قيمة ما أنفق من المهر على زوجته المؤمنة التى فارقته تعويضا للضرر . كما يرد على الزوج المؤمن قيمة ما أنفق من المهر على زوجته الكافرة التى يطلقها من عصمته .

وبعد ذلك يحل للمؤمنين نكاح المؤمنات المهاجرات متى آتوهن مهورهن . . مع خلاف فقهى : هل لهن عدة ، أم لاعدة إلا للحوامل حتى يضعهن حملهن ؟ وإذا كانت لهن عدة فهل هى عدة المطلقات . . . ثلاثة قروء . . أم هى عدة استبراء للرحم بحيضة واحدة ؟

« وآتوهن ماأنفقوا ، ولا جناح عليكم أن تنكحوهن إذا آتيتموهن أجورهن . ولا تمسكوا بعصم الكوافر ، واسألوا ما أنفقتم وليسألوا ما أنفقوا »

ثم يربط هذه الأحكام كلها بالضمانة الكبرى فى ضمير المؤمن . ضمانة الرقابة الإلهية وخشية الله وتقواه :

« ذلكم حكم الله يحكم بينكم ، والله عليم حكيم » ..

وهى الضمانة الوحيدة التى يؤمن عليها من النقض والالتواء والاحتيال . فحكم الله ، هو حكم العليم الحكيم . وهو حكم المطلع على ذوات الصدور . وهو حكم القوى القدير. ويكفى أن يستشعر ضمير المسلم هذه الصلة ، ويدرك مصدر الحكم ليستقيم عليه ويرعاه . وهو يوقن أن مرده إلى الله .

فإذا فات المؤمنين شىء مما أنفقوا ، بامتناع الكوافر أو أهلهن من رد حق الزوج المؤمن — كما حدث فى بعض الحالات — عوضهم الإمام مما يكون للكافرين الذين هاجرت زوجاتهم من حقوق على زوجاتهم فى دار الإسلام ، أو مما يقع من مال الكفار غنيمة فى أيدى المسلمين :

« وإن فاتكم شىء من أزواجكم إلى الكفار فعاقبتم فآتوا الذين ذهبت أزواجهم مثل ما أنفقوا » ويربط هذا الحكم وتطبيقاته كذلك بالضمان الذى يتعلق به كل حكم وكل تطبيق :

« واتقوا الله الذى أنتم به مؤمنون » ..

وهى لمسة للمؤمنين بالله عميقة الأثر فى القلوب . .

وهكذا تكون تلك الأحكام بالمفاصلة بين الأزواج تطبيقا واقعيا للتصور الإسلامى عن قيم الحياة وارتباطاتها ؛ وعن وحدة الصف الإسلامى وتميزه من سائر الصفوف ؛ وعن إقامة الحياة كلها على أساس العقيدة ، وربطها كلها بمحور الإيمان ؛ وإنشاء عالم إنسانى تذوب فيه فوارق الجنس واللون واللغة والنسب والأرض . وتبقى شارة واحدة تميز الناس .. شارة الحزب الذى ينتمون إليه .. وهما حزبان اثنان : حزب الله وحزب الشيطان ..

***

ثم بين لرسول الله — صلى الله عليه وسلم — كيف يبايعهن على الإيمان ، هن وغيرهن ممن يردن الدخول فى الإسلام . وعلى أى الأسس يبايعهن :

« يأيها النبى إذا جاءك المؤمنات يبايعنك على ألا يشركن بالله شيئا، ولا يسرقن ، ولا يزنين، ولا يقتلن أولادهن ، ولا يأتين ببهتان يفترينه بين أيديهن وأرجلهن ، ولا يعصينك فى معروف، فبايعهن ، واستغفر لهن الله ، إن الله غفور رحيم » ..

وهذه الأسس هى المقومات الكبرى للعقيدة ،كما أنها مقومات الحياة الاجتماعية الجديدة..

إنهاعدم الشرك بالله إطلاقا .. وعدم إتيان الحدود .. السرقة والزنا.. وعدم قتل الأولاد. إشارة إلى ما كان يجرى فى الجاهلية من وأد البنات ، كما أنه يشمل قتل الأجنة لسبب من الأسباب . . وهن أمينات على ما فى بطونهن . . « ولا يأتين ببهتان يفترينه بين أيديهن وأرجلهن » . .قال ابن عباس : يعنى لايلحقن بأزواجهن غير أولادهن . وكذلك قال مقاتل . ولعل هذا التحفظ ــ بعد المبايعة على عدم الزنا ــ كان للحالات الواقعة فى الجاهلية من أن تبيح المرأة نفسها لعدة رجال ، فإذا جاءت بولد ، نظرت أيهم أقرب به شبها فألحقته به ، وربما اختارتْهى أحسنهم فألحقت به ابنا وهى تعلم من هو أبوه !

وعموم اللفظ يشمل هذه الحالة وغيرها من كل بهتان مزور يُدّعى . ولعل ابن عباس ومقاتل خصصاه بذلك المعنى لمناسبة واقعة وقتذاك .

والشرط الأخير : « ولا يعصينك فى معروف » . . وهو يشمل الوعد بطاعة الرسول ــ صلى الله عليه وسلم ــ فى كل ما يأمرهن به . وهو لايأمر إلا بمعروف . ولكن هذا الشرط هو أحد قواعد الدستور فى الإسلام ، وهو يقرر أن لا طاعة على الرعية لإمام أو حاكم إلا فى المعروف الذى يتفق مع دين الله وشريعته . وأنها ليست طاعة مطلقة لولى الأمر فى كل أمر ! وهى القاعدة التى تجعل قوة التشريع والأمر مستمدة من شريعة الله ، لامن إرادة إمام ولا من إرادة أمة إذا خالفت شريعة الله . فالإمام والأمة كلاهما محكوم بشريعة الله ، ومنها يستمدان السلطات !

فإذا بايعن على هذه الأسس الشاملة قبلت بيعتهن . واستغفر لهن الرسول ــ صلى الله عليه وسلم ــ عما سلف « إن الله غفور رحيم » . . يغفر ويرحم ويقيل العثرات

***

وفى الختام يجىء هذا الإيقاع العام :

« ياأيها الذين آمنوا لاتتولوا قوما غضب الله عليهم ، قد يئسوا من الآخرة كما يئس الكفار من أصحاب القبور » .

يجىء هتافا للذين آمنوا باسم الإيمان ، وبالصفة التى تميزهم عن سائر الأقوام ، إذ تصلهم بالله وتفصلهم عن أعداء الله .

وقد وردت بعض الروايات بأن المقصود بالقوم الذين غضب الله عليهم هم اليهود . استنادا إلى دمغهم بهذه الصفة فى مواضع أخرى من القرآن . ولكن هذا لايمنع من عموم النص ليشمل اليهود والمشركين الذين ورد ذكرهم فى السورة ، وكل أعداء الله . وكلهم غضب عليه الله . وكلهم يائس من الآخرة ، لايعلق بها رجاء ، ولا يحسب لها حسابا كيأس الكفار من الموتى ــ أصحاب القبور ــ لاعتقادهم أن أمرهم انتهى ، وما عاد لهم من بعث ولا حساب .

وهو هتاف يتجمع من كل إيقاعات السورة واتجاهاتها . فتختم به كما بدأت بمثله . ليكون هو الإيقاع الأخير . الذى تترك السورة أصداءه فى القلوب . .

سورة الصف مدنية
وآياتها ١٤

بسم الله الرحمن الرحيم

« سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَاوَاتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ، وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ .

« يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَالَا تَفْعَلُونَ ؟ * كَبُرَ مَقْتاً عِنْدَ ٱللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ * إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُمْ بُنْيَانٌ مَرْصُوصٌ .

« وَ إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ : يَاقَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِي وَقَدْ تَعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ ؟ فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ ، وَٱللَّهُ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلْفَاسِقِينَ .

« وَ إِذْ قَالَ عِيسَىٰ ٱبْنُ مَرْيَمَ : يَابَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ ، مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوْرَاةِ ، وَمُبَشِّراً بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي ٱسْمُهُ أَحْمَدُ ؛ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا : هَٰذَا سِحْرٌ مُبِينٌ .

« وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَىٰ إِلَى ٱلْإِسْلَامِ ؟ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلظَّالِمِينَ * يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ ، وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَافِرُونَ * هُوَ ٱلَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِ ، وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ .

« يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ؟ * تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ، ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ

إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ * يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ، وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ، وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ . ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ * وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا : نَصْرٌ مِنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ ، وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ .

«يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا أَنْصَارَ اللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ : مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ ؟ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ : نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ . فَآمَنَتْ طَائِفَةٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَكَفَرَتْ طَائِفَةٌ ، فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ ، فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ » .

هذه السورة تستهدف أمرين أساسيين واضحين فى سياقها كل الوضوح ، إلى جانب الإشارات والتلميحات الفرعية التى يمكن إرجاعها إلى ذينك الأمرين الأساسيين :

تستهدف أولا أن تقرر فى ضمير المسلم أن دينه هو النهج الإلهى للبشرية فى صورته الأخيرة ، سبقته صور منه تناسب أطوارا معينة فى تاريخ البشرية ، وسبقته تجارب فى حياة الرسل وحياة الجماعات ، تمهد كلها لهذه الصورة الأخيرة من الدين الواحد ، الذى أراد الله أن يكون خاتمة الرسالات ، وأن يظهره على الدين كله فى الأرض ..

ومن ثم يذكر رسالة موسى ليقرر أن قومه الذين أرسل إليهم آذوه وانحرفوا عن رسالته فضلوا ، ولم يعودوا أمناء على دين الله فى الأرض : « وإذ قال موسى لقومه : ياقوم لم تؤذوننى وقد تعلمون أنى رسول الله إليكم . فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم ، والله لا يهدى القوم الفاسقين » .. وإذن فقد انتهت قوامة قوم موسى على دين الله ؛ فلم يعودوا أمناء عليه ، مذ زاغوا فأزاغ الله قلوبهم ، ومذ ضلوا فأضلهم الله والله لا يهدى القوم الفاسقين .

ويذكر رسالة عيسى ليقرر أنه جاء امتدادا لرسالة موسى ، ومصدقا لما بين يديه من التوراة ، وممهدا للرسالة الأخيرة ومبشرا برسولها ؛ ووصلة بين الدين الكتابى الأول والدين الكتابى الأخير : « وإذ قال عيسى ابن مريم : يابنى إسرائيل إنى رسول الله إليكم ، مصدقا لما بين يدى من التوراة ، ومبشرا برسول يأتى من بعدى اسمه أحمد » .. وإذن فقد جاء ليسلم أمانة الدين الإلهى التى حملها بعد موسى إلى الرسول الذى يبشر به .

وكان مقررا فى علم الله وتقديره أن تنتهى هذه الخطوات إلى قرار ثابت دائم ، وأن يستقر دين الله فى الأرض فى صورته الأخيرة على يدى رسوله الأخير : « هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون » ..

هذا الهدف الأول الواضح فى السورة يقوم عليه الهدف الثانى . فإن شعور المسلم بهذه الحقيقة ، وإدراكه لقصة العقيدة ، ولنصيبه هو من أمانتها فى الأرض .. يستتبع شعوره بتكاليف هذه الأمانة شعورا يدفعه إلى صدق النية فى الجهاد لإظهار دينه على الدين كله — كما أراد الله — وعدم التردد بين القول والفعل ؛ ويقبح أن يعلن المؤمن الرغبة فى الجهاد ثم ينكص عنه ، كما يبدو أنه حدث من فريق من المسلمين كما تذكر الروايات . . ومن ثم يجىء فى مطلع السورة بعد إعلان تسبيح الكون ومافيه لله . . « ياأيها الذين آمنوا لم تقولون مالاتفعلون ؟ كبر مقتا عند الله أن تقولوا مالاتفعلون . إن الله يحب الذين يقاتلون فى سبيله صفا كأنهم بنيان مرصوص » .

ثم يدعوهم فى وسط السورة إلى أربح تجارة فى الدنيا والآخرة : « ياأيها الذين آمنوا هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم ؟ تؤمنون بالله ورسوله ، وتجاهدون فى سبيل الله بأموالكم وأنفسكم . ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون . يغفر لكم ذنوبكم ويدخلكم جنات تجرى من تحتها الأنهار ، ومساكن طيبة فى جنات عدن ، ذلك الفوز العظيم . وأخرى تحبونها : نصر من الله وفتح قريب ، وبشر المؤمنين » .

ثم يختم السورة بنداء أخير للذين آمنوا ، ليكونوا أنصار الله كما كان الحواريون أصحاب عيسى أنصاره إلى الله ، على الرغم من تكذيب بنى إسرائيل به وعدائهم لله : « ياأيها الذين آمنوا كونوا أنصار الله كما قال عيسى ابن مريم للحواريين : من أنصارى إلى الله ؟ قال الحواريون : نحن أنصار الله . فآمنت طائفة من بنى إسرائيل وكفرت طائفة ، فأيدنا الذين آمنوا على عدوهم فأصبحوا ظاهرين » ..

هذان الخطان واضحان فى السورة كل الوضوح ، يستغرقان كل نصوصها تقريبا . فلايبقى إلا التنديد بالمكذبين بالرسالة الأخيرة — وهذه قصتها وهذه غايتها — وهذا التنديد متصل دائما بالخطين الأساسيين فيها . وذلك قول الله تعالى ، عن رسول الله — صلى الله عليه وسلم — بعد ذكر تبشير عيسى — عليه السلام — به : « فلما جاءهم بالبينات قالوا : هذا سحر مبين . ومن أظلم ممن افترى على الله الكذب وهو يدعى إلى الإسلام ؟ والله لايهدى القوم الظالمين . يريدون ليطفئوا نور الله بأفواههم ، والله متم نوره ، ولو كره الكافرون » ..

وفيه يتضح فيضمير المسلم أن دينه هو دين الله في صورته الأخيرة في الأرض؛ وأن أمانة العقيدة في البشرية كلها موكولة إليه؛ يعلم أنه مكلف أن يجاهد في سبيل الله، كما يحب الله؛ ويتضح طريقه، فلا يبقى في تصوره غبش،. ولا يبقى في حياته مجال للتمتمة والغمغمة في هـذه القضية، أو للتردد والتلفت عن الهدف المرسوم والنصيب المقسوم في علـم الله وتقديره منذ بعيد.

وفيأثناء توجيهه إلىهذا الهدفالواضح يوجه كذلك إلى خلق المسلم وطبيعة ضميره. وهو أن لايقول مالايفعل، وألايختلف له قول وفعل، ولاظاهر وباطن، ولاسريرة وعلانية. وأن يكون هو نفسه في كل حال. متجردا لله. خالصا لدعوته. صريحا في قوله وفعله. ثابت الخطو في طريقه. متضامنا مع إخوانه. كالبنيان المرصوص..

***

« سبح لله مافي السماوات ومافي الأرض وهو العزيز الحـكيم » . .

تجيء هـذه التسبيحة من الوجود كله لله العزيز الحـكيم، في مطلع السورة التي تعلن للمسلمين أن دينهم هو الحلقة الأخيرة في دين الله؛ وأنهم هم الأمناء على هذا الدين الذي يوحد الله، وينكر على الـكافرين المشركين كفرهم وشركهم، والذي يدعوهم للجهاد لنصرته، وقدقدر الله أن يظهره على الدين كله ولو كره المشركون. فيوحي هذا المطلع أن الأمانة التي يقوم عليها المسلمون هي أمانة الوجود كله؛ وأن العقيدة التي يطلب إليهم الجهـاد فيهـا هي عقيدة كل ما في السماوات وما في الأرض؛ وأن ظهور هذا الدين على الدين كله، هو ظاهرة كونية تتسق مع اتجاه الـكون كله إلى الله العزيز الحـكيم.

***

ثم يعاتب الله الذين آمنوا عتابا شـديدا على أمر حدث من طائفة منهم. أمر يـكرهه الله أشد الـكره، ويمقته أكبر المقت، ويستفظعه من الذين آمنوا على وجه الخصوص:

« ياأيهـا الذين آمنوا لم تقولون مالا تفعلون؟ كبر مقتا عند الله أن تقولوا مالا تفعلون. إن الله يحب الذين يقاتلون في سبيله صفا، كأنهم بنيان مرصوص » . .

قال علي ابن طلحة عن ابن عبـاس قال: كان ناس من المؤمنـين قبل أن يفرض الجهاد يقولون: لوددنا أن الله عز وجل دلنا على أحب الأعمال إليـه، فنعمل به، فأخبر الله نبيه أن

أحب الأعمال إيمان به لاشك فيه ، وجهاد أهل معصيته الذين خالفوا الإيمان ولم يقروا به . فلما نزل الجهاد كره ذلك ناس من المؤمنين ، وشق عليهم أمره ، فقال الله سبحانه وتعالى : « ياأيها الذين آمنوا لم تقولون مالا تفعلون ؟ كبر مقتا عند الله أن تقولوا مالا تفعلون. . . . » .. وقد اختار ابن جرير فى تفسيره هذا القول .

وقال ابن كثير فى تفسيره : « وحملوا الآية ـ يعنى الجمهور ـ على أنها نزلت حين تمنوا فريضة الجهاد عليهم ، فلما فرض نكل عنه بعضهم ، كقوله تعالى : « ألم تر إلى الذين قيل لهم : كفوا أيديكم وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة ، فلما كتب عليهم القتال إذا فريق منهم يخشون الناس كخشية الله أو أشد خشية . وقالوا : ربنا لم كتبت علينا القتال ؟ لولا أخرتنا إلى أجل قريب ! قل :متاع الدنيا قليل والآخرة خير لمن اتقى ولا تظلمون فتيلا .أينما تكونوا يدرككم الموت ، ولو كنتم فى بروج مشيدة » . .

وقال قتادة والضحاك نزلت توبيخا لقوم كانوا يقولون : قتلنا . ضربنا . طعنا . وفعلنا ... ولم يكونوا فعلوا ذلك !

والراجح من سياق الآيات وذكر القتال أن مناسبة النزول هى التى عليها الجمهور وهى اختيار ابن جرير . ولكن النصوص القرآنية دائما أبعد مدى من الحوادث المفردة التى تنزل الآيات لمواجهتها، وأشمل لحالات كثيرة غير الحالة التى نزلت بسببها . ومن ثم فإننا نسير مع هذه النصوص إلى مدلولاتها العامة ، مع اعتبار الحادث الذى تذكره روايات النزول .

إنها تبدأ بعتاب على حادث وقع أو حوادث :

« ياأيها الذين آمنوا لم تقولون مالا تفعلون ؟ »

وتثنى باستنكار لهذا الفعل وهذا الخلق فى صيغة تضخم هذا الاستنكار :

« كبر مقتا عند الله أن تقولوا مالا تفعلون ! » ..

والمقت الذى يكبر « عند الله » . . هو أكبر المقت وأشد البغض وأنكر النكر . . وهذا غاية التفظيع لأمر ، وبخاصة فى ضمير المؤمن ، الذى يُنادَى بإيمانه ، والذى يناديه ربه الذى آمن به .

والآية الثالثة تشير إلى الموضوع المباشر الذى قالوا فيه مالم يفعلوا . . وهو الجهاد . . وتقرر مايحبه الله فيه ويرضاه :

« إن الله يحب الذين يقاتلون فى سبيله صفا كأنهم بنيان مرصوص » . .

فليس هو مجرد القتال . ولكنه هو القتال فى سبيله . والقتال فى تضامن مع الجماعة المسلمة داخل الصف . والقتال فى ثبات وصمود « صفا كأنهم بنيان مرصوص » . .

* * *

إن القرآن — كما قلنا فى مناسبات متعددة فى هذا الجزء — كان يبنى أمة . كان يبنيها لتقوم على أمانة دينه فى الأرض ، ومنهجه فى الحياة ، ونظامه فى الناس . ولم يكن بد أن يبنى نفوسها أفرادا ويبنيها جماعة ، ويبنيها عملا واقعا . . كلها فى آن واحد . . فالمسلم لايبنى فردا إلا فى جماعة . ولا يتصور الإسلام قائما إلا فى محيط جماعة منظمة ذات ارتباط ، وذات نظام ، وذات هدف جماعى منوط فى الوقت ذاته بكل فرد فيها . هو إقامة هذا المنهج الإلهى فى الضمير وفى العمل مع إقامته فى الأرض . وهو لا يقوم فى الأرض إلا فى مجتمع يعيش ويتحرك ويعمل وينتج فى حدود ذلك المنهج الإلهى .

والإسلام على شدة ماعنى بالضمير الفردى وبالتبعة الفردية — ليس دين أفراد منعزلين ، كل واحد منهم يعبد الله فى صومعة . . إن هذا لا يحقق الإسلام فى ضمير الفرد ذاته ، ولا يحققه بطبيعة الحال فى حياته . ولم يجىء الإسلام لينعزل هذه العزلة . إنما جاء ليحكم حياة البشرية ويصرفها . ويهيمن على كل نشاط فردى وجماعى فى كل اتجاه . والبشرية لاتعيش أفرادا إنما تعيش جماعات وأمما . والإسلام جاء ليحكمها وهى كذلك . وهو مبنى على أساس أن البشر يعيشون هكذا . ومن ثم فإن آدابه وقواعده ونظمه كلها مصوغة على هذا الأساس . وحين يوجه اهتمامه إلى ضمير الفرد فهو يصوغ هذا الضمير على أساس أنه يعيش فى جماعة . وهو والجماعة التى يعيشون فيها يتجهون إلى الله ، ويقوم — فيها — على أمانة دينه فى الأرض ، ومنهجه فى الحياة ، ونظامه فى الناس .

ومنذ اليوم الأول للدعوة قام مجتمع إسلامى — أو جماعة مسلمة — ذات قيادة مطاعة هى قيادة رسول الله — صلى الله عليه وسلم — وذات التزامات جماعية بين أفرادها ، وذات كيان يميزها عن سائر الجماعات حولها ، وذات آداب تتعلق بضمير الإنسان مراعى فيها — فى الوقت ذاته — حياة هذه الجماعة . . وذلك كله قبل أن تقوم الدولة المسلمة فى المدينة . بل إن قيام تلك الجماعة كان هو وسيلة إقامة الدولة فى المدينة . .

* * *

ونظر فى هذه الآيات الثلاث فنرى امتزاج الخلق الفردى بالحاجة الجماعية ، فى ظل العقيدة الدينية ، وطبيعتها التى تقتضى تحقيقها فى الحياة البشرية فى صورة نظام يقوم عليه من يحرسه ويتولاه .

إن الآيتين الأوليين تتضمنان العقاب من الله سبحانه والاستنكار لأن يقول الذين آمنوا ما لا يفعلون ..

وهما بهذا ترسمان الجانب الأصيل فى شخصية المسلم . . الصدق . والاستقامة . وأن يكون باطنه كظاهره ، وأن يطابق فعله قوله .. إطلاقا .. وفى حدود أبعد مدى من موضوع القتال الذى يجىء فى الآية الثالثة .

وهذه السمة فى شخصية المسلم يدق القرآن عليها كثيرا ، وتتابعها السنة فى تكرار يزيدها توكيدا : يقول الله تعالى منددا باليهود : « أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم وأنتم تتلون الكتاب. أفلاتعقلون ؟ » .. ويقول تعالى منددا بالمنافقين : « ويقولون : طاعة . فإذا برزوا من عندك بيت طائفة منهم غير الذى تقول » .. ويقول فيهم كذلك: «ومن الناس من يعجبك قوله فى الحياة الدنيا ويشهد الله على مافى قلبه وهو ألد الخصام ، وإذا تولى سعى فى الأرض ليفسد فيها ويهلك الحرث والنسل والله لايحب الفساد » . . ويقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : « آية المنافق ثلاث : إذا حدث كذب ، وإذا وعد أخلف ، وإذا اؤتمن خان [1]» . والأحاديث فى هذا المعنى كثيرة . ولعل الحديث الذى سنذكره هنا من أدق وألطف التوجيهات النبوية الكريمة فى هذا الاتجاه . . روى الإمام أحمد وأبو داود عن عبد الله ابن عامر ابن ربيعة قال : أتانا رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وأنا صبى ، فذهبت لأخرج لألعب . فقالت أمى : ياعبد الله تعال أعطك. فقال لها رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : «وما أردت أن تعطيه؟» قالت : تمرا . فقال : « أما إنك لولم تفعلى كتبت عليك كذبة » . . ولعله استقاء من هذا النبع النبوى الطاهر الرائق امتنع الإمام أحمد ابن حنبل ـ رضى الله عنه ـ من الرواية من رجل سافر إليه مسافات شاسعة ليأخذ عنه حديثا . حينما وجده يضم حجره ويدعو بغلته يوهمها بطعام وحجره فارغ ! فتحرج أن يروى عنه ، وقد كذب على بغلته !

فهذا بناء أخلاقى دقيق نظيف لضمير المسلم وشخصيته التى تليق بمن يقوم أمينا على منهج

(١) رواه الشيخان والترمذى والنسائى عن أبى هريرة

الله فى الأرض. وهو الأمر الذى تقرره هذه السورة. وهذه حلقة من حلقات التربية فى الجماعة المسلمة التى يعدها الله لتقوم على هذا الأمر .

فإذا جئنا للموضوع المباشر الذى كانت هذه الآيات تواجهه عند نزولها . . وهو موضوع الجهاد . . فإننا نقف أمام موضوعات شتى للحديث والملاحظة والعبرة .

نقف أولا أمام النفس البشرية التى تلم بها لحظات الضعف الطارئة، فلا يعصمها منها إلا عون الله ، وإلا التذكير الدائم ، والتوجيه الدائم ، والتربية الدائمة ..فهؤلاء جماعة من المسلمين قيل فى بعض الروايات : إنهم من المهاجرين الذين كانوا يتمنون أن يأذن الله لهم فى القتال وهم فى مكة من شدة الحماس والاندفاع . وكانوا يؤمرون بكف أيديهم وإقامة الصلاة وايتاء الزكاة « فلما كتب عليهم القتال » فى المدينة فى الوقت المناسب الذى قدره الله « إذا فريق منهم يخشون الناس كخشية الله أو أشد خشية ، وقالوا : ربنا لم كتبت علينا القتال ؟ لولا أخرتنا إلى أجل قريب! » ..أو هم جماعة من المسلمين فى المدينة كانوا يسألون عن أحب الأعمال إلى الله ليفعلوه فلما أمروا بالجهاد كرهوه !

وهذه الوقفة كفيلة بأن تفتح أعيننا على ضرورة الموالاة للنفس البشرية بالتقوية والتثبيت والتوجيه ؛ وهى تواجه التكاليف الشاقة ، لتستقيم فى طريقها ، وتتغلب على لحظات ضعفها ، وتتطلع دائما إلى الأفق البعيد . كما تلهمنا أن نتواضع فى طلب التكاليف وتمنيها ونحن فى حالة العافية ! فلعلنا لا نقوى على ما نقترح على الله حين يكلفنا إياه ! وهؤلاء جماعة من المسلمين الأوائل يضعفون ويقولون مالا يفعلون،حتى يعاتبهم الله هذا العتاب الشديد ، وينكر عليهم هذا الإنكار المخيف !

ونقف ثانية أمام حب الله للذين يقاتلون فى سبيله صفا كأنهم بنيان مرصوص . . نقف أمام هذا الإغراء القوى العميق على القتال فى سبيل الله . . وأول مايسجل هنا أنه كان لمواجهة حالة تقاعس وتخلف وكراهية للقتال. ولكن هذا السبب الغريب فى الحادث المحدود لاينفى أن الحض عام ، وأن وراءه حكمة دائمة .

إن الإسلام لايتشهى القتال ،ولا يريده حبا فيه . ولكنه يفرضه لأن الواقع يحتمه ، ولأن الهدف الذى وراءه كبير . فالإسلام يواجه البشرية بالمنهج الإلهى فى صورته الأخيرة المستقرة . وهذا المنهج ـولو أنه يلبى الفطرة المستقيمة ـإلا أنه يكلف النفوس جهدا لتسمو إلى مستواه،

ولتستقر على هذا المستوى الرفيع . وهناك قوى كثيرة فى هذه الأرض لا تحب لهذا المنهج أن يستقر ، لأنه يسلبها كثيرا من الامتيازات ، التى تستند إلى قيم باطلة زائفة ، يحاربهاهذا المنهج ويقضى عليها حين يستقر فى حياة البشر . وهذه القوى تستغل ضعف النفوس عن البقـاء فى المستوى الإيمانى وتـكاليفه ، كما تستغل جهل العقول ، وموروثات الأجيـال ، لتعارض هذا المنهج وتقف فى طريقه . والشر عارم . والباطل متبجح . والشيطان لئيم ! ومن ثم يتعين على حملة الإيمان وحراس المنهج أن يـكونوا أقوياء ليغلبوا عملاء الشر وأعوان الشيطان . أقوياء فى أخلاقهم، وأقوياء فى قتال خصومهم على السواء. ويتعين عليهم أن يقاتلوا عندمايصبح القتال هو الأداة الوحيدة لضمان حرية الدعوة للمنهج الجديد ، وحرية الاعتقاد به ، وحرية العمل وفق نظامه المرسوم .

وهم يقاتلون فى سبيل الله . . لافى سبيل ذواتهم أو عصبيتهم من أى لون . .عصبية الجنس وعصبية الأرض وعصبية العشيرة وعصبية البيت . . . فى سبيل الله وحده ، لتـكون كلمـة الله هى العليا . والرسول ــ صلى الله عليه وسلم ــ يقول : « من قاتل لتـكون كلمة الله هى العليا فهو فى سبيل الله » (١)

وكلمة الله هى التعبير عن إرادته . وإرادته الظاهرة لنا ــ نحن البشر ــ هى التى تتفق مع الناموس الذى يسير عليه الـكون كله . الـكون الذى يسبح بحمد ربه . ومنهج الله فى صورته الأخيرة التى جاء بها الإسلام هو الذى يتناسق مع ذلك الناموس ؛ ويجعل الـكون كله ــ والناس من ضمنه ــ يحكمون بشريعة الله . لا بشريعة يضعها سواه .

ولم يكن بد أن يقاومه أفراد ، وأن تقاومه طبقات، وأن تقاومه دول . ولم يكن بد كذلك أن يمضى الإسلام فى وجه هذه المقاومة ؛ ولم يكن بد أن يكتب الجهاد على المسلمين لنصرة هذا المنهج ، وتحقيق كلمة الله فى الأرض . ولهذا أحب الله ــ سبحانه ــ الذين يقاتلون فى سبيله صفا كأنهم بنيان مرصوص (٢) .

ونقف ثالثا أمام الحالة التى يحب الله للمجاهدين أن يقاتلوا وهم عليها : « صفا كأنهم بنيان مرصوص » .. فهو تـكليف فردى فى ذاته ، ولـكنه فردى فى صورة جماعية . فى جماعة ذات

---

(١) أخرجه الخمسة .

(٢) يراجع فصل سلام العالم فى كتاب : السلام العالمى والإسلام .

نظام ذلك أن الذين يواجهون الإسلام يواجهونه بقوى جماعية ، ويؤلبون عليه تجمعات ضخمة ؛ فلا بد لجنود الإسلام أن يواجهوا أعداءه صفا . صفا سويا منتظما ، وصفا متينا راسخا ذلك إلى أن طبيعة هذا الدين حين يغلب ويهيمن أن يهيمن على جماعة ، وأن ينشىء مجتمعا متماسكا . متناسقا . فصورة الفرد المنعزل الذى يعبد وحده ، ويجاهد وحده ، ويعيش وحده ، صورة بعيدة عن طبيعة هذا الدين ، وعن مقتضياته فى حالة الجهاد ، وفى حالة الهيمنة بعد ذلك على الحياة.

وهذه الصورة التى يحبها الله للمؤمنين ترسم لهم طبيعة دينهم ، وتوضح لهم معالم الطريق ، وتكشف لهم عن طبيعة التضامن الوثيق الذى يرسمه التعبير القرآنى المبدع : « صفا كأنهم بنيان مرصوص » . . بنيان تتعاون لبناته وتتضام وتتماسك ، وتؤدى كل لبنة دورها ، وتسد ثغرتها ، لأن البنيان كله ينهار إذا تخلت منه لبنة عن مكانها . تقدمت أو تأخرت سواء. وإذا تخلت منه لبنة عن أن تمسك بأختها تحتها أو فوقها أو على جانبها سواء .. إنه التعبير المصور للحقيقة لا لمجرد التشبيه العام . التعبير المصور لطبيعة الجماعة ، ولطبيعة ارتباطات الأفراد فى الجماعة . ارتباط الشعور ، وارتباط الحركة ، داخل النظام المرسوم ، المتجه إلى هدف مرسوم .

* * *

بعدئذ يذكر قصة هذا المنهج الإلهى ومراحلها فى الرسالات قبل الإسلام .

« وإذ قال موسى لقومه : ياقوم لم تؤذوننى وقد تعلمون أنى رسول الله إليكم ؟ فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم ، والله لايهدى القوم الفاسقين .

« وإذ قال عيسى ابن مريم : يابنى إسرائيل إنى رسول الله إليكم مصدقا لما بين يدى من التوراة ومبشرا برسول يأتى من بعدى اسمه أحمد » ..

وإيذاء بنى إسرائيل لموسى ـ وهو منقذهم من فرعون وملئه ، ورسولهم وقائدهم ومعلمهم ـ إيذاء متطاول متعدد الألوان ، وجهاده فى تقويم اعوجاجهم جهاد مضن عسير شاق . ويذكر القرآن فى قصص بنى إسرائيل صورا شتى من ذلك الإيذاء ومن هذا العناء .

كانوا يتسخطون على موسى وهو يحاول مع فرعون إنقاذهم ، ويتعرض لبطشه وجبروته وهم آمنون بذلتهم له ! فكانوا يقولون له لأعين متبرمين : « أوذينا من قبل أن تأتينا ومن بعد ماجئتنا » ! كأنهم لايرون فى رسالته خيرا ، أو كأنما يحملونه تبعة هذا الأذى الأخير !

وما كاد ينقذهم من ذل فرعون باسم الله الواحد الذى أنقذهم من فرعون وأغرقه وهم

ينظرون . . حتى مالوا إلى عبادة فرعون وقومه .. « حتى إذا أتوا على قوم يعكفون على أصنام لهم قالوا : اجعل لنا إلها كما لهم آلهة » ..

وما كاد يذهب لميقات ربه على الجبل ليتلقى الألواح ، حتى أضلهم السامرى : « فأخرج لهم عجلا جسدا له خوار فقالوا : هذا إلهكم وإله موسى فنسى ! » . .

ثم جعلوا يتسخطون على طعامهم فى الصحراء : المن والسلوى . فقالوا : « ياموسى لن نصبر على طعام واحد فادع لنا ربك يخرج لنا مما تنبت الأرض من بقلها وقثائها وفومها وعدسها وبصلها » !

وفى حادث البقرة التى كلفوا ذبحها ظلوا يماحكون ويتعللون ويسيئون الأدب مع نبيهم وربهم وهم يقولون : « ادع لنا ربك يبين لنا ماهى » .. « ادع لنا ربك يبين لنا ما لونها » .. « ادع لنا ربك يبين لنا ماهى إن البقر تشابه علينا » . . « فذبحوها وما كادوا يفعلون » !

ثم طلبوا يوم عطلة مقدسا فلما كتب عليهم السبت اعتدوا فيه .

وأمام الأرض المقدسة التى بشرهم الله بدخولها وقفوا متخاذلين يصعرون خدهم فى الوقت ذاته لموسى « : قالوا ياموسى إن فيها قوما جبارين ، وإنا لن ندخلها حتى يخرجوا منها فإن يخرجوا منها فإنا داخلون » .. فلما كرر عليهم التحضيض والتشجيع تبجحوا وكفروا :«قالوا ياموسى إنالن ندخلها أبدا ماداموا فيها فاذهب أنت وربك فقاتلا إنا هاهنا قاعدون» ..

ذلك إلى إعنات موسى بالأسئلة والاقتراحات والعصيان والتمرد ، والاتهام الشخصى بالباطل كما جاء فى بعض الأحاديث .

وتذكر الآية هنا قول موسى لهم فى عتاب ومودة :

« ياقوم لم تؤذوننى وقد تعلمون أنى رسول الله إليكم ؟ » . .

وهم كانوا يعلمون عن يقين .. إنما هى لهجة العتاب والتذكير ..

وكانت النهاية أنهم زاغوا بعد مابذلت لهم كل أسباب الاستقامة ، فزادهم الله زيغا ،وأزاغ قلوبهم فلم تعد صالحة للهدى . وضلوا فكتب الله عليهم الضلال أبدا : « والله لايهدى القوم الفاسقين» ..

وبهذا انتهت قوامتهم على دين الله ، فلم يعودوا يصلحون لهذا الأمر ، وهم على هذا الزيغ والضلال .

ثم جاء عيسى ابن مريم . جاء يقول لبنى إسرائيل :

« يابنى إسرائيل إنى رسول الله إليكم » ..

فلم يقل لهم : إنه الله ، ولا إنه ابن الله ، ولا إنه أقنوم من أقانيم الله .

« مصدقا لما بين يدى من التوراة ومبشرا برسول يأتى من بعدى اسمه أحمد » ..

فى هذه الصيغة التى تصور حلقات الرسالة المترابطة ، يسلم بعضها إلى بعض ، وهى متماسكة فى حقيقتها ، واحدة فى اتجاهها ، ممتدة من السماء إلى الأرض ، حلقة بعد حلقة فى السلسلة الطويلة المتصلة .. وهى الصورة اللائقة بعمل الله ومنهجه . فهو منهج واحد فى أصله ، متعدد فى صوره ، وفق استعداد البشرية وحاجاتها وطاقاتها ، ووفق تجاربها ورصيدها من المعرفة حتى تبلغ مرحلة الرشد العقلى والشعورى ، فتجىء الحلقة الأخيرة فى الصورة الأخيرة كاملة شاملة ، تخاطب العقل الراشد ، فى ضوء تلك التجارب ، وتطلق هذا العقل يعمل فى حدوده ، داخل نطاق المنهج المرسوم للإنسان فى جملته ، المتفق مع طاقاته واستعداداته .

وبشارة المسيح بأحمد ثابتة بهذا النص ، سواء تضمنت الأناجيل المتداولة هذه البشارة أم لم تتضمنها . فثابت أن الطريقة التى كتبت بها هذه الأناجيل والظروف التى أحاطت بها لا تجعلها هى المرجع فى هذا الشأن .

وقد قرىء القرآن على اليهود والنصارى فى الجزيرة العربية وفيه: «النبى الأمى الذى يجدونه مكتوبا عندهم فى التوراة والإنجيل » . . وأقر بعض المخلصين من علمائهم الذين أسلموا كعبد الله ابن سلام بهذه الحقيقة ، التى كانوا يتواصون بتكتمها !

كما أنه ثابت من الروايات التاريخية أن اليهود كانوا ينتظرون مبعث نبى قد أظلهم زمانه ، وكذلك بعض الموحدين المنعزلين من أحبار النصارى فى الجزيرة العربية . ولكن اليهود كانوا يريدونه منهم . فلما شاء الله أن يكون من الفرع الآخر من ذرية إبراهيم ، كرهوا هذا وحاربوه !

وعلى أية حال فالنص القرآنى بذاته هو الفيصل فى مثل هذه الأخبار . وهو القول الأخير ..

***

ويبدو أن الآيات التالية فى السورة جاءت على الأكثر بصدد استقبال بنى إسرائيل — اليهود والنصارى — للنبى الذى بشرت به كتبهم . والتنديد بهذا الاستقبال ، وكيدهم للدين الجديد الذى قدر الله أن يظهره على الدين كله ، وأن يكون هو الدين الأخير !

« فلما جاءهم بالبينات قالوا : هذا سحر مبين . ومن أظلم ممن افترى على الله الكذب وهو يدعى إلى الإسلام ؟ والله لا يهدى القوم الظالمين ، يريدون ليطفئوا نور الله بأفواههم، والله متم نوره ولو كره الكافرون . هو الذى أرسل رسوله بالهدى، ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون » .

ولقد وقف بنو إسرائيل فى وجه الدين الجديد وقفة العداء والكيد والتضليل ، وحاربوه بشتى الوسائل والطرق حربا شعواء لم تضع أوزارها حتى اليوم . حاربوه بالاتهام : « فلما جاءهم بالبينات قالوا : هـذا سحر مبين » . . كما قال الذين لا يعرفون الكتب ولا يعرفون البشارة بالدين الجـديد . وحاربوه بالدس والوقيعة داخل المعسكر الإسـلامى ، للإيقاع بين المهاجرين والأنصار فى المدينة ، وبين الأوس والخزرج من الأنصار . وحاربوه بالتآمر مع المنافقين تارة ومع المشركين تارة . وحاربوه بالانضمام إلى معسكرات المهاجمين كما وقع فى غزوة الأحزاب .وحاربوه بالإشاعات الباطلة كما جرى فى حديث الإفك على يد عبد الله ابن أبى ابن سلول ، ثم ماجرى فى فتنة عثمان على يد عدو الله عبد الله ابن سبأ . وحاربوه بالأكاذيب والإسرائيليات التى دسوها فى الحـديث وفى السيرة وفى التفسير — حين عجـزوا عن الوضع والكذب فى القرآن الكريم .

ولم تضع الحرب أوزارها لحظة واحدة حتى اللحظة الحاضرة . فقد دأبت الصهيونية العالمية والصليبية العالمية على الكيد للإسلام ،وظلتا تغيران عليه أوتؤلبان عليه فى غير وناة ولاهدنة فى جيل من الأجيال . حاربوه فى الحروب الصليبية فى المشرق ، وحاربوه فى الأندلس فى المغرب، وحاربوه فى الوسط فى دولة الخلافة الأخيرة حربا شعواء حتى مزقوها وقسموا تركة ما كانوا يسمونه « الرجل المريض » . . واحتاجوا أن يخلقوا أبطالا مزيفين فى أرض الإسلام يعملون لهم فى تنفيذ أحقادهم ومكايدهم ضد الإسلام . فلما أرادوا تحطيم « الخلافة » والإجهاز على آخر مظهر من مظاهر الحكم الإسلامى صنعوا فى تركيا « بطلا » ! . . ونفخوا فيه . وتراجعت جيوش الحلفاء التى كانت تحتل الأستانة أمامه لتحقق منه بطلا فى أعين مواطنيه . بطلا يستطيع إلغاء الخلافة ، وإلغاء اللغة العربية ، وفصل تركيا عن المسلمين ، وإعلانها دولة مدنية لا علاقة لها بالدين ! وهم يـكررون صنع هـذه البطولات المزيفة كلما أرادوا أن يضربوا الإسلام والحركات الإسلامية فى بلد من بلاد المسلمين ، ليقيموا مكانه عصبية غير عصبية الدين ! وراية غير راية الدين .

« يريدون ليطفئوا نور الله بأفواههم . والله متم نوره ولو كره الكافرون » . .

وهـذا النص القرآني يعبر عن حقيقة ، ويرسم في الوقت ذاته صورة تدعو إلى الرثاء والاستهزاء ! فهي حقيقة أنهم كانوا يقولون بأفواههم : « هذا سحر مبين » . . ويدسون ويكيدون محاولين القضاء على الدين الجديد . وهي صورة بائسة لهم وهم يحاولون إطفاء نور الله بنفخة من أفواههم وهم هم الضعاف المهازيل !

« والله متم نوره ولو كره الكافرون » . . وصدق وعد الله . أتم نوره في حياة الرسول - صلى الله عليه وسلم - فأقام الجماعة الإسلامية صورة حية واقعة من النهج الإلهي المختار . صورة ذات معالم واضحة وحدود مرسومة ، ترسمها الأجيال لانظرية في بطون الكتب ، ولكن حقيقة في عالم الواقع . وأتم نوره فأكمل للمسلمين دينهم وأتم عليهم نعمته ورضي لهم الإسلام دينا يحبونه ، ويجاهدون في سبيله ، ويرضى أحدهم أن يلقى في النار ولا يعود إلى الكفر . فتمت حقيقة الدين في القلوب وفي الأرض سواء . وما تزال هذه الحقيقة تنبعث بين الحين والحين ، وتنبض وتنتفض قائمة - على الرغم من كل ما جرد على الإسلام والمسلمين من حرب وكيد وتنكيل وتشريد وبطش شديد . لأن نور الله لايمكن أن تطفئه الأفواه ، ولا أن تطمسه كذلك النار والحديد ، في أيدي العبيد ! وإن خيل للطغاة الجبارين ، وللأبطال المصنوعين على أعين الصليبيين واليهود أنهم بالغو هذا الهدف البعيد !

لقد جرى قدر الله أن يظهر هذا الدين ، فكان من الحتم أن يكون :

« هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ، ولو كره المشركون » . .

وشهادة الله لهذا الدين بأنه « الهدى ودين الحق » هي الشهادة . وهي كلمة الفصل التي ليس بعدها زيادة . ولقد تمت إرادة الله فظهر هذا الدين على الدين كله . ظهر في ذاته كدين ، فما يثبت له دين آخر في حقيقته وفي طبيعته . فأما الديانات الوثنية فليست في شيء في هذا المجال . وأما الديانات الكتابية فهذا الدين خاتمها ، وهو الصورة الأخيرة الكاملة الشاملة منها ، فهو هي ، في الصورة العليا الصالحة إلى نهاية الزمان .

ولقد حرفت تلك الديانات وشوهت ومزقت وزيد عليها ماليس منها ، ونقصت من أطرافها ، وانتهت لحال لاتصلح معه لشيء من قيادة الحياة . وحتى لو بقيت من غير تحريف ولا تشويه فهي نسخة سابقة لم تشمل كل مطالب الحياة المتجددة أبدا ، لأنها جاءت في تقدير الله لأمد محدود .

فهذا تحقيق وعد الله من ناحية طبيعة الدين وحقيقته . فأما من ناحية واقع الحياة ، فقد صدق وعد الله مرة ؛ فظهر هذا الدين قوة وحقيقة ونظام حكم على الدين كله فدانت له معظم الرقعة المعمورة فى الأرض فى مدى قرن من الزمان . ثم زحف زحفا سلميا بعد ذلك إلى قلب آسيا وأفريقية ، حتى دخل فيه بالدعوة المجردة خمسة أضعاف من دخلوا فى إبان الحركات الجهادية الأولى . . وما يزال يمتد بنفسه دون دولة واحدة ـ منذ أن قضت الصهيونية العالمية والصليبية العالمية على الخلافة الأخيرة فى تركيا على يدى « البطل » الذى صنعوه ! ـ وعلى الرغم من كل ما يرصد له فى أنحاء الأرض من حرب وكيد ، ومن تحطيم للحركات الإسلامية الناهضة فى كل بلد من بلاد الإسلام على أيدى « أبطال » آخرين من صنع الصهيونية العالمية والصليبية العالمية على السواء.

وما تزال لهذا الدين أدوار فى تاريخ البشرية يؤديها ،ظاهرا بإذن الله على الدين كله تحقيقا لوعد الله ، الذى لاتقف له جهود العبيد المهازيل ، مهما بلغوا من القوة والكيد والتضليل !

ولقد كانت تلك الآيات حافزا للمؤمنين المخاطبين بها على حمل الأمانة التى اختارهم الله لها بعد أن لم يرعها اليهود والنصارى . وكانت تطمينا لقلوبهم وهم ينفذون قدر الله فى إظهار دينه الذى أراده ليظهر ، وإن هم إلا أداة . وما تزال حافزا ومطمئنا لقلوب المؤمنين الواثقين بوعد ربهم ، وستظل تبعث فى الأجيال القادمة مثل هذه المشاعر حتى يتحقق وعد الله مرة أخرى فى واقع الحياة . بإذن الله .

* * *

وفى ظلال قصة العقيدة، وفى مواجهة وعد الله بالتمكين لهذا الدين الأخير ، يهتف القرآن الكريم بالذين آمنوا . . من كان يواجه ذلك الخطاب ومن يأتى بعدهم من المؤمنين إلى يوم الدين . . يهتف بهم إلى أربح تجارة فى الدنيا والآخرة . تجارة الإيمان بالله والجهاد فى سبيل الله :

« ياأيها الذين آمنوا هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم . تؤمنون بالله ورسوله وتجاهدون فى سبيل الله بأموالكم وأنفسكم . ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون . يغفر لكم ذنوبكم ويدخلكم جنات تجرى من تحتها الأنهار ومساكن طيبة فى جنات عدن ، ذلك الفوز العظيم . وأخرى تحبونها : نصر من الله وفتح قريب ، وبشر المؤمنين » . .

وصيغة التعبير بما فيها من فصل ووصل ، واستفهام وجواب ، وتقديم وتأخير، صيغة ظاهر فيها القصد إلى إقرار هذا الهتاف فى القلوب بكل وسائل التأثير التعبيرية .

يبدأ بالنداء باسم الإيمان : « يأيها الذين آمنوا » . . يليه الاستفهام الموحى . فالله سبحانه ـ هو الذى يسألهم ويشوقهم إلى الجواب : « هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم؟ » . .

ومن ذا الذى لايشتاق لأن يدله الله على هذه التجارة ؟ وهنا تنتهى هذه الآية ، وتنفصل الجملتان للتشويق بانتظار الجواب المرموق . ثم يجىء الجواب وقد ترقبته القلوب والأسماع : « تؤمنون بالله ورسوله » . . وهم مؤمنون بالله ورسوله . فتشرق قلوبهم عند سماع شطر الجواب هذا المتحقق فيهم ! « وتجاهدون فى سبيل الله بأموالكم وأنفسكم » . . وهو الموضوع الرئيسى الذى تعالجه السورة ، يجىء فى هذا الأسلوب، ويكرر هذا التكرار ، ويساق فى هذا السياق. فقد علم الله أن النفس البشرية فى حاجة إلى هذا التكرار ، وهذا التنويع ، وهذه الموحيات، لتنهض بهذا التكليف الشاق ، الضرورى الذى لامفر منه لإقامة هذا النهج وحراسته فى الأرض . . ثم يعقب على عرض هذه التجارة التى دلهم عليها بالتحسين والتزيين : « ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون » . . فعلم الحقيقة يقود من يعلم إلى ذلك الخير الأكيد . . ثم يفصل هذا الخير فى آية تالية مستقلة ، لأن التفصيل بعد الإجمال يشوق القلب إليه ، ويقره فى الحس ويمكن له : « يغفر لكم ذنوبكم » . . وهذه وحدها تكفى . فمن ذا الذى يضمن أن يغفر له ذنبه ثم يتطلع بعدها إلى شىء ؟ أويدخر فى سبيلها شيئا ؟ولكن فضل الله ليست له حدود: « ويدخلكم جنات تجرى من تحتها الأنهار ومساكن طيبة فى جنات عدن » . . وإنها لأربح تجارة أن يجاهد المؤمن فى حياته القصيرة ـ حتى حين يفقد هذه الحياة كلها ـ ثم يعوض عنها تلك الجنات وهذه المساكن فى نعيم مقيم . . وحقا . . «ذلك الفوز العظيم » . .

وكأنما ينتهى هنا حساب التجارة الرابحة . وإنه لربح ضخم هائل أن يعطى المؤمن الدنيا ويأخذ الآخرة . فالذى يتجر بالدرهم فيكسب عشرة يغبطه كل من فى السوق . فكيف بمن يتجر فى أيام قليلة معدودة فى هذه الأرض ، ومتاع محدود فى هذه الحياة الدنيا ، فيكسب به خلودا لايعلم له نهاية إلا ماشاء الله ، ومتاعا غير مقطوع ولاممنوع ؟

لقد تمت المبايعة على هذه الصفقة بين رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وعبدالله ابن رواحة ـ رضى الله عنه ـ ليلة العقبة . قال لرسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « اشترط لربك ولنفسك ماشئت » . فقال ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « أشترط لربى أن تعبدوه ولاتشركوا به شيئا ، وأشترط لنفسى أن تمنعونى مما تمنعون منه أنفسكم وأموالكم » . . قال : فمالنا إذا فعلنا ذلك ؟ قال : « الجنة » قالوا : ربح البيع ولانقيل ولانستقيل !

ولكن فضل الله عظيم . وهو يعلم من تلك النفوس أنها تتعلق بشيء قريب في هذه الأرض ، يناسب تركيبها البشرى المحدود. وهو يستجيب لها فيبشرها بما قدره في علمه المكنون من إظهار هذا الدين في الأرض ، وتحقيق منهجه وهيمنته على الحياة في ذلك الجيل : «وأخرى تحبونها : نصر من الله وفتح قريب . وبشر المؤمنين » . .

وهنا تبلغ الصفقة ذروة الربح الذى لا يعطيه إلا الله . الله الذى لا تنفد خزائنه ، والذى لا ممسك لرحمته . فهي المغفرة والجنات والمساكن الطيبة والنعيم المقيم في الآخرة . وفوقها . . فوق البيعة الرابحة والصفقة الكاسبة النصر والفتح القريب . . فمن الذى يدله الله على هذه التجارة ثم يتقاعس عنها أو يحيد ؟ !

وهنا يعن للنفس خاطر أمام هذا الترغيب والتحبيب . . إن المؤمن الذى يدرك حقيقة التصور الإيمانى للكون والحياة ؛ ويعيش بقلبه في هذا التصور ؛ ويطلع على آفاقه وآماده ؛ ثم ينظر للحياة بغير إيمان ، في حدودها الضيقة الصغيرة ، وفي مستوياتها الهابطة الواطية ، وفي اهتماماتها الهزيلة الزهيدة . . هذا القلب لا يطيق أن يعيش لحظة واحدة بغير ذلك الإيمان ، ولا يتردد لحظة واحدة في الجهاد لتحقيق ذلك التصور الضخم الوسيع الرفيع في عالم الواقع ، ليعيش فيه ، وليرى الناس من حوله يعيشون فيه كذلك . . ولعله لا يطلب على جهاده هذا أجرا خارجا عن ذاته . فهو ذاته أجر . . هذا الجهاد . . وما يسكبه في القلب من رضى وارتياح . ثم إنه لا يطيق أن يعيش في عالم بلا إيمان . ولا يطيق أن يقعد بلا جهاد لتحقيق عالم يسوده الإيمان . فهو مدفوع دفعا إلى الجهاد . كائنا مصيره فيه ما يكون . .

ولكن الله — سبحانه — يعلم أن النفس تضعف ، وأن الاندفاع يهبط ، وأن الجهد يكل . وأن حب السلامة قد يهبط بتلك المشاعر كلها ويقودها إلى الرضى بالواقع الهابط . .

ومن ثم يجاهد القرآن هذه النفس ذلك الجهاد ؛ ويعالجها ذلك العلاج ، ويهتف لها بالموحيات والمؤثرات ذلك الهتاف المتكرر المتنوع ، في شتى المناسبات . ولا يكلها إلى مجرد الإيمان ، ولا إلى نداء واحد باسم هذا الإيمان .

فها هو ذا يختم السورة بنداء جديد ، يحمل طابعا جديدا ، وإغراء جديدا ، وموحيا جديدا: «يا أيها الذين آمنوا كونوا أنصار الله ، كما قال عيسى ابن مريم للحواريين : من أنصارى إلى الله؟ قال الحواريون : نحن أنصار الله . فآمنت طائفة من بنى إسرائيل وكفرت طائفة . فأيدنا الذين آمنوا على عدوهم فأصبحوا ظاهرين » . .

والحواريون هم تلاميذ المسيح ــ عليه السلام ــ قيل : الاثنا عشر الذين كانوا يلوذون به، وينقطعون للتلقى عنه . وهم الذين قاموا بعد رفعه بنشر تعاليمه وحفظ وصاياه .

والآية هنا تهدف إلى تصوير موقف لا إلى تفصيل قصة ، فنسير نحن معها فى ظلالها المقصودة إلى الغاية من سردها فى هذا الموضع من السورة .

« يأيها الذين آمنوا كونوا أنصار الله » ..فى هذا الموضع الكريم الذى يرفعكم إليه الله . وهل أرفع من مكان يكون فيه العبد نصيرا للرب ؟ ! إن هذه الصفة تحمل من التكريم ماهو أكبر من الجنة والنعيم .. كونوا أنصار الله ، « كما قال عيسى ابن مريم للحواريين: من أنصارى إلى الله ؟ قال الحواريون : نحن أنصار الله » . . فانتدبوا لهذا الأمر ونالوا هذا التكريم . وعيسى جاء ليبشر بالنبى الجديد والدين الأخير . . فما أجدر أتباع محمد أن ينتدبوا لهذا الأمر الدائم ، كما انتدب الحواريون للأمر الموقوت ! وهذه هى اللمسة الواضحة فى عرض هذا الحوار فى هذا السياق .

وماذا كانت العاقبة ؟

« فآمنت طائفة من بنى إسرائيل وكفرت طائفة ، فأيدنا الذين آمنوا على عدوهم فأصبحوا ظاهرين » .. وتأويل هذ النص يمكن أن ينصرف إلى أحد معنيين : إما أن الذين آمنوا برسالة عيسى عليه السلام هم المسيحيون إطلاقا من استقام ومن دخلت فى عقيدته الانحرافات ، وقد أيدهم الله على اليهود الذين لم يؤمنوا به أصلا كما حدث فى التاريخ .وإما أن الذين آمنوا هم الذين أصروا على التوحيد فى وجه المؤلهين لعيسى والمثلثين وسائر النحل التى انحرفت عن التوحيد. ومعنى أنهم أصبحوا ظاهرين أى بالحجة والبرهان . أوأن التوحيد الذى هم عليه هو الذى أظهره الله بهذا الدين الأخير ؛ وجعل له الجولة الأخيرة فى الأرض كما وقع فى التاريخ . وهذا المعنى الأخير هو الأقرب والأرجح فى هذا السياق .

والعبرة المستفادة من هذه الإشارة ومن هذا النداء هى العبرة التى أشرنا إليها ، وهى استنهاض همة المؤمنين بالدين الأخير ، الأمناء على منهج الله فى الأرض ، ورثة العقيدة والرسالة الإلهية . المختارين لهذه المهمة الكبرى. . استنهاض همتهم لنصرة الله ونصرة دينه « كما قال عيسى ابن مريم للحواريين : من أنصارى إلى الله ؟ قال الحواريون : نحن أنصار الله » .. والنصر فى النهاية لأنصار الله المؤمنين .

إنها الجولة الأخيرة فى السورة ، واللمسة الأخيرة فى السياق ؛ وهى ذات لون وذات طعم يناسبان جو السورة وسياقها ، مع مافيها من تجدد فى اللون وتنوع فى المذاق .

سورة الجمعة مدنية
وآياتها ١١

بسم الله الرحمن الرحيم

« يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَاوَاتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ٱلْمَلِكِ ٱلْقُدُّوسِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ * هُوَ ٱلَّذِي بَعَثَ فِي ٱلْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ ، وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَابَ وَٱلْحِكْمَةَ ، وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ * وَآخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ ، وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ * ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ ، وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ .

« مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُوا ٱلتَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا ، بِئْسَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ ٱللَّهِ ، وَٱللَّهُ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلظَّالِمِينَ * قُلْ : يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ هَادُوا إِنْ زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَاءُ لِلَّهِ مِنْ دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُا ٱلْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ * وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ، وَٱللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ * قُلْ : إِنَّ ٱلْمَوْتَ ٱلَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلَاقِيكُمْ ، ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ .

« يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ وَذَرُوا ٱلْبَيْعَ ، ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ * فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُوا مِنْ فَضْلِ ٱللَّهِ وَٱذْكُرُوا ٱللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ .

« وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انْفَضُّوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِمًا . قُلْ مَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ مِنَ اللَّهْوِ وَمِنَ التِّجَارَةِ وَاللَّهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ » . .

نزلت هذه السورة بعد سورة « الصف » السابقة . وهى تعالج الموضوع الذى عالجته سورة الصف ، ولكن من جانب آخر ، وبأسلوب آخر ، وبمؤثرات جديدة .

إنها تعالج أن تقرفى أخلاد الجماعة المسلمة فى المدينة أنها هى المختارة أخيرا لحمل أمانة العقيدة الإيمانية ؛ وأن هذا فضل من الله عليها ؛ وأن بعثة الرسول الأخير فى الأميين ـ وهم العرب ـ منة كبرى تستحق الالتفات والشكر ، وتقتضى كذلك تكاليف تنهض بها المجموعة التى استجابت للرسول ، واحتملت الأمانة ؛ وأنها موصولة على الزمان غير مقطوعة ولا منبتة ، فقد قدر الله أن تنمو هذه البذرة وتمتد . بعد ما نكل بنو إسرائيل عن حمل هذه الأمانة وانقطعت صلتهم بأمانة السماء ؛ وأصبحوا يحملون التوراة كالحمار يحمل أسفارا ، ولا وظيفة له فى إدراكها ، ولا مشاركة له فى أمرها !

تلك هى الحقيقة الرئيسية التى تعالج السورة إقرارها فى قلوب المسلمين . من كان منهم فى المدينة يومذاك على وجه الخصوص ، وهم الذين ناط الله بهم تحقيق المنهج الإسلامى فى صورة واقعة . ومن يأتى بعدهم ممن أشارت إليهم السورة ، وضمتهم إلى السلسلة الممتدة على الزمان.

وفى الوقت ذاته تعالج السورة بعض الحالات الواقعة فى تلك الجماعة الأولى ؛ فى أثناء عملية البناء النفسى العسيرة المتطاولة الدقيقة . وتخلصها من الجواذب المعوقة من الحرص والرغبة العاجلة فى الربح ، وموروثات البيئة والعرف . وبخاصة حب المال وأسبابه الملهية عن الأمانة الكبرى ، والاستعداد النفسى لها . وتشير إلى حادث معين . حيث كان رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يخطبهم فى المسجد للجمعة حين حضرت قافلة من قوافلهم التجارية ؛ فما إن أعلن نبأ قدومها حتى انفض المستمعون منصرفين إلى التجارة واللهو الذى كانت القافلة تحاط به ـ على عادة الجاهلية ـ من ضرب بالدفوف وحداء وهيصة ! وتركوا رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قائما . فيما عدا اثنى عشر من الراسخين فيهم أبو بكر وعمر بقوا يستمعون ! كما تذكر الروايات ، التى قد لا تكون دقيقة من حيث العدد ، ولكنها ثابتة من حيث وقوع هذه الحركة من عدد من الحاضرين اقتضى التنبيه إليها فى القرآن الكريم .

وهى حادثة تكشف بذاتها عن مدى الجهد الذى بذل فى تربية تلك الجماعة الأولى حتى انتهت إلى ما انتهت إليه ؛ وحتى صارت ذلك النموذج الفريد فى تاريخ الإسلام وفى تاريخ البشرية جميعا . وتلهمنا الصبر على مشقة بناء النفوس فى أى جيل من الأجيال ، لتكوين الجماعة المسلمة التى تنهض بحمل أمانة هذه العقيدة ، وتحاول تحقيقها فى عالم الواقع كما حققتها الجماعة الأولى .

وفى السورة مباهلة مع اليهود ، بدعوتهم إلى تمنى الموت للمبطلين من الفريقين . وذلك ردا على دعواهم أنهم أولياء الله من دون الناس ، وأنهم شعب الله المختار ، وأن بعثة الرسول فى غيرهم لاتكون ! كما كانوا يدعون امع جزم القرآن بأنهم لن يقبلوا هذه المباهلة التى دعوا إليها فنكلوا عنها لشعورهم ببطلان دعواهم . وتعقب السورة على هذا بتقرير حقيقة الموت الذى يفرون منه ، وأنه ملاقيهم مهما فروا ، وأنهم مردودون إلى عالم الغيب والشهادة ، فمنبئهم بما كانوا يعملون . . وهو تقرير لايخص اليهود وحدهم ، إنما يلقيه القرآن ويدعه يفعل فعله فى نفوس المؤمنين كذلك . فهذه الحقيقة لابد أن تستقر فى نفوس حملة أمانة الله فى الأرض ، لينهضوا بتكاليفها وهم يعرفون الطريق !

هذا هو اتجاه السورة ، وهو قريب من اتجاه سورة الصف قبلها ، مع تميز كل منها بالجانب الذى تعالجه ، وبالأسلوب الذى تأخذ القلوب به ، والظلال التى تلقيها هذه وتلك فى الاتجاه الواحد العام . فلننظر كيف يتناول الأسلوب القرآنى هذا الاتجاه . .

* * *

« يسبح لله مافى السماوات وما فى الأرض ، الملك القدوس العزيز الحكيم » . .

هذا المطلع يقرر حقيقة التسبيح المستمرة من كل مافى الوجود لله ؛ ويصفه — سبحانه — بصفات ذات علاقة لطيفة بموضوع السورة . السورة التى اسمها « الجمعة » وفيها تعليم عن صلاة الجمعة ، وعن التفرغ لذكر الله فى وقتها ، وترك اللهو والتجارة ، وابتغاء ماعند الله وهو خير من اللهو ومن التجارة . . ومن ثم تذكر : « الملك » . . الذى يملك كل شىء بمناسبة التجارة التى يسارعون إليها ابتغاء الكسب . وتذكر « القدوس » الذى يتقدس ويتنزه ويتوجه إليه بالتقديس والتنزيه كل مافى السماوات والأرض ، بمناسبة اللهو الذى ينصرفون إليه عن ذكره . وتذكر « العزيز » . . بمناسبة المباهلة التى يدعى إليها اليهود والموت الذى لابد أن يلاقى الناس جميعا والرجعة إليه والحساب . وتذكر « الحكيم » .. بمناسبة اختياره الأميين

ليبعث فيهم رسولا يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة . . وكلها مناسبات لطيفة المدخل والاتصال .

* * *

ثم يبدأ فى موضوع السورة الرئيسى :

« هو الذى بعث فى الأميين رسولا منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ، ويعلمهم الكتاب والحكمة ، وإن كانوا من قبل لفى ضلال مبين . وآخرين منهم لما يلحقوا بهم ، وهو العزيز الحكيم » . .

قيل إن العرب سموا الأميين لأنهم كانوا لا يقرأون ولا يكتبون — فى الأعم الأغلب — وروى عن النبى — صلى الله عليه وسلم — أنه قال : الشهر هكذا وهكذا وهكذا وأشار بأصابعه وقال : « إنا نحن أمة أمية لا نحسب ولا نكتب (١) » . . وقيل : إنما سمى من لا يكتب أميا لأنه نسب إلى حال ولادته من الأم ، لأن الكتابة إنما تكون بالاستفادة والتعلم .

وربما سموا كذلك كما كان اليهود يقولون عن غيرهم من الأمم : إنهم « جوييم » باللغة العبرية أى أمميون . نسبة إلى الأمم — بوصفهم هم شعب الله المختار وغيرهم هم الأمم ! — والنسبة فى العربية إلى المفرد .. أمة .. أميون . وربما كان هذا أقرب بالنسبة إلى موضوع السورة .

ولقد كان اليهود ينتظرون مبعث الرسول الأخير منهم ، فيجمعهم بعد فرقة ، وينصرهم بعد هزيمة ، ويعزهم بعد ذل . وكانوا يستفتحون بهذا على العرب ، أى يطلبون الفتح بذلك النبى الأخير .

ولكن حكمة الله اقتضت أن يكون هذا النبى من العرب ، من الأميين غير اليهود ؛ فقد علم الله أن يهود قد فرغ عنصرها من مؤهلات القيادة الجديدة الكاملة للبشرية — كما سيجىء فى المقطع التالى فى السورة — وأنها زاغت وضلت كما جاء فى سورة الصف . وأنها لا تصلح لحمل الأمانة بعد ما كان منها فى تاريخها الطويل !

وكانت هناك دعوة إبراهيم خليل الرحمان — عليه الصلاة والسلام — تلك الدعوة التى أطلقها فى ظل البيت هو وإسماعيل عليه السلام : « وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل .. ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم ، ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك وأرنا مناسكنا وتب علينا إنك أنت التواب الرحيم . ربنا وابعث فيهم رسولا منهم يتلو عليهم آياتك ، ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم . إنك أنت العزيز الحكيم » . .

(١) ذكره الإمام الجصاص صاحب أحكام القرآن بغير إسناد .

كانت هناك هذه الدعوة من وراء الغيب ، ومن وراء القرون ، محفوظة عند الله لاتضيع ، حتى يجىء موعدها المقدور فى علم الله ، وفق حكمته ؛ وحتى تتحقق فى وقتها المناسب فى قدر الله وتنسيقه، وحتى تؤدى دورها فى الكون حسب التدبير الإلهى الذى لا يستقدم معه شىء ولا يستأخر عن موعده المرسوم.

وتحققت هذه الدعوة ـ وفق قدر الله وتدبيره ـ بنصها الذى تعيده السورة هنا لتذكر بحكاية ألفاظ إبراهيم .. « رسولا منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة » .. كما قال إبراهيم ! حتى صفة الله فى دعاء إبراهيم : « إنك أنت العزيز الحكيم » هى ذاتها التى تعقب على التذكير بمنة الله وفضله هنا : « وهو العزيز الحكيم » ..

وقد سئل رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ عن نفسه فقال : « دعوة أبى إبراهيم . وبشرى عيسى . ورأت أمى حين حملت بى كأنه خرج منها نور أضاءت له قصور بصرى من أرض الشام » (١) .

« هو الذى بعث فى الأميين رسولا منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفى ضلال مبين » ..

والمنة ظاهرة فى اختيار الله للأميين ليجعلهم أهل الكتاب المبين ؛ وليرسل فيهم رسولا منهم ، يرتفعون باختياره منهم إلى مقام كريم ؛ ويخرجهم من أميتهم أو من أميتهم بتلاوة آيات الله عليهم ، وتغيير مابهم ، وتميزهم على العالمين ..

« ويزكيهم » .. وإنها لتزكية وإنه لتطهير ذلك الذى كان يأخذهم به الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ تطهير للضمير والشعور ، وتطهير للعمل والسلوك ، وتطهير للحياة الزوجية ، وتطهير للحياة الاجتماعية . تطهير ترتفع به النفوس من عقائد الشرك إلى عقيدة التوحيد ؛ ومن التصورات الباطلة إلى الاعتقاد الصحيح ، ومن الأساطير الغامضة إلى اليقين الواضح . وترتفع به من رجس الفوضى الأخلاقية إلى نظافة الخلق الإيمانى . ومن دنس الربا والسحت إلى طهارة الكسب الحلال . . إنها تزكية شاملة للفرد والجماعة ولحياة السريرة وحياة الواقع . تزكية ترتفع بالإنسان وتصوراته عن الحياة كلها وعن نفسه ونشأته إلى آفاق النور التى يتصل فيها بربه ، ويتعامل مع الملأ الأعلى ؛ ويحسب فى شعوره وعمله حساب ذلك الملأ العلوى الكريم (٢) .

(١) من رواية ابن إسحاق .. حدثنى ثور ابن زيد عن خالد ابن معدان عن أصحاب رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال ابن كثير : وهذا إسناد جيد ، وروى له شواهد من وجوه آخر ..

(٢) يراجع بتوسع كتاب : « الإنسان بين المادية والإسلام » لمحمد قطب .

« ويعلمهم الكتاب والحكمة » .. يعلمهم الكتاب فيصبحون أهل كتاب. ويعلمهم الحكمة فيدركون حقائق الأمور ، ويحسنون التقدير ، وتلهم أرواحهم صواب الحكم وصواب العمل وهو خير كثير .

« وإن كانوا من قبل لفى ضلال مبين » . . ضلال الجاهلية التي وصفها جعفر ابن أبي طالب لنجاشي الحبشة حين بعثت قريش إليه عمرو ابن العاص وعبد الله ابن أبي ربيعة ليكرّهاه في المهاجرين من المسلمين ، ويشوها موقفهم عنده ، فيخرجهم من ضيافته وجيرته .. فقال جعفر:

« أيها الملك . كنا قوما أهل جاهلية . نعبد الأصنام ، ونأكل الميتة ، ونأتي الفواحش ، ونقطع الأرحام ، ونسيء الجوار ، ويأكل القوى منا الضعيف . . فكنا على ذلك حتى بعث الله إلينا رسولا منا ، نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفافه . فدعانا إلى الله لنوحده ولنعبده ونخلع ما كنا نعبد نحن وآباؤنا من دونه من الحجارة والأوثان ؛ وأمرنا بصدق الحديث ،وأداء الأمانة، وصلة الرحم ، وحسن الجوار ، والكف عن المحارم والدماء . ونهانا عن الفواحش وقول الزور ، وأكل مال اليتيم ، وقذف المحصنات . وأمرنا أن نعبد الله ولا نشرك به شيئا ، وأمرنا بالصلاة والزكاة والصيام » . .

ومع كل ما كانوا عليه في الجاهلية من ضلال فقد علم الله أنهم هم حملة هذه العقيدة الأمناء عليها ، بما علم في نفوسهم من استعداد للخير والصلاح ؛ ومن رصيد مذخور للدعوة الجديدة ؛ وقد فرغت منه نفوس اليهود التي أفسدها الذل الطويل في مصر ،فامتلأت بالعقد والالتواءات والانحرافات ، ومن ثم لم تستقم أبدا بعد ذلك ، لا في حياة موسى عليه السلام ، ولا من بعده . حتى كتب الله عليهم لعنته وغضبه ، وانتزع من أيديهم أمانة القيام على دينه في الأرض إلى يوم القيامة .

وعلم الله أن الجزيرة في ذلك الأوان هي خير مهد للدعوة التي جاءت لتحرير العالم كله من ضلال الجاهلية ، ومن انحلال الحضارة في الامبراطوريات الكبيرة ، التي كان سوس الانحلال قد نخر فيها حتى اللباب ! هذه الحالة التي يصفها كاتب أوربي حديث فيقول :

« ففي القرنين الخامس والسادس كان العالم المتمدين على شفا جرف هار من الفوضى . لأن العقائد التي كانت تعين على إقامة الحضارة كانت قد انهارت ،ولم يك ثم ما يعتد به مما يقوم مقامها . وكان يبدو إذ ذاك أن المدنية الكبرى التي تكلف بناؤها أربعة آلاف سنة ، مشرفة على التفكك

والانحلال ؛ وأن البشرية توشك أن ترجع ثانية إلى ماكانت عليه من الهمجية، إذ القبائل تتحارب وتتناحر ، لاقانون ولا نظام . أما النظم التي خلقتها المسيحية فكانت تعمل على الفرقة والانهيار بدلا من الاتحاد والنظام . وكانت المدنية ، كشجرة ضخمة متفرعة امتد ظلها إلى العالم كله ، واقفة تترنح وقد تسرب إليها العطب حتى اللباب .. وبين مظاهر هذا الفساد الشامل ولد الرجل الذي وحد العالم جميعه (١) » .

وهذه الصورة مأخوذة من زاوية النظر لكاتب أوربي . وهي من زاوية النظر الإسلامية أشد عتاما وظلاما !

وقد اختار الله ــ سبحانه ــ تلك الأمة البدوية في شبه الجزيرة الصحراوية لتحمل هذا الدين، بما علم في نفوسها وفي ظروفها من قابلية للاستصلاح وذخيرة مرصودة للبذل والعطاء . فأرسل فيهم الرسول يتلو عليهم آيات الله ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة . وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين .

« وآخرين منهم لما يلحقوا بهم ، وهو العزيز الحكيم » . .

وهؤلاء الآخرون وردت فيهم روايات متعددة ..

قال الإمام البخاري ــ رحمه الله تعالى ــ : حدثنا عبد العزيز ابن عبد الله ، حدثنا سليمان ابن بلال ، عن ثور ، عن أبي الغيث ، عن أبي هريرة ــ رضي الله عنه ــ قال : « كنا جلوسا عند النبي ــ صلى الله عليه وسلم ــ فأنزلت عليه سورة الجمعة (وآخرين لما يلحقوا بهم) قالوا : من هم يارسول الله ؟ فلم يراجعهم حتى سئل ثلاثا ، وفينا سلمان الفارسي ، فوضع رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ يده على سلمان الفارسي ثم قال : « لو كان الإيمان عند الثريا لناله رجال أورجل من هؤلاء » . فهذا يشير إلى أن هذا النص يشمل أهل فارس . ولهذا قال مجاهد في هذه الآية : هم الأعاجم وكل من صدق النبي ــ صلى الله عليه وسلم ــ من غير العرب .

وقال ابن أبي حاتم : حدثنا أبي ، حدثنا إبراهيم ابن العلاء الزبيدي ، حدثنا الوليد ابن مسلم ، حدثنا أبو محمد عيسى ابن موسى عن أبي حازم ، عن سهل ابن سعد الساعدي . قال : قال رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ : « إن في أصلاب أصلاب أصلاب رجال ونساء من أمتي يدخلون

---

(١) للكاتب ج . هـ دنيسون في كتاب : العواطف كأساس للحضارة .. نقلا عن كتاب : الإسلام والنظام العالمي الجديد تأليف مولاي محمد علي وترجمة الأستاذ أحمد جودة السحار .

الجنة بغير حساب » ثم قرأ : (وآخرين منهم لما يلحقوا بهم) . . يعنى بقية من بقى من أمة محمد صلى الله عليه وسلم .

وكلا القولين يدخل فى مدلول الآية . فهى تدل على آخرين غير العرب . وعلى آخرين غير الجيل الذى نزل فيه القرآن . وتشير إلى أن هذه الأمة موصولة الحلقات ممتدة فى شعاب الأرض وفى شعاب الزمان ، تحمل هذه الأمانة الكبرى ، وتقوم على دين الله الأخير .

«وهو العزيز الحكيم» . .القوى القادر على الاختيار .الحكيم العليم بمواضع الاختيار. . واختياره للمتقدمين والمتأخرين فضل وتكريم :

« ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء ، والله ذو الفضل العظيم » . .

وإن اختيار الله لأمة أو جماعة أو فرد ليحمل هذه الأمانة الكبرى ، وليكون مستودع نور الله وموضع تلقى فيضه ، والمركز الذى تتصل فيه السماء بالأرض . . إن اختيار الله هذا لفضل لايعدله فضل . فضل عظيم يربى على كل ما يبذله المؤمن من نفسه وماله وحياته ؛ ويربى على متاعب الطريق وآلام الكفاح وشدائد الجهاد .

والله يذكر الجماعة المسلمة فى المدينة ، والذين يأتون بعدها الموصولين بها والذين لم يلحقوا بها . يذكرهم هذا الفضل فى اختيارهم لهذه الأمانة ، ولبعث الرسول فيهم يتلو عليهم الكتاب ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة . ويترك للآتين فى أطواء الزمان ذلك الرصيد الضخم من الزاد الإلهى ، ومن الأمثلة الواقعية فى حياة الجماعة الأولى . يذكرهم هذا الفضل العظيم الذى تصغر إلى جانبه جميع القيم ،وجميع النعم؛ كما تصغر إلى جانبه جميع التضحيات والآلام. .

* * *

بعد ذلك يذكر ما يفيد أن اليهود قد انتهى دورهم فى حمل أمانة الله ؛ فلم تعد لهم قلوب تحمل هذه الأمانة التى لاتحملها إلا القلوب الحية الفاقهة المدركة الواعية المتجردة العاملة بما تحمل :

« مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفارا . بئس مثل القوم الذين كذبوا بآيات الله ! والله لايهدى القوم الظالمين » . .

فبنو إسرائيل حملوا التوراة ، وكلفوا أمانة العقيدة والشريعة . . « ثم لم يحملوها » . . فحملها يبدأ بالإدراك والفهم والفقه ،وينتهى بالعمل لتحقيق مدلولها فى عالم الضمير وعالم الواقع.

ولكن سيرة بنى إسرائيل كما عرضها القرآن الكريم ـ وكما هى فى حقيقتها ـ لاتدل على أنهم قدروا هذه الأمانة ،ولا أنهم فقهوا حقيقتها ، ولا أنهم عملوا بها .ومن ثم كانوا كالحمار يحمل الكتب الضخام ، وليس له منها إلا ثقلها . فهو ليس صاحبها . وليس شريكا فى الغاية منها !

وهى صورة زرية بائسة ، ومثل سيء شائن ، ولكنها صورة معبرة عن حقيقة صادقة « بئس مثل القوم الذين كذبوا بآيات الله والله لايهدى القوم الظالمين » . .

ومثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها . . كل الذين حملوا أمانة العقيدة ثم لم يحملوها. والمسلمون الذين غبرت بهم أجيال كثيرة ،والذين يعيشون فى هذا الزمان ، وهم يحملون أسماء المسلمين ولا يعملون عمل المسلمين . وبخاصة أولئك الذين يقرأون القرآن والكتب ، وهم لاينهضون بما فيها . . أولئك كلهم ، كالحمار يحمل أسفارا. وهم كثيرون كثيرون! فليست المسألة مسألة كتب تحمل وتدرس . إنما هى مسألة فقه وعمل بما فى الكتب .

* * *

وكان اليهود يزعمون ـ كما يزعمون حتى اليوم ـ أنهم شعب الله المختار ،وأنهم هم أولياؤه من دون الناس وأن غيرهم هم « الجوييم» أو الأميون أو الأميون. وأنهم من ثم غير مطالبين بمراعاة أحكام دينهم مع غيرهم من الأميين : « قالوا ليس علينا فى الأميين سبيل » . . إلى آخر هذه الدعاوى التى تفترى الكذب على الله بلا دليل ! فهنا دعوة لهم إلى المباهلة التى تكررت معهم ومع النصارى ومع المشركين :

« قل : ياأيها الذين هادوا إن زعمتم أنكم أولياء لله من دون الناس فتمنوا الموت إن كنتم صادقين. ولا يتمنونه أبدا بما قدمت أيديهم والله عليم بالظالمين . قل : إن الموت الذى تفرون منه فإنه ملاقيكم ،ثم تردون إلى عالم الغيب والشهادة ، فينبئكم بما كنتم تعملون » . .

والمباهلة معناها وقوف الفريقين المتنازعين وجها لوجه ، ودعاؤهما معا إلى الله أن ينكل بالمبطل منهما . . وقد خاف كل من دعاهم رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ إلى هذه المباهلة ونكلوا عنها ،ولم يقبلوا التحدى فيها . مما يدل على أنهم فى قرارة نفوسهم كانوا يعرفون صدق رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وحقية هذه الدين .

وقد قال الإمام أحمد : حدثنا إسماعيل ابن يزيد الزرقى ، حدثنا أبو يزيد ، حدثنا فرات ، عن عبد الكريم ابن مالك الجزرى ، عن عكرمة ، عن ابن عباس ، قال : قال أبو جهل

ـ لعنه الله ـ إن رأيت محمدا عند الكعبة لآتينه حتى أطأ على عنقه . قال : فقال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « لو فعل لأخذته الملائكة عيانا . ولو أن اليهود تمنوا الموت لماتوا ورأوا مقاعدهم من النار . ولو خرج الذين يباهلون رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ لرجعو لايجدون أهلا ولا مالا » (١)

وقد لاتكون هذه مباهلة ولكن مجرد تحد لهم، بما أنهم يزعمون أنهم أولياء لله من دون الناس . فمايخيفهم إذن من الموت ، ويجعلهم أجبن خلق الله ؟ وهم حين يموتون ينالون ماعند الله ممايلقاه الأولياء والمقربون ؟!

ثم عقب على هذا التحدى بما يفيد أنهم غير صادقين فيما يدعون ، وأنهم يعرفون أنهم لم يقدموا بين أيديهم مايطمئنون إليه ، ومايرجون الثواب والقربى عليه ، إنما قدموا المعصية التى تخيفهم من الموت وماوراءه . والذى لم يقدم الزاد يجفل من ارتياد الطريق :

« ولايتمنونه أبدا بما قدمت أيديهم والله عليم بالظالمين » ..

وفى نهاية الجولة يقرر حقيقة الموت ومابعده ، ويكشف لهم عن قلة الجدوى فى فرارهم من الموت ، فهو حتم لامهرب منه ، ومابعده من رجعة إلى الله ، وحساب على العمل حتم كذلك لاريب فيه :

« قل : إن الموت الذى تفرون منه فإنه ملاقيكم . ثم تردون إلى عالم الغيب والشهادة ، فينبئكم بما كنتم تعملون » .

وهى لفتة من اللفتات القرآنية الموحية للمخاطبين بها وغير المخاطبين . تقر فى الأخلاد حقيقة ينساها الناس ، وهى تلاحقهم أينما كانوا . . فهذه الحياة إلى انتهاء. والبعد عن الله فيها ينتهى للرجعة إليه ، فلا ملجأ منه إلا إليه . والحساب والجزاء بعد الرجعة كائنان لامحالة . فلا مهرب ولافكاك .

روى الطبرى فى معجمه من حديث معاذ ابن محمد الهذلى عن يونس عن الحسن عن سمرة مرفوعا : « مثل الذى يفر من الموت كمثل الثعلب ، تطلبه الأرض بدَيْن ، فجاء يسعى ، حتى إذا أعيا وأنهر دخل جحره ، فقالت له الأرض : ياثعلب ! دَيْنى . فخرج له حصاص . فلم يزل كذلك حتى تقطعت عنقه فمات » ..

---

(١) ورواه البخارى والترمذى والنسائى من حديث عبد الرزاق عن معمر عن عبد الكريم.

وهى صورة متحركة موحية عميقة الإيحاء . .

* * *

والآن يجيء المقطع الأخير فى السورة خاصا بتعليم يتعلق بالجمعة ، بمناسبة ذلك الحادث الذى وقع ربما أكثر من مرة ، لأن الصيغة تفيد التكرار :

« ياأيها الذين آمنوا إذا نودى للصلاة من يوم الجمعة فاسعوا إلى ذكر الله وذروا البيع . ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون . فإذا قضيت الصلاة فانتشروا فى الأرض وابتغوا من فضل الله واذكروا الله كثيرا لعلكم تفلحون .

« وإذا رأوا تجارة أو لهوا انفضوا إليها وتركوك قائما . قل : ماعند الله خيرمن اللهوومن التجارة . والله خير الرازقين » . .

وصلاة الجمعة هى الصلاة الجامعة ، التى لاتصح إلاجماعة . . وهى صلاة أسبوعية يتحتم أن يتجمع فيها المسلمون ويلتقوا ويستمعوا إلى خطبة تذكرهم بالله . وهى عبادة تنظيمية على طريقة الإسلام فى الإعداد للدنيا والآخرة فى التنظيم الواحد وفى العبادة الواحدة ؛ وكلاهما عبادة[1] . وهى ذات دلالة خاصة على طبيعة العقيدة الإسلامية الجماعية التى تحدثنا عنها فى ظلال سورة الصف . وقد وردت الأحاديث الكثيرة فى فضل هذه الصلاة والحث عليها والاستعداد لها بالغسل والثياب والطيب .

جاء فى الصحيحين عن ابن عمر ــ رضى الله عنهما ــ قال: قال رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ : « إذا جاء أحدكم إلى الجمعة فليغتسل » . .

وروى أصحاب السنة الأربعة من حديث أوس ابن أوس الثقفى قال : سمعت رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ يقول : من غسل واغتسل يوم الجمعة ، وبكر وابتكر ، ومشى ولم يركب ، ودنا من الإمام واستمع ولم يلغ ، كان له بكل خطوة أجر سنة صيامها وقيامها » . .

وروى الإمام أحمد من حديث كعب ابن مالك عن أبى أيوب الأنصارى قال : سمعت رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ يقول : « من اغتسل يوم الجمعة ومس من طيب أهله إن كان عنده ، ولبس من أحسن ثيابه ، ثم خرج يأتى المسجد ، فيركع إن بدا له ، ولم يؤذ أحدا ، ثم أنصت إذا خرج إمامه حتى يصلى ، كانت كفارة لما بينها وبين الجمعة الأخرى » . .

---

(١) يراجع فصل العبادات الإسلامية فى كتاب : « فى النفس والمجتمع » لمحمد قطب .

والآية الأولى فى هذا المقطع تأمر المسلمين أن يتركوا البيع — وسائر نشاط المعاش— بمجرد سماعهم للأذان :

«ياأيها الذين آمنوا إذا نودى للصلاة من يوم الجمعة فاسعوا إلى ذكر الله وذروا البيع » ..

وترغبهم فى هذا الانخلاع من شؤون المعاش والدخول فى الذكر فى هذا الوقت :

« ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون » . .

مما يوحى بأن الانخلاع من شؤون التجارة والمعاش كان يقتضى هذا الترغيب والتحبيب . وهو فى الوقت ذاته تعليم دائم للنفوس ؛ فلا بد من فترات ينخلع فيها القلب من شواغل المعاش وجواذب الأرض ،ليخلو إلى ربه، ويتجرد لذكره ،ويتذوق هذا الطعم الخاص للتجرد والاتصال بالملأ الأعلى ، ويملأ قلبه وصدره من ذلك الهواء النقى الخالص العطر ويستروح شذاه !

ثم يعود إلى مشاغل العيش مع ذكر الله :

« فإذا قضيت الصلاة فانتشروا فى الأرض ، وابتغوا من فضل الله ، واذكروا الله كثيرا لعلكم تفلحون » . .وهذا هو التوازن الذى يتسم به المنهج الإسلامى .التوازن بين مقتضيات الحياة فى الأرض ، من عمل وكد ونشاط وكسب . وبين عزلة الروح فترة عن هذا الجو وانقطاع القلب وتجرده للذكر . وهى ضرورة لحياة القلب لايصلح بدونها للاتصال والتلقى والنهوض بتكاليف الأمانة الكبرى . وذكر الله لا بد منه فى أثناء ابتغاء المعاش ، والشعور بالله فيه هو الذى يحول نشاط المعاش إلى عبادة . ولكنه — مع هذا — لابد من فترة للذكر الخالص ، والانقطاع الكامل ، والتجرد للمحض . كما توحى هاتان الآيتان.

وكان عراك ابن مالك — رضى الله عنه — إذا صلى الجمعة انصرف فوقف على باب المسجد فقال :اللهم إنى أجبت دعوتك ، وصليت فريضتك ، وانتشرت كما أمرتنى . فارزقنى من فضلك وأنت خير الرازقين » . . (رواه ابن أبى حاتم) . .وهذه الصورة تمثل لنا كيف كان يأخذ الأمر جدا ، فى بساطة تامة ، فهو أمر للتنفيذ فور سماعه بحرفيته وبحقيقته كذلك !

ولعل هذا الإدراك الجاد الصريح البسيط هو الذى ارتقى بتلك المجموعة إلى مستواها الذى بلغت إليه ،مع كل ما كان فيها من جواذب الجاهلية. مماتصوره الآية الأخيرة فى السورة:

« وإذا رأوا تجارة أولهوا انفضوا إليها وتركوك قائما . قل : ماعند الله خير من اللهو ومن التجارة . والله خير الرازقين » .

عن جابر ــ رضى الله عنه ــ قال : « بينا نحن نصلى مع النبى ــ صلى الله عليه وسلم ــ إذ أقبلت عير تحمل طعاما ، فالتفتوا إليها حتى مابقى مع النبى ــ صلى الله عليه وسلم ــ إلااثنا عشر رجلا ، منهم أبو بكر وعمر رضى الله عنهما . فنزلت : «وإذا رأوا تجارة أولهوا انفضوا إليها وتركوك قائما » (١) ..

وفى الآية تلويح لهم بما عند الله وأنه خير من اللهو ومن التجارة . وتذكير لهم بأن الرزق من عند الله « والله خير الرازقين » ..

وهذا الحادث كما أسلفنا يكشف عن مدى الجهد الذى بذل فى التربية وبناء النفوس حتى انتهت إلى إنشاء تلك الجماعة الفريدة فى التاريخ . ويمنح القائمين على دعوة الله فى كل زمان رصيدا من الصبر على مايجدونه من ضعف ونقص وتخلف وتعثر فى الطريق . فهذه هى النفس البشرية بخيرها وشرها . وهى قابلة أن تصعد مراقى العقيدة والتطهر والتزكى بلا حدود ، مع الصبر والفهم والإدراك والثبات والمثابرة ، وعدم النكوص من منتصف الطريق . والله المستعان .

(١) رواه الشيخان والترمذى .

سورة المنافقون مدنية
وآياتها ١١

بسم الله الرحمن الرحيم

«إِذَا جَاءَكَ ٱلْمُنَافِقُونَ قَالُوا : نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ، وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ ، وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ * ٱتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ،إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ * ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ ،فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ * وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ ، وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُسَنَّدَةٌ ، يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ ، هُمُ ٱلْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ ، قَاتَلَهُمُ ٱللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ * وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ : تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ لَوَّوْا رُؤُوسَهُمْ ، وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ * سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَنْ يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ، إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلْفَاسِقِينَ * هُمُ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ : لَا تُنْفِقُوا عَلَىٰ مَنْ عِنْدَ رَسُولِ ٱللَّهِ حَتَّىٰ يَنْفَضُّوا، وَلِلَّهِ خَزَائِنُ ٱلسَّمَاوَاتِ وَٱلْأَرْضِ ،وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَافِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ * يَقُولُونَ : لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ، وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ ، وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ .

« يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ ٱللَّهِ ، وَمَنْ يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ ٱلْخَاسِرُونَ * وَأَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ فَيَقُولَ :رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُنْ مِنَ ٱلصَّالِحِينَ!*وَلَنْ يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا ، وَٱللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ » .

هذه السورة التى تحمل هذا الاسم الخاص « المنافقون » الدال على موضوعها . . ليست هى السورة الوحيدة التى فيها ذكر النفاق والمنافقين ، ووصف أحوالهم ومكائدهم . فلا تكاد تخلو سورة مدنية من ذكر المنافقين تلميحا أو تصريحا . ولكن هذه السورة تكاد تكون مقصورة على الحديث عن المنافقين ، والإشارة إلى بعض الحوادث والأقوال التى وقعت منهم ورويت عنهم .

وهى تتضمن حملة عنيفة على أخلاق المنافقين وأكاذيبهم ودسائسهم ومناوراتهم ، وما فى نفوسهم من البغض والكيد للمسلمين ، ومن اللؤم والجبن وانطماس البصائر والقلوب .

وليس فى السورة عدا هذا الالتفاتة فى نهايتها إلى الذين آمنوا لتحذيرهم من كل مايلصق بهم صفة من صفات المنافقين ، ولو من بعيد . وأدنى درجات النفاق عدم التجرد لله ، والغفلة عن ذكره اشتغالا بالأموال والأولاد ، والتقاعس عن البذل فى سبيل الله حتى يأتى اليوم الذى لاينفع فيه البذل والصدقات .

وحركة النفاق التى بدأت بدخول الإسلام المدينة ، واستمرت إلى قرب وفاة رسول الله — صلى الله عليه وسلم — ولم تنقطع فى أى وقت تقريبا ، وإن تغيرت مظاهرها ووسائلها بين الحين والحين . . هذه الحركة ذات أثر واضح فى سيرة هذه الفترة التاريخية وفى أحداثها ؛ وقد شغلت من جهد المسلمين ووقتهم وطاقتهم قدرا كبيرا ؛ وورد ذكرها فى القرآن الكريم وفى الحديث الشريف مرات كثيرة تدل على ضخامة هذه الحركة ، وأثرها البالغ فى حياة الدعوة فى ذلك الحين .

وقد ورد عن هذه الحركة فصل جيد فى كتاب: «سيرة الرسول : صور مقتبسة من القرآن الكريم » لمؤلفه الأستاذ « محمد عزة دروزة » نقتطف منه فقرات كاشفة :

«وعلة ظهور تلك الحركة فى المدينة واضحة، فالنبى — صلى الله عليه وسلم — والمسلمون الأولون فى مكة لم يكونوا من القوة والنفوذ فى حالة تستدعى وجود فئة من الناس ترهبهم أو ترجو خيرهم ، فتتملقهم وتتزلف إليهم فى الظاهر ، وتتآمر عليهم وتكيد لهم وتمكر بهم فى الخفاء ، كما كان شأن المنافقين بوجه عام . ولقد كان أهل مكة وزعماؤها خاصة يناوئون النبى جهارا ، ويتناولون من استطاعوا من المسلمين بالأذى الشديد ، ويقاومون الدعوة بكل وسيلة دون ماتحرز أو تحفظ ؛ وكانت القوة لهم حتى اضطر المسلمون إلى الهجرة فرارا بدينهم ودمهم إلى

الحبشــة أولا ، ثم إلى يثرب ؛ وحتى فتن بعضهم عن دينــه بالعنف والإكراه ، أو بالإغــراء والتهويش ؛ وحتى تزلزل بعضهم وتبرم ونافق المشركين ، وحتى مات بعض من ناله الأذى ممن ثبت على دينه نتيجة للتعذيب . . .

« أما فى المدينة فقد كان الأمر مختلفا جدا . فالنبى — صلى الله عليه وسلم — استطاع قبل أن يهاجر إليها أن يكسب أنصارا أقوياء من الأوس والخزرج ؛ ولم يهاجر إلا بعد أن استوثق من موقفه ، ولم يبق تقريبا بيت عربى فيها لم يدخله الإسلام . ففى هذه الحالة لم يكن من الهين أن يقف الذين لم يؤمنوا به — إما عن جهالة وغباء ، وإما عن غيظ وحقد وعناد ، لأنهم رأوا فى قدوم النبى حدا لنفوذهم وسلطانهم —موقف الجحود والعداء العلنى للنبى والمسلمين من المهاجرين والأنصار ؛ وكان للعصبية فى الوقت نفسه أثر غير قليل فى عدم الوقوف هذا الموقف ، لأن سواد الأوس والخزرج أصبحوا أنصار النبى ، ومرتبطين به بمواثيق الدفاع والنصر ، إلى أن جلهم قد حسن إسلامهم ، وغدوا يرون فى النبى رسول الله ، وقائدهم الأعلى الواجب الطاعة ، ومرشدهم الأعظم الواجب الاتباع ، فلم يكن يسع الذين ظلت تغلبهم نزعة الشرك ، ويتحكم فيهم مرض القلب والمكابرة والحقد ،ويحملهم ذلك على مناوأة النبى — صلى الله عليه وسلم — ودعوته ونفوذه — أن يظهروا علنا فى نزعتهم وعدائهم ، ولم يكن أمامهم إلا التظاهر بالإسلام ، والقيام بأركانه ، والتضامن مع قبائلهم . وجعل مكرهم وكيدهم ودسهم ومؤامراتهم بأسلوب المراوغة والخداع والتمويه ، وإذا كانوا وقفوا أحيانا مواقف علنية فيها كيد ودس ، وعليها طابع من النفاق بارز ، فإنما كان هذا منهم فى بعض الظروف والأزمات الحادة التى كانت تحدق بالنبى والمسلمين ، والتى كانوا يتخذونها حجة لتلك المواقف بداعى المصلحة والمنطق والاحتياط ؛ ولم يكونوا على كل حال يعترفون بالكفر أو النفاق ،غير أن نفاقهم وكفرهم ومواقفهم فى الكيد والدس والتآمر لم تكن لتخفى على النبى —صلى الله عليه وسلم —والمخلصين من أصحابه من المهاجرين والأنصار ، كما أن المواقف العلنية التى كانوا يقفونها فى فرص الأزمات كانت مما تزيد كفرهم ونفاقهم فضيحة ومقتا . وقد كانت الآيات القرآنية توجه إليهم كذلك الفضائح المرة بعد المرة ، وتدل عليهم بما يفعلون أو يمكرون ، وتدمغهم بشرورهم وخبثهم ومكايدهم ، وتحذر النبى — صلى الله عليه وسلم — والمسلمين منهم فى كل ظرف ومناسبة .

« ولقد كانت مواقف المنافقين ومكايدهم بعيدة المدى والأثر على ماتلهم الآيات المدنية ،حتى

لكأنه نضال قوى ، يذكر بما كان من نضال بين النبى – صلى الله عليه وسلم – وزعماء مكة ، وإن اختلفت الأدوار والنتائج ، إذ أن النبى لم يلبث أن أخذ مركزه يتوطد وقوته تزداد ، ودائرة الإسلام تتسع ، وصار صاحب سلطان وأمر نافذ وجانب عزيز ؛ وإذ لم يكن المنافقون كتلة متضامنة ذات شخصية خاصة بارزة ، وكان ضعفهم وضآلة عددهم وشأنهم يسيران سيرا متناسبا عكسيا معما كان من تزايد قوة النبى – صلى الله عليه وسلم – واتساع دائرة الإسلام ، وتوطد عزته وسلطانه .

« ويكفيك لأجل أن تشعر بخطورة الدور الذى قام به المنافقون ، وخاصة فى أوائل العهد ، أن تلاحظ أن المنافقين كانوا أقوياء نسبيا بعصبياتهم التى كانت ماتزال قوية الأثر فى نفوس سواد قبائلهم ، كما أنهم لم يكونوا مفضوحين فضيحة تامة ، ولم يكن الإسلام قد رسخ فى هذا السواد رسوخا كافيا ؛ وأن النبى – صلى الله عليه وسلم – كان محوطا بالمشركين الجاحدين من كل جانب ، وأهل مكة خصومه الألداء ، وهم قبلة الجزيرة يتربصون به الدوائر ، ويتحينون كل فرصة ووسيلة للقضاء عليه ؛ واليهود فى المدينة وحولها قد تنكروا له منذ عهد مبكر وتطيروا به ، ثم جاهروه بالكفر والعداء والمكر ؛ ولم يلبث أن انعقد بينهم وبين المنافقين حلف طبيعى على توحيد المسعى ، والتضامن فى موقف المعارضة والكيد ، حتى ليمكن القول : إن المنافقين لم يقووا ويثبتوا ويكن منهم ذلك الأذى الشديد والاستمرار فى الكيد والدس إلا بسبب مالقوه من اليهود من تعضيد ، وما انعقد بينهم من تضامن وتواثق ، ولم يضعف شأنهم ويخف خطرهم إلا بعد أن مكن الله للنبى من هؤلاء وأظهره عليهم ، وكفاه شرهم (١) »

* * *

وهذه السورة تبدأ بوصف طريقتهم فى مداراة مافى قلوبهم من الكفر ، وإعلانهم الإسلام والشهادة بأن النبى – صلى الله عليه وسلم – هو رسول الله . وحلفهم كذبا ليصدقهم المسلمون ، واتخاذهم هذه الأيمان وقاية وجنة يخفون وراءها حقيقة أمرهم ، ويخدعون المسلمين فيهم :

« إذا جاءك المنافقون قالوا : نشهد إنك لرسول الله – والله يعلم إنك لرسوله – والله يشهد إن المنافقين لكاذبون . اتخذوا أيمانهم جنة فصدوا عن سبيل الله ، إنهم ساء ما كانوا يعملون » . .

فهم كانوا يجيئون إلى رسول الله – صلى الله عليه وسلم – فيشهدون بين يديه برسالته شهادة

(١) يراجع الفصل بتمامه من ص ١٧٦ إلى ٢١٦ بالجزء الثانى من الكتاب .

باللسان ،لايقصدون بها وجه الحق ، إنما يقولونهاللتقية، وليخفوا أمرهم وحقيقتهم على المسلمين.
فهم كاذبون فى أنهم جاءوا ليشهدوا هذه الشهادة ، قد جاءوا ليخدعوا المسلمين بها ،ويداروا أنفسهم بقولها . ومن ثم يكذبهم الله فى شهادتهم بعد التحفظ الذى يثبت حقيقة الرسالة : « والله يعلم إنك لرسوله » .. « والله يشهد إن المنافقين لكاذبون » ..

والتعبير من الدقة والاحتياط بصورة تثير الانتباه . فهو يبادر بتثبيت الرسالة قبل تكذيب مقالة المنافقين . ولولا هذا التحفظ لأوهم ظاهر العبارة تكذيب المنافقين فى موضوع شهادتهم وهو الرسالة . وليس هذا هو المقصود . إنما المقصود تكذيب إقرارهم فهم لايقرون الرسالة حقا ولايشهدون بها خالصى الضمير !

« اتخذوا أيمانهم جنة » . . وهى توحى بأنهم كانوا يحلفون الأيمان كلما انكشف أمرهم ، أوعرف عنهم كيد أوتدبير ، أونقلت عنهم مقالة سوء فى المسلمين . كانوا يحلفون ليتقوا مايترتب على افتضاح أمر من أمورهم ، فيجعلون أيمانهم وقاية وجنة يحتمون وراءها ، ليواصلوا كيدهم ودسهم وإغواءهم للمخدوعين فيهم . « فصدوا عن سبيل الله » .. صدوا أنفسهم وصدوا غيرهم مستعينين بتلك الأيمان الكاذبة . « إنهم ساء ماكانوا يعملون » . . وهل أسوأ من الكذب للخداع والتضليل ؟ !

ويعلل حالهم هذه من شهادة مدخولة كاذبة ، وأيمان مكذوبة خادعة ، وصد عن سبيل الله وسوء عمل .. يعلله بأنهم كفروا بعد الإيمان ، واختاروا الكفر بعد أن عرفوا الإسلام :

« ذلك بأنهم آمنوا ثم كفروا فطبع على قلوبهم ، فهم لايفقهون » ..

فهم عرفوا الإيمان إذن ، ولكنهم اختاروا العودة إلى الكفر وما يعرف الإيمان ثم يعود إلى الكفر قلب فيه فقه ، أوتذوق ، أوحياة . وإلافمن ذا الذى يذوق ويعرف ، ويطلع على التصور الإيمانى للوجود ، وعلى التذوق الإيمانى للحياة ، ويتنفس فى جو الإيمان الذكى ، ويحيا فى نور الإيمان الوضىء ،ويتفيأ ظلال الإيمان الندية ..ثم يعود إلى الكفر الكالح الميت الخاوى المجدب الكنود ؟ من ذا الذى يصنع هذا إلا المطموس الكنود الحقود ، الذى لايفقه ولايحس ولايشعر بهذا الفارق البعيد ! « فطبع على قلوبهم فهم لايفقهون » . .

ثم يرسم لهم السياق صورة فريدة مبدعة ؛ تثير السخرية والهزء والزراية بهذا الصنف الممسوخ المطموس من الناس ، وتسمهم بالفراغ والخواء والانطماس والجبن والفزع والحقد والكنود . بل تنصبهم تمثالا وهدفا للسخرية فى معرض الوجود :

« وإذا رأيتهم تعجبك أجسامهم . وإن يقولوا تسمع لقولهم كأنهم خشب مسندة . يحسبون كل صيحة عليهم . هم العدو فاحذرهم . قاتلهم الله ! أنى يؤفكون ؟ » . .

فهم أجسام تعجب. لاأناسى تتجاوب ! وماداموا صامتين فهم أجسام معجبة للعيون . . فأما حين ينطقون فهم خواء من كل معنى ومن كل حس ومن كل خالجة . . « تسمع لقولهم كأنهم خشب » . . ولكنها ليست خشبا فحسب . إنما هى « خشب مسندة » . . لاحركة لها ، ملطوعة بجانب الجدار !

هـذا الجمود الراكد البارد يصورهم من ناحية فقه أرواحهم إن كانت لهم أرواح ! ويقابله من ناحية أخرى حالة من التوجس الدائم والفزع الدائم والاهتزاز الدائم :

« يحسبون كل صيحة عليهم » . .

فهم يعرفون أنهم منافقون مستورون بستار رقيق من التظاهر والحلف والملق والالتواء. وهم يخشون فى كل لحظة أن يكون أمرهم قد افتضح وسترهم قد انكشف . والتعبير يرسمهم أبدا متلفتين حوالبهم ، يتوجسون من كل حركة ومن كل صوت ومن كل هاتف ، يحسبونه يطلبهم ، وقد عرف حقيقة أمرهم !!

وبينما هم خشب مسندة ملطوعة إذا كان الأمر أمر فقه وروح وشعور بإيقاعات الإيمان . . إذا هم كالقصبة المرتجفة فى مهب الريح إذا كان الأمر أمر خوف على الأنفس والأموال !

وهم بهذا وذاك يمثلون العدو الأول للرسول — صلى الله عليه وسلم — وللمسلمين :

« هم العدو فاحذرهم » . .

هم العدو الحقيقى . العدو الكامن داخل المعسكر ، المختبئ فى الصف . وهو أخطر من العدو الخارجى الصريح . « فاحذرهم » . . ولكن الرسول — صلى الله عليه وسلم — لم يؤمر هنا بقتلهم ، فأخذهم بخطة أخرى فيها حكمة وسعة وثقة بالنجاة من كيدهم (كما سيجىء نموذج من هذه المعاملة بعد قليل) . .

« قاتلهم الله أنى يؤفكون » . .

فالله مقاتلهم حيثما صرفوا وأنى توجهوا . والدعاء من الله حكم بمدلول هذا الدعاء ، وقضاء نافذ لاراد له ولامعقب عليه . . وهذا هو الذى كان فى نهاية المطاف .

* * *

ويستطرد السياق فى وصف تصرفاتهم الدالة على دخل قلوبهم ، وتبييتهم للرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ وكذبهم عند المواجهة .. وهى مجموعة من الصفات اشتهر بها المنافقون :

« وإذا قيل لهم : تعالوا يستغفر لكم رسول الله لووا رؤوسهم ، ورأيتهم يصدون وهم مستكبرون . سواء عليهم أستغفرت لهم أم لم تستغفر لهم ، لن يغفر الله لهم ، إن الله لايهدى القوم الفاسقين . هم الذين يقولون : لاتنفقوا على من عند رسول الله حتى ينفضوا .ولله خزائن السماوات والأرض ولكن المنافقين لايفقهون . يقولون : لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل . ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين . ولكن المنافقين لايعلمون » ..

وقد ذكر غير واحد من السلف أن هذا السياق كله نزل فى عبد الله ابن أبى ابن سلول :

وفصل ابن إسحاق هذا فى حديثه عن غزوة بنى المصطلق سنة ست على المريسيع .. ماءلهم.. فبينا رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ على ذلك المـاء ـ بعد الغزوة ـ وردت واردة الناس ، ومع عمر ابن الخطاب أجير له من بنى غفار يقال له : جهجاه ابن مسعود يقود فرسه ، فازدحم جهجاه وسنان ابن وبر الجهنى حليف بنى عون ابن الخزرج على المـاء، فاقتتلا ، فصرخ الجهنى : يامعشر الأنصار. وصرخ جهجاه : يامعشر المهاجرين. فغضب عبد الله ابن أبى ابن سلول، وعنده رهط من قومه، فيهم زيد ابن أرقم غلام حدث . فقال : أوقد فعلوها ؟ قدنافرونا وكاثرونا فى بلادنا . والله ما أعدّنا وجلابيب قريش (١) إلا كما قال الأول : سمن كلبك يأكلك ! أما والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل . ثم أقبل على من حضره من قومه فقال لهم : هذا مافعلتم بأنفسكم : أحللتموهم بلادكم ، وقاسمتموهم أموالكم ، أما والله لوأمسكتم عنهم بأيديكم لتحولوا إلى غير داركم . فسمع ذلك زيد ابن أرقم . فمشى به إلى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وذلك عند فراغ رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ من عدوه ، فأخبره الخبر ، وعنده عمر ابن الخطاب . فقال : مربه عباد ابن بشر فليقتله . فقال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « فكيف ياعمر إذا تحدث الناس أن محمدا يقتل أصحابه ؟ لاولكن أذن بالرحيل ». وذلك فى ساعة لم يكن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يرتحل فيها . فارتحل الناس ، وقد مشى عبدالله ابن أبى ابن سلول إلى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ حين بلغه أن زيد ابن أرقم قد بلغه ماسمع منه ـ فحلف بالله ماقلت ماقال ولا تكلمت به . وكان فى قومه شريفا عظيما . فقال

---

(١) الجلابيب : اسم كان يلقب به المنافقون أصحاب رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ المهاجرين .

من حضر رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ من الأنصار من أصحابه : يارسول الله عسى أن يكون الغلام قد أوهم فى حـديثه ولم يحفظ ماقال الرجل . حدباً على ابن أبى ابن سلول ودفعا عنه .

قال ابن إسحاق فلما استقل رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وسار لقيه أسيد ابن حضير، فحياه بتحية النبوة وسلم عليه ، ثم قال : يانبى الله ، والله لقد رحت فى ساعة منكرة ما كنت تروح فى مثلها . فقال له رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « أو ما بلغك ماقال صاحبكم ؟ » قال : وأى صاحب يارسول الله ؟ قال «عبدالله ابن أبى » قال : وما قال ؟ قال : « زعم أنه إن رجع إلى المدينة أخرج الأعز منها الأذل؟» قال : فأنت يارسول الله والله لتخرجنه منها إن شئت. هو والله الذليل وأنت العزيز . ثم قال : يارسول الله ارفق به . فوالله لقد جاءنا الله بك وإن قومه لينظمون له الحرز ليتوجوه ، فإنه ليرى أنك قد استلبته ملكا !

ثم مشى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بالناس يومهم ذلك حتى أمسى ، وليلتهم حتى أصبح ، وصدر يومهم ذلك حتى آذتهم الشمس . ثم نزل بالناس ، فلم يلبثوا أن وجدوا مس الأرض فوقعوا نياما ، وإنما فعل ذلك رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ليشغل الناس عن الحديث الذى كان بالأمس من حديث عبد الله ابن أبى .

قال ابن إسحاق : ونزلت السورة التى ذكر الله فيها المنافقين ،فى ابن أبى ومن كان على مثل أمره . فلما نزلت أخذ رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بأذن زيد ابن أرقم ، ثم قال : « هذا الذى أوفى لله بأذنه » . وبلغ عبد الله ابن عبد الله ابن أبى الذى كان من أمر أبيه .

قال ابن إسحاق . فحدثنى عاصم ابن عمر ابن قتادة أن عبد الله أتى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقال : يارسول الله ، إنه بلغنى أنك تريد قتل عبد الله ابن أبى فيما بلغك عنه . فإن كنت لابد فاعلا فمرنى به فأنا أحمل إليك رأسه، فوالله لقد علمت الخزرج ما كان لها من رجل أبر بوالده منى ، وإنى أخشى أن تأمر غيرى فيقتله ، فلا تدعنى نفسى أنظر إلى قاتل عبد الله ابن أبى يمشى فى الناس ، فأقتله ، فأقتل مؤمنا بكافر ، فأدخل النار . فقال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « بل نترفق به ونحسن صحبته مابقى معنا » .

وجعل بعد ذلك إذا أحدث الحدث كان قومه هم الذين يعاتبونه ويأخذونه ويعنفونه . فقال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ لعمر ابن الخطاب حين بلغه ذلك من شأنهم : « كيف ترى

ياعمر ؟أما والله لو قتلته يوم قلت لى: اقتله لأرعدت له آنف لو أمرتها اليوم تقتله لقتلته » . . قال : قال عمر : قد والله علمت لأمر رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أعظم بركة من أمرى . .

وذكر عكرمة وابن زيد وغيرهما أن الناس لما قفلوا راجعين إلى المدينة وقف عبد الله ابن عبد الله ابن أبى على باب المدينة ، واستل سيفه ، فجعل الناس يمرون عليه ، فلما جاء أبوه عبد الله ابن أبى قال له ابنه : وراءك ! فقال مالك؟ ويلك! فقال :والله لاتجوز من هاهنا حتى يأذن لك رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فإنه العزيز وأنت الذليل افلما جاء رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وكان إنما يسير ساقة (١) ، فشكا إليه عبد الله ابن أبى ابنه . فقال ابنه عبد الله : والله يارسول الله لايدخلها حتى تأذن له . فأذن له رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقال : أما إذ أذن لك رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فجز الآن . .(٢)

***

وننظر مرة إلى الأحداث ، ومرة إلى الرجال ، ومرة إلى النص القرآنى ، فنجدنا مع السيرة ، ومع المنهج التربوى الإلهى ، ومع قدر الله العجيب فى تصريف الأمور . .

فهذا هو الصف المسلم يندس فيه المنافقون ؛ ويعيشون فيه ـ فى حياة الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ قرابة عشر سنوات . والرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ لايخرجهم من الصف ، ولا يعرفهم الله له بأسمائهم وأعيانهم إلا قبيل وفاته . وإن كان يعرفهم فى لحن القول ، بالالتواء والمداورة . ويعرفهم بسيماهم وما يبدو فيهامن آثار الانفعالات والانطباعات . ذلك كى لايكل الله قلوب الناس للناس . فالقلوب له وحده ، وهو الذى يعلم ما فيها ويحاسب عليه ، فأما الناس فلهم ظاهر الأمر ؛ كى لايأخذوا الناس بالظنة ، وكى لايقضوا فى أمورهم بالفراسة ! وحتى حينما عرف الله نبيه ـ صلى الله عليه وسلم ـ بالنفر الذين ظلوا على نفاقهم إلى أواخر حياته ، فإنه لم يطردهم من الجماعة وهم يظهرون الإسلام ويؤدون فرائضه .إنما عرفهم وعرّف بهم واحداً فقط من رجاله هو حذيفة ابن اليمان ـ رضى الله عنه ـ ولم يشع ذلك بين المسلمين . حتى إن عمر ـ رضى الله عنه ـ كان يأتى حذيفة ليطمئن منه على نفسه أن الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ

(١) فى مؤخرة الجيش ينظر المتخلف والضال والمحتاج إلى معونة . . .

(٢) مما يلاحظ أن حديث الإفك المشهور قد وقع فى أعقاب تلك الغزوة وكان الذى تولى كبره هو عبد الله بن أبى ابن سلول !

لم يسمه له من المنافقين ! وكان حذيفة يقول له : ياعمر لست منهم . ولا يزيد ! وكان رسول الله — صلى الله عليه وسلم — قد أمر ألا يصلى على أحد منهم مات أبدا . فكان أصحابه يعرفون عند ما يرون الرسول لايصلى على ميت . فلما قبض — صلى الله عليه وسلم — كان حذيفة لايصلى على من عرف أنه منهم . وكان عمر لاينهض للصلاة على ميت حتى ينظر . فإن رأى حذيفة هناك علم أنه ليس من المجموعة وإلا لم يصل هو الآخر ولم يقل شيئا !

وهكذا كانت تجرى الأحداث — كما يرسمها القدر — لحكمتها ولغايتها ، للتربية والعبرة وبناء الأخلاق والنظم والآداب .

وهذا الحادث الذى نزلت فيه تلك الآيات هو وحده موضع عبر وعظات جمة . .

هذا عبد الله ابن أبى ابن سلول . يعيش بين المسلمين . قريبا من رسول الله — صلى الله عليه وسلم — . تتوالى الأحداث والآيات من بين يديه ومن خلفه على حقيقة هذا الدين وصدق هذا الرسول . ولكن الله لايهدى قلبه للإيمان ، لأنه لم يكتب له هذه الرحمة وهذه النعمة . وتقف دونه ودون هذا الفيض المتدفق من النور والتأثير ، تقف دونه إحنة فى صدره أن لم يكن ملكا على الأوس والخزرج ، بسبب مقدم رسول الله — صلى الله عليه وسلم — بالإسلام إلى المدينة ! فتكفه هذه وحدها عن الهدى ، الذى تواجهه دلائله من كل جانب . وهو يعيش فى فيض الإسلام ومده فى يثرب !

وهذا ابنه عبد الله — رضى الله عنه وأرضاه — نموذج رفيع للمسلم المتجرد الطائع . يشقى بأبيه ويضيق بأفاعيله ويخجل من مواقفه . ولكنه يكن له مايكنه الولد البار العطوف . ويسمع أن رسول الله — صلى الله عليه وسلم — يريد أن يقتل أباه هذا . فيختلج قلبه بعواطف ومشاعر متباينة ، يواجهها هو فى صراحة وفى قوة وفى نصاعة . إنه يحب الإسلام ، ويحب طاعة رسول الله — صلى الله عليه وسلم — ويحب أن ينفذ أمره ولو فى أبيه . ولكنه لايطيق أن يتقدم أحد فيضرب عنق أبيه ويظل يمشى على الأرض بعده أمام ناظريه . وهو يخشى أن تخونه نفسه ، وألا يقدر على مغالبة شيطان العصبية ، وهتاف الثأر . وهنا يلجأ إلى نبيه وقائده ليعينه على خلجات قلبه ، ويرفع عنه هذا العنت الذى يلاقيه . فيطلب منه إن كان لابد فاعلا أن يأمره هو بقتل أبيه . وهو لابد مطيع . وهو يأتيه برأسه . كى لايتولى ذلك غيره ، فلايطيق أن يرى قاتل أبيه يمشى على الأرض . فيقتله . فيقتل مؤمنا بكافر . فيدخل النار . .

وإنها لروعة تواجه القلب أينما اتجه وأينما قلب النظر فى هذا الموقف الكريم . روعة الإيمان فى قلب إنسان ،وهو يعرض على رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن يكل إليه أشق عمل على النفس البشرية ـ أن يقتل أباه ـ وهو صادق النية فيما يعرض . يتقى به ماهو أكبر فى نظره وأشق . . وهو أن تضطره نوازعه البشرية إلى قتل مؤمن بكافر ، فيدخل النار . . وروعة الصدق والصراحة وهو يواجه ضعفه البشرى تجاه أبيهوهويقول : « فوالله لقد علمت الخزرج ماكان لها من رجل أبر بوالده منى » . وهو يطلب من نبيه وقائده أن يعينه على هذا الضعف ويخرجه من هذا الحرج ؛ لابأن يرد أمره أويغيره ـ فالأمر مطاع والإشارة نافذة ـ ولكن بأن يكل إليه هو أن يأتيه برأسه !

والرسول الكريم يرى هذه النفس المؤمنةالحرجة ، فيمسح عنها الحرج فى سماحة وكرامة: « بل نترفق به ونحسن صحبته مابقى معنا » . . ومن قبل هذا يكف عمر ابن الخطاب رضى اللهعنه عن رأيه : « فكيف ياعمر إذا تحدث الناس أن محمدا يقتل أصحابه ؟ ».

ثم تصرف الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى الحادث تصرف القائد الملهم الحكيم . . وأمره بالسير فى غير أوان ، ومتابعة السير حتى الإعياء ، ليصرف الناس عن العصبية المنتنة التى أثارها صياح الرجلين المتقاتلين : ياللأنصار ! ياللمهاجرين ! وليصرفهم كذلك عن الفتنة التى أطلقها المنافق عبدالله ابن أبى ابن سلول ، وأرادها أن تحرق مابين الأنصار والمهاجرين من مودة وإخاء فريدين فى تاريخ العقائد وفى تاريخ الإنسان .. وحديث الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ مع أسيد ابن حضير ، ومافيه من تعبئة روحية ضد الفتنة ، واستجاشة للأخذ على يد صاحبها وهو صاحب المكانة فى قومه حتى بعد الإسلام !

وأخيرا نقف أمام المشهد الرائع الأخير . مشهد الرجل المؤمن عبدالله ابن عبداللهابنأبى . وهويأخذبسيفه مدخل المدينة على أبيه فلايدعه يدخل . تصديقا لمقاله هو:« ليخرجن الأعزمنها الأذل » . ليعلم أن رسول الله هو الأعز . وأنه هو الأذل . ويظل يقفه حتى يأتى رسول الله ـ صلى اللهعليه وسلم ـ فيأذن له. فيدخلها بإذنه .ويتقرر بالتجربة الواقعة من هو الأعز ومن هو الأذل . فى نفس الواقعة . وفى ذات الأوان .

ألا إنها لقمة سامقة تلك التى رفع الإيمان إليها أولئك الرجال . رفعهم إلى هذه القمة، وهم بعد بشر، بهم ضعف البشر ، وفيهم عواطف البشر ، وخوالج البشر . وهذا هو أجمل وأصدق

مافى هذه العقيدة ، حين يدركها الناس على حقيقتها ، وحين يصبحون هم حقيقتها التى تدب على الأرض فى صورة أناسىّ تأكل الطعام وتمشى فى الأسواق .

* * *

ثم نعيش فى ظلال النصوص القرآنية التى تضمنت تلك الأحداث :

« وإذا قيل لهم تعالوا يستغفر لكم رسول الله لووا رؤوسهم ، ورأيتهم يصدون وهم مستكبرون » . .

فهم يفعلون الفعلة ، ويطلقون القولة . فإذا عرفوا أنها بلغت رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ جبنوا وتخاذلوا وراحوا يقسمون بالأيمان يتخذونها جنة . فإذا قال لهم قائل : تعالوا يستغفر لكم رسول الله، وهم فى أمن من مواجهته، لووا رؤوسهم ترفعا واستكبارا! وهذه وتلك سمتان متلازمتان فى النفس المنافقة . وإن كان هذا التصرف يجىء عادة ممن لهم مركز فى قومهم ومقام . ولكنهم هم فى ذوات أنفسهم أضعف من المواجهة ؛ فهم يستكبرون ويصدون ويلوون رؤوسهم ماداموا فى أمان من المواجهة . حتى إذا ووجهوا كان الجبن والتخاذل والأيمان !

ومن ثم يتوجه الخطاب إلى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بما قضاه الله فى شأنهم على كل حال . وبعدم جدوى الاستغفار لهم بعد قضاء الله :

« سواء عليهم أستغفرت لهم أم لم تستغفر لهم لن يغفر الله لهم . إن الله لا يهدى القوم الفاسقين » . .

ويحكى طرفا من فسقهم ، الذى استوجب قضاء الله فيهم :

« هم الذين يقولون : لا تنفقوا على من عند رسول الله حتى ينفضوا » . .

وهى قولة يتجلى فيها خبث الطبع ، ولؤم النحيزة . وهى خطة التجويع التى يبدو أن خصوم الحق والإيمان يتواصون بها على اختلاف الزمان والمكان ، فى حرب العقيدة ومناهضة الأديان . ذلك أنهم لخسة مشاعرهم يحسبون لقمة العيش هى كل شىء فى الحياة كما هى فى حسهم فيحاربون بها المؤمنين .

إنها خطة قريش وهى تقاطع بنى هاشم فى الشعب لينفضوا عن نصرة رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ويسلموه للمشركين !

وهى خطة المنافقين كما تحكيها هذه الآية لينفض أصحاب رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ عنه تحت وطأة الضيق والجوع !

وهى خطة الشيوعيين فى حرمان المتدينين فى بلادهم من بطاقات التموين ، ليموتوا جوعا أو يكفروا بالله ، ويتركوا الصلاة !

وهى خطة غيرهم ممن يحاربون الدعوة إلى الله وحركة البعث الإسلامى فى بلاد الإسلام ، بالحصار والتجويع ومحاولة سد أسباب العمل والارتزاق ..

وهكذا يتوافى على هذه الوسيلة الخسيسة كل خصوم الإيمان ، من قديم الزمان ، إلى هذا الزمان . . ناسين الحقيقة البسيطة التى يذكرهم القرآن بها قبل ختام هذه الآية :

« ولله خزائن السماوات والأرض . ولكن المنافقين لايفقهون » . .

ومن خزائن الله فى السماوات والأرض يرتزق هؤلاء الذين يحاولون أن يتحكموا فى أرزاق المؤمنين، فليسواهم الذين يخلقون رزق أنفسهم . فما أغباهم وأقل فقههم وهم يحاولون قطع الرزق عن الآخرين !

وهكذا يثبت الله المؤمنين ويقوى قلوبهم على مواجهة هذه الخطة اللئيمة والوسيلة الخسيسة، التى يلجأ أعداء الله إليها فى حربهم . ويطمئنهم إلى أن خزائن الله فى السماوات والأرض هى خزائن الأرزاق للجميع . والذى يعطى أعداءه لاينسى أولياءه . فقد شاءت رحمته ألا يأخذ حتى أعداءه من عباده بالتجويع وقطع الأرزاق . وقد علم أنهم لايرزقون أنفسهم كثيرا ولا قليلا لو قطع عنهم الأرزاق ! وهو أكرم أن يكل عباده — ولو كانوا أعداءه — إلى مايعجزون عنه البتة . فالتجويع خطة لايفكر فيها إلا أخس الأخساء وألأم اللؤماء !

ثم قولتهم الأخيرة :

« يقولون لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل » . .

وقد رأينا كيف حقق ذلك عبد الله بن عبدالله بن أبى ! وكيف لم يدخلها الأذل إلا بإذن الأعز !

« ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين . ولكن المنافقين لا يعلمون » . .

ويضم الله — سبحانه — رسوله والمؤمنين إلى جانبه ، ويضفى عليهم من عزته، وهو تكريم هائل لايكرمه إلا الله ! وأى تكريم بعد أن يوقف الله — سبحانه — رسوله والمؤمنين معه إلى جواره . ويقول : هانحن أولاء ! هذا لواء الأعزاء . وهذا هو الصف العزيز !

وصدق الله . فجعل العزة صنو الإيمان فى القلب المؤمن . العزة المستمدة من عزته تعالى . العزة التى لاتهون ولا تهن ، ولا تنحنى ولا تلين .ولا تزايل القلب المؤمن فى أحرج اللحظات إلا أن يتضعضع فيه الإيمان . فإذا استقر الإيمان ورسخ فالعزة معه مستقرة راسخة . .

« ولـكن المنافقين لايعلمون » . .

وكيف يعلمون وهم لايتذوقون هذه العزة ولا يتصلون بمصدرها الأصيل ؟

* * *

لهؤلاء المؤمنين الذين أوقفهم الله فى صف مع رسول الله – صلى الله عليه وسلم – وجعل عزتهم من عزته يوجه النداء الأخير فى السورة ، ليرتفعوا إلى هذا المكان الكريم ، ويبرأوا من كل صفة تشبه صفات المنافقين ، ويختاروا ذلك المقام الأسنى على الأموال والأولاد ، فلا يدعوها تلهيهم عن بلوغ ذلك المقام الوضىء :

«ياأيها الذين آمنوا لا تلهكم أموالكم ولا أولادكم عن ذكر الله . ومن يفعل ذلك فأولئك هم الخاسرون . وأنفقوا مما رزقناكم من قبل أن يأتى أحدكم الموت ، فيقول : رب لولا أخرتنى إلى أجل قريب فأصدق وأكن من الصالحين . ولن يؤخر الله نفسا إذا جاء أجلها ، والله خبير بما تعملون » . .

والأموال والأولاد ملهاة ومشغلة إذا لم يستيقظ القلب ، ويدرك غاية وجوده ، ويشعر أن له هدفا أعلى يليق بالمخلوق الذى نفخ الله فيه من روحه ، فأودع روحه الشوق إلى تحقيق بعض صفاته الإلهية فى حدود طاقته البشرية . وقد منحه الأموال والأولاد ليقوم بالخلافة فى الأرض لا لتلهيه عن ذكر الله والاتصال بالمصدر الذى تلقى منه ماهو به إنسان . ومن يغفل عن الاتصال بذلك المصدر ، ويلهه عن ذكر الله ليتم له هذا الاتصال « فأولئك هم الخاسرون » . . وأول مايخسرونه هو هذه السمة . سمة الإنسان . فهى موقوفة على الاتصال بالمصدر الذى صار به الإنسان إنسانا . ومن يخسر نفسه فقد خسر كل شىء . مهما يملك من مال ومن أولاد .

ويلمسهم فى موضوع الإنفاق لمسات متنوعة فى آية واحدة . .

« وأنفقوا مما رزقناكم » . . فيذكرهم بمصدر هذا الرزق الذى فى أيديهم . فهو من عند الله الذى آمنوا به والذى يأمرهم بالإنفاق .

« من قبل أن يأتى أحدكم الموت . . . » . .

فيترك كل شىء وراءه لغيره ؛ وينظر فلا يجد أنه قدم شيئا لنفسه ، وهذا أحمق الحمق وأخسر الخسران .

ثم يرجو حينئذ ويتمنى أن لو كان قد أمهل ليتصدق وليكون من الصالحين !

وأنى له هذا ؟ : « ولن يؤخر الله نفسا إذا جاء أجلها »؟

وأنى له مايتقدم به ؟ « والله خبير بما تعملون » ؟

إنها اللمسات المنوعة فى الآية الواحدة . فى مكانها المناسب بعد عرض سمات المنافقين وكيدهم للمؤمنين . ولواذ المؤمنين بصف الله الذى يقيهم كيد المنافقين . . فما أجدرهم إذن أن ينهضوا بتكاليف الإيمان ، وألا يغفلوا عن ذكر الله . وهو مصدر الأمان . .

وهكذا يربى الله المسلمين بهذا القرآن الكريم ..

سورة التغابن مدنية
وآياتها ١٨

بسم الله الرحمن الرحيم

« يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَاوَاتِ وَمَا فِي ٱلأرْضِ ، لَهُ ٱلْمُلْكُ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ ، وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ * هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنْكُمْ كَافِرٌ وَمِنْكُمْ مُؤْمِنٌ ، وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ * خَلَقَ ٱلسَّمَاوَاتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ، وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ ، وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ * يَعْلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَاوَاتِ وَٱلْأَرْضِ ، وَيَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ . وَٱللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ * أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ فَذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ ، وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ * ذَٰلِكَ بِأَنَّهُ كَانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُمْ بِٱلْبَيِّنَاتِ ، فَقَالُوا : أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا ؟ فَكَفَرُوا وَتَوَلَّوْا ، وَٱسْتَغْنَىٰ ٱللَّهُ ، وَٱللَّهُ غَنِيٌّ حَمِيدٌ .

« زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُبْعَثُوا . قُلْ : بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ ، وَذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ * فَآمِنُوا بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ، وَٱلنُّورِ ٱلَّذِي أَنْزَلْنَا ، وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ * يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ ٱلْجَمْعِ ، ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلتَّغَابُنِ . وَمَنْ يُؤْمِنْ بِٱللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحاً يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ ، وَيُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً ، ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ * وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ ٱلنَّارِ خَالِدِينَ فِيهَا وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ * مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ، وَمَنْ يُؤْمِنْ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ ، وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ * وَأَطِيعُوا ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا ٱلرَّسُولَ ، فَإِنْ

تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلْبَلَاغُ ٱلْمُبِينُ * ٱللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ .

« يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ . وَإِنْ تَعْفُوا وَتَصْفَحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ * إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَٱللَّهُ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ * فَاتَّقُوا ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ وَٱسْمَعُوا وَأَطِيعُوا وَأَنْفِقُوا خَيْرًا لِأَنْفُسِكُمْ. وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ * إِنْ تُقْرِضُوا ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَاعِفْهُ لَكُمْ ، وَيَغْفِرْ لَكُمْ ، وَٱللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ * عَالِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَادَةِ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ » . .

هذه السورة أشبه شيء بالسور المكية في موضوعها وفي سياقها وفي ظلالها وإيحاءاتها ، وبخاصة المقاطع الأولى منها . فلايكاد الجو المدني يتبين إلافي فقراتها الأخيرة .

والفقرات الأولى إلى ابتداء النداء: « ياأيها الذين آمنوا » .. تستهدف بناء أسس العقيدة، وإنشاء التصور الإسلامي فيالقلوب بأسلوب السور المكيةالتي تواجه الكفارالمشركين ابتداء ، وتخاطبهم بهذا التصور خطاب المبتدئ في مواجهته. ثم هي تستخدم المؤثرات الكونية والنفسية كما تستعرض مصائر الغابرين من المكذبين قبلهم ؛ وتعرض عليهم مشاهد القيامة لإثبات البعث، وتوكيده توكيدا شديدا ، يدل على أن المخاطبين به من المنكرين الجاحدين .

فأما الفقرات الأخيرة فهي تخاطب الذين آمنوا بمايشبه خطابهم في السور المدنية ، لحثهم على الإنفاق ، وتحذرهم فتنة الأموال والأولاد .وهي الدعوة التي تكررت نظائرها في العهد المدني بسبب مقتضيات الحياة الإسلامية الناشئة فيها. كما أن فيها ماقد يكون تعزيةعن مصاب أوتكاليف وقعت على عاتق المؤمنين ، ورد الأمر فيها إلى قدر الله ، وتثبيت هذا التصور ..وهو مايتكرر في السور المدنية وبخاصة بعد الأمر بالجهاد وما ينشأ عنه من تضحيات .

ولقد وردت روايات أن السورة مكية ، وتوردت روايات أخرى أنها مدنية مع ترجيحها. وكدت أميل إلى اعتبارها مكية تأثرا بأسلوب الفقرات الأولى فيها وجوها . ولكني أبقيت

اعتبارها مدنية ـ مع الرأى الراجح فيها ـ لأنه ليس مايمنع أن تكون الفقرات الأولى فيها خطابا للكفار بعد الهجرة سواء كانوا كفار مكة أم الكفار القريبين من المدينة . كما أنه ليس مايمنع أن يستهدف القرآن المدنى فى بعض الأحيان جلاء أسس العقيدة ، وإيضاح التصور الإسلامى ، بهذا الأسلوب الغالب على أسلوب القرآن المكى .. والله أعلم ..

* * *

والمقطع الأول فى السورة يستهدف بناء التصور الإيمانى الكونى ، وعرض حقيقة الصلة بين الخالق ـ سبحانه ـ وهذا الكون الذى خلقه . وتقرير حقيقة بعض صفات الله وأسمائه الحسنى وأثرها فى الكون وفى الحياة الإنسانية :

« يسبح لله مافى السماوات ومافى الأرض ، له الملك وله الحمد ، وهو على كل شىء قدير . هو الذى خلقكم فمنكم كافر ومنكم مؤمن والله بما تعملون بصير . خلق السماوات والأرض بالحق ، وصوركم فأحسن صوركم ، وإليه المصير . يعلم مافى السماوات والأرض ويعلم ماتسرون وماتعلنون. والله عليم بذات الصدور » ..

وهذا التصور الكونى الإيمانى هو أدق وأوسع تصور عرفه المؤمنون فى تاريخ العقيدة . ولقد جاءت الرسالات الإلهية كلها بوحدانية الله، وإنشائه لهذا الوجود ولكل مخلوق ، ورعايته لكل كائن فى الوجود . لاشك فى هذا لأن القرآن يحكيه عن الرسل وعن الرسالات كلها. ولاعبرة بما نجده فى الكتب المفتراة والمحرفة ؛ أو فيما يكتبه عن الديانات المقارنة أناس لايؤمنون بالقرآن كله أو بعضه . إنما جاء الانحراف عن العقيدة الإيمانية من أتباعها ، فبدا أنها لم تأت بالتوحيد الخالص ، أولم تأت بهيمنة الله واتصاله بكل كائن . فهذا من التحريف الطارىء لامن أصل الديانة . فدين الله واحد منذ أولى الرسالات إلى خاتمة الرسالات . ويستحيل أن ينزل الله دينا يخالف هذه القواعد ، كما يزعم الزاعمون بناء على مايجدونه فى كتب مفتراة أومحرفة باسم الدين !

ولكن تقرير هذه الحقيقة لاينافى أن التصور الإسلامى عن الذات الإلهية ،وصفاتها العلوية، وآثار هذه الصفات فى الكون وفى الحياة الإنسانية .. أن هذا التصور أوسع وأدق وأكمل من كل تصور سابق فى الديانات الإلهية . . وهذا متفق مع طبيعة الرسالة ومهمتها الأخيرة . ومع الرشد البشرى الذى جاءت هذه الرسالة لتخاطبه وتوجهه ؛ وتنشىء فيه هذا التصور الشامل الكامل بكل مقتضياته وفروعه وآثاره .

ومن شأن هذا التصور أن يدرك القلب البشرى – بمقدار مايطيق – حقيقة الألوهية وعظمتها، ويشعر بالقدرة الإلهية ويراها فى آثارها المشهودة فى الكون، ويحسها فى ذوات الأنفس بآثارها المشهودة والمدركة؛ ويعيش فى مجال هذه القدرة وبين آثارها التى لاتغيب عن الحس والعقل والإلهام. ويراها محيطة بكل شىء، مهيمنة على كل شىء، مدبرة لكل شىء، حافظة لكل شىء، لايند عنها شىء. سواء فى ذلك الكبير والصغير والجليل والحقير.

ومن شأنه كذلك أن يعيش القلب البشرى فى حساسية مرهفة، وتوفز دائم، وخشية وارتقاب، وطمع ورجاء؛ وأن يمضى فى الحياة معلقا فى كل حركة وكل خالجة بالله، شاعرا بقدرته وهيمنته، شاعرا بعلمه ورقابته، شاعرا بقهره وجبروته، شاعرا برحمته وفضله، شاعرا بقربه منه فى كل حال.

وأخيرا فإن من شأنه أن يحس بالوجود كله متجها إلى خالقه فيتجه معه، مسبحا بحمد ربه فيشاركه تسبيحه، مدبرا بأمره وحكمته فيخضع لشريعته وقانونه.. ومن ثم فهو تصور إيمانى كونى بهذا المعنى، وبمعان أخرى كثيرة تتجلى فى المواضع المتعددة فى القرآن التى تضمنت عرض جوانب من هذا التصور الإيمانى الشامل الكامل المحيط الدقيق. وأقرب مثل منها ماورد فى ختام سورة الحشر، فى هذ الجزء (١)

* * *

« يسبح لله مافى السماوات ومافى الأرض، له الملك وله الحمد » . .

فكل مافى السماوات والأرض متوجه إلى ربه، مسبح بحمده؛ وقلب هذا الوجود مؤمن، وروح كل شىء فى هذا الوجود مؤمنة، والله مالك كل شىء. وكل شىء شاعر بهذه الحقيقة. والله محمود بذاته ممجد من مخلوقاته. فإذا وقف الإنسان وحده فى خضم هذا الوجود الكبير كافر القلب جامد الروح، متمردا عاصيا، لايسبح لله، ولا يتجه إلى مولاه، فإنه يكون شاذا بارز الشذوذ، كما يكون فى موقف المنبوذ من كل مافى الوجود.

« وهو على كل شىء قدير » . .

فهى القدرة المطلقة، التى لاتتقيد بقيد. وهى حقيقة يطبعها القرآن فى القلب المؤمن فيعرفها ويتأثر بمدلولها، ويعلم أنه حين يركن إلى ربه فإنما يركن إلى قدرة تفعل ماتشاء، وتحقق ماتريد. بلا حدود ولا قيود.

(١) فكرة الإسلام عن الكون والحياة والإنسان.. بحث أرجو توفيق الله لإخراجه إلى حيز الوجود.

وهذا التصور لقدرة الله وتسبيح كل شيء له ، وتوجه الوجود إليه بالحمد .. هو طرف من ذلك التصور الإيمانى الكبير .

واللمسة الثانية فى صميم القلب الإنسانى ، الذى يقف فى خضم الوجود المؤمن المسبح بحمد الله . مؤمنا تارة وكافرا تارة . وهو وحده الذى يقف هذا الموقف الفريد .

« هو الذى خلقكم فمنكم كافرومنكم مؤمن » ..

فمن إرادة الله وعن قدرته صدر هذا الإنسان ؛ وأودع إمكان الاتجاه إلى الكفر وإمكان الاتجاه إلى الإيمان ؛ وتميز بهذا الاستعداد المزدوج من بين خلق الله ؛ ونيطت به أمانة الإيمان بحكم هذا الاستعداد . وهى أمانة ضخمة وتبعة هائلة . ولكن الله كرم هذا المخلوق فأودعه القدرة على التميز والقدرة على الاختيار ؛ وأمده بعد ذلك بالميزان الذى يزن به عمله ويقيس به اتجاهه . وهو الدين الذى نزله على رسل منه . فأعانه بهذا كله على حمل هذه الأمانة . ولم يظلمه شيئا .

« والله بما تعملون بصير » . .

فهو رقيب على هذا الإنسان فما يعمل ، بصير بحقيقة نيته واتجاهه ، فليعمل إذن وليحذر هذا الرقيب البصير ..

وهذا التصور لحقيقة الإنسان وموقفه هو طرف من التصور الإسلامى الواضح المستقيم لموقف الإنسان فى هذا الوجود ، واستعداداته وتبعاته أمام خالق الوجود .

واللمسة الثالثة تشير إلى الحق الأصيل الكامن فى طبيعة الوجود ، الذى تقوم به السماوات والأرض ، كما تشير إلى صنعة الله المبدعة فى كيان المخلوق الإنسانى . وتقرر رجعة الجميع إليه فى نهاية المطاف :

« خلق السماوات والأرض بالحق ، وصوركم فأحسن صوركم ، وإليه المصير » . .

وصدر هذا النص : «خلق السماوات والأرض بالحق » . . يقر فى شعور المؤمن أن الحق أصيل فى كيان هذا الكون ، ليس عارضا وليس نافلة ؛ فبناء الكون قام على هذا الأساس . والذى يقرر هذه الحقيقة هو الله الذى خلق السماوات والأرض ، والذى يعلم على أى أساس قامتا . واستقرار هذه الحقيقة فى الحس يمنحه الطمأنينة والثقة فى الحق الذى يقوم عليه دينه ، ويقوم عليه الوجود من حوله ؛ فهو لابد ظاهر ، ولابد باق ، ولابد مستقر فى النهاية بعد زبد الباطل!

والحقيقة الثانية : « وصوركم فأحسن صوركم » . . تشعر الإنسان بكرامته على الله، وبفضل الله عليه فى تحسين صورته : صورته الخلقية وصورته الشعورية . فالإنسان هو أكمل الأحياء فى الأرض من ناحية تكوينه الجثمانى ؛ كما أنه أرقاها من ناحية تكوينه الشعورى واستعداداته الروحية ذات الأسرار العجيبة. ومن ثم وكلت إليه خلافة الأرض ، وأقيم فى هذا الملك العريض بالقياس إليه !

ونظرة فاحصة إلى الهندسة العامة لتركيب الإنسان ، أو إلى أى جهاز من أجهزته ، تثبت تلك الحقيقة وتجسمها : « وصوركم فأحسن صوركم » . . وهى هندسة يجتمع فيها الجمال إلى الكمال . ويتفاوت الجمال بين شكل وشكل . ولكن التصميم فى ذاته جميل وكامل الصنعة ، وواف بكل الوظائف والخصائص التى يتفوق بها الإنسان فى الأرض على سائر الأحياء.

« وإليه المصير » . . مصير كل شىء، وكل أمر وكل خلق . مصير هذا الكون ومصير هذا الإنسان. فمن إرادته انبثق، وإليه ـ سبحانه ـ يعود . ومنه النشأ وإليه المصير . وهو الأول والآخر . المحيط بكل شىء من طرفيه : مبدئه ونهايته . وهو ـ سبحانه ـ غير محدود!

واللمسة الرابعة فى هذا المقطع هى تصوير العلم الإلهى المحيط بكل شىء ، المطلع على سر الإنسان وعلانيته ، وعلى ما هو أخفى من السر ، من ذوات الصدور الملازمة للصدور :

« يعلم ما فى السماوات والأرض، ويعلم ما تسرون وما تعلنون ، والله عليم بذات الصدور » . .

واستقرار هذه الحقيقة فى القلب المؤمن يفيده المعرفة بربه ، فيعرفه بحقيقته . ويمنحه جانبا من التصور الإيمانى الكونى . ويؤثر فى مشاعره واتجاهاته ؛ فيحيا حياة الشاعر بأنه مكشوف كله لعين الله . فليس له سر يخفى عليه ، وليس له نية غائرة فى الضمير لا يراها وهو العليم بذات الصدور .

وإن آيات ثلاثا كهذه لكافية وحدها ليعيش بها الإنسان مدركا لحقيقة وجوده ، ووجود الكون كله ، وصلته بخالقه ، وأدبه مع ربه ، وخشيته وتقواه ، فى كل حركة وكل اتجاه . .

* * *

والمقطع الثانى فى السورة يذكر بمصير الغابرين من المكذبين بالرسل والبينات ، المعترضين على بشرية الرسل . كما كان المشركون يكذبون ويعترضون على بشرية الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ ويكفرون بما جاءهم به من البينات :

« ألم يأتكم نبأ الذين كفروا من قبل فذاقوا وبال أمرهم ؟ ولهم عذاب أليم . ذلك بأنه كانت تأتيهم رسلهم بالبينات ، فقالوا : أبشر يهدوننا ؟ فكفروا وتولوا ، واستغنى الله ، والله غنى حميد » . .

والخطاب هنا للمشركين — غالبا — وهو تذكير لهم بعاقبة المكذبين وتحذير لهم من مثل هذه العاقبة . والاستفهام قد يكون لإنكار حالهم بعد ماجاءهم من نبأ الذين كفروا من قبل فذاقوا وبال أمرهم . وقد يكون للفت أنظارهم إلى هـذا النبأ الذى يقصه عليهم . وهم كانوا يعرفون ويتناقلون أنباء بعض الهلكى من الغابرين . كعاد وثمـود وقرى لوط . وهم يمرون عليها فى شبه الجزيرة ، فى رحلاتهم للشمال والجنوب .

ويضيف القرآن إلى المعروف من مآلهم فى الدنيا ما ينتظرهم هنالك فى الآخرة : « ولهم عذاب أليم » . . ثم يكشف عن السبب الذى استحقوا به ما نالهم وما ينتظرهم : « ذلك بأنه كانت تأتيهم رسلهم بالبينات فقالوا : أبشر يهدوننا ؟ » . . وهو الاعتراض ذاته الذى يعترضه المشركون على الرسول — صلى الله عليه وسلم — وهو اعتراض فج ناشىء عن الجهل بطبيعة الرسالة، وكونها منهجا إلهيا للبشر ، فلا بد أن تتمثل واقعيا فى بشر ، يحيا بها ، ويكون بشخصه ترجمانا لها ؛ فيصوغ الآخرون أنفسهم على مثاله بقدر مايستطيعون . ولا ينعزل هو عنهم بجنسه، فيتعذر أن يجدوا للرسالة صورة واقعية يحاولون تحقيقها فى ذوات أنفسهم ، وفى حياتهم ومعاشهم . وناشىء كذلك من الجهل بطبيعة الإنسان ذاته ورفعة حقيقته بحيث يتلقى رسالة السماء ويبلغها ، بدون حاجة إلى أن يحملها إلى الناس ملك كما كانوا يقترحون . ففى الإنسان تلك النفخة من روح الله، وهى تهيئة لاستقبال الرسالة من الله ، وأدائها كاملة كما تلقاها من الملأ الأعلى . وهى كرامة للجنس البشرى كله لا يرفضها إلا جاهل بقدر هذا الإنسان عند الله ، حين يحقق فى ذاته حقيقة النفخة من روح الله ! وناشىء فى النهاية من التعنت والاستكبار الكاذب عن اتباع رسول من البشر . كأن فى هذا غضا من قيمة هؤلاء الجهال المتكبرين ! فجائز فى عرفهم أن يتبعوا رسولا من خلق آخر غير جنسهم بلا غضاضة . أما أن يتبعوا واحدا منهم فهى فى نظرهم حطة وقلة قيمة !

ومن ثم كفروا وتولوا معرضين عن الرسل ومامعهم من البينات ، ووقفت فى صدورهم هذه الكبرياء وذلك الجهل . فاختاروا لأنفسهم الشرك والكفر . .

« واستغنى الله . والله غنى حميد » . . استغنى الله عنهم وعن إيمانهم وعن طاعتهم .. وماهو ـ سبحانه ـ بمحتاج إلى شىء منهم ولا من غيرهم ،ولا بمحتاج أصلا : « والله غنى حميد » .

فهذا نبأ الذين كفروا من قبل فذاقوا وبال أمرهم . وهذا سبب ماذاقوا وما ينتظرهم . فكيف يكذب بعد هذا النبأ مكذبون جدد ؟ أيلقوا مصيرا كهذا المصير ؟

***

والمقطع الثالث بقية للمقطع الثانى يحكى تكذيب الذين كفروا بالبعث ـ وظاهر أن الذين كفروا هم المشركون الذين كان الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ يواجههم بالدعوة ـ وفيه توجيه للرسول أن يؤكد لهم أمر البعث توكيدا وثيقا . وتصوير لمشهد القيامة ومصير المكذبين والمصدقين فيه ؛ ودعوة لهم إلى الإيمان والطاعة ورد كل شىء لله فيما يقع لهم فى الحياة :

« زعم الذين كفروا أن لن يبعثوا . قل بلى وربى لتبعثن ، ثم لتنبؤن بما عملتم . وذلك على الله يسير . فآمنوا بالله ورسوله والنور الذى أنزلنا . والله بما تعملون خبير . يوم يجمعكم ليوم الجمع ، ذلك يوم التغابن ، ومن يؤمن بالله ويعمل صالحا يكفر عنه سيئاته ، ويدخله جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها أبدا . ذلك الفوز العظيم . والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب النار خالدين فيها وبئس المصير . ماأصاب من مصيبة إلا بإذن الله ، ومن يؤمن بالله يهد قلبه ، والله بكل شىء عليم ، وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول ، فإن توليتم فإنما على رسولنا البلاغ المبين . الله لاإله إلاهو ، وعلى الله فليتوكل المؤمنون » . .

ومنذ البدء يسمى مقالة الذين كفروا عن عدم البعث زعما ، فيقضى بكذبه من أول لفظ فى حكايته . ثم يوجه الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ إلى توكيد أمر البعث بأوثق توكيد ، وهو أن يحلف بربه . وليس بعد قسم الرسول بربه توكيد : « قل : بلى وربى لتبعثن » . . « ثم لتنبؤن بما عملتم » . . فليس شىء منه بمتروك . والله أعلم منهم بعملهم حتى لينبئهم به يوم القيامة ! « ذلك على الله يسير » . . فهو يعلم مافى السماوات والأرض ويعلم السر والعلن وهو عليم بذات الصدور . وهو على كل شىء قدير . كما جاء فى مطلع السورة تمهيدا لهذا التقرير .

وفى ظل هذا التوكيد الوثيق يدعوهم إلى الإيمان بالله ورسوله والنور الذى أنزله مع رسوله. وهو هذا القرآن . وهو هذا الدين الذى يبشر به القرآن . وهو نور فى حقيقته بما أنه من عند الله . والله نور السماوات والأرض . وهو نور فى آثاره إذ ينير القلب فيشرق بذاته ويبصر الحقيقة الكامنة فيه هو ذاته .

ويعقب على دعوتهم إلى الإيمان ، بمـا يشعرهم أنهم مكشوفون لعين الله لايخفى عليـه منهم شىء : « والله بما تعملون خبير » ..

وبعد هذه الدعوة يعود إلى استكمال مشهد البعث الذى أكده لهم أوثق توكيد :

« يوم يجمعكم ليوم الجمع . ذلك يوم التغابن » ..

فأما أنه يوم الجمع فلأن جميع الخلائق فى جميع الأجيال تبعث فيه ، كما يحضره الملائكة وعددهم لايعلمه إلاالله . ولكن قد يقربه إلى التصور ماجاء فى حديث رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ عن أبى ذر رضى الله عنه ـ قال : قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : «إنى أرى مالاترون ، وأسمع مالاتسمعون . أطت السماء وحق لها أن تيط ، مافيها موضع أربع أصابع إلاوفيه ملك واضع جبهته لله تعالى ساجدا. والله لوتعلمون ماأعلم لضحكتم قليلا ، ولبكيتم كثيرا ، ولما تلذذتم بالنساء على الفرش ، ولخرجتم إلى الصعدات تجأرون إلى الله تعالى . لوددت أنى شجرة تعضد [1] » .

والسماء التى ليس فيها موضع أربع أصابع إلاوفيه ملك . هى هذا الاتساع الهائل الذى لايعرف له البشر حدودا . والذى تبدو فيه شمس كشمسنا ذرة كالهباءة الطائرة فى الفضاء !فهل هذا يقرب شيئا للتصور البشرى عن عدد الملائكة ؟ إنهم من بين الجمع فى يوم الجمع !

وفى مشهد من هذا الجمع يكون التغابن ! والتغابن مفاعلة من الغبن . وهو تصوير لما يقع من فوز المؤمنين بالنعيم ؛ وحرمان الكافرين من كل شىء منه ثم صيرورتهم إلى الجحيم . فهما نصيبان متباعدان . وكأنما كان هناك سباق للفوز بكل شىء ، وليغبن كل فريق مسابقه ! ففاز فيه المؤمنون وهزم فيه الكافرون ! فهو تغابن بهذا المعنى المصور المتحرك ! يفسره مابعده :

«ومن يؤمن بالله ويعمل صالحا يكفر عنه سيئاته ويدخله جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها أبدا. ذلك الفوز العظيم . والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب النار خالدين فيها وبئس المصير » . .

وقبل أن يكمل نداءه إليهم بالإيمان يقرر قاعدة من قواعد التصور الإيمانى فى القدر ، وفى أثر الإيمان بالله فى هداية القلب :

---

(١) أخرجه الترمذى .

« ماأصاب من مصيبة إلا بإذن الله . ومن يؤمن بالله يهد قلبه ، والله بكل شيء عليم » . .

ولعل مناسبة ذكر هذه الحقيقة هنا هي مجرد بيانها في صدد عرض حقيقة الإيمان الذي دعاهم إليه في هذا المقطع . فهو الإيمان الذي يرد كل شيء إلى الله ، ويعتقد أن كل مايصيب من خير ومن شر فهو بإذن الله . وهي حقيقة لايكون إيمان بغيرها . فهي أساس جميع المشاعر الإيمانية عند مواجهة الحياة بأحداثها خيرها وشرها . كما يجوز أن تكون هناك مناسبة حاضرة في واقع الحال عند نزول هذه السورة . أو هذه الآية من السورة ، فيما كان يقع بين المؤمنين والمشركين من وقائع .

وعلى أية حال فهذا جانب ضخم من التصور الإيماني الذي ينشئه الإسلام في ضمير المؤمن . فيحس يد الله في كل حدث ، ويرى يد الله في كل حركة ، ويطمئن قلبه لما يصيبه من الضراء ومن السراء. يصبر للأولى ويشكر للثانية .وقد يتسامى إلى آفاق فوق هذا ، فيشكر في السراء وفي الضراء ؛إذ يرى في الضراء كما في السراء فضل الله ورحمته بالتنبيه أو بالتكفير أو بترجيح ميزان الحسنات ، أو بالخير على كل حال :

وفي الحديث المتفق عليه : « عجبا للمؤمن ! لا يقضى الله قضاء إلا كان خيرا له . إن أصابته ضراء صبر فكان خيرا له . وإن أصابته سراء شكر فكان خيرا له . وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن » . .

« ومن يؤمن بالله يهد قلبه » . .

وقد فسرها بعض السلف بأنها الإيمان بقدر الله والتسليم له عند المصيبة . وعن ابن عباس يعني يهدي قلبه هداية مطلقة . ويفتحه على الحقيقة اللدنية المكنونة . ويصله بأصل الأشياء والأحداث ، فيرى هناك منشأها وغايتها . ومن ثم يطمئن ويقر ويستريح . ثم يعرف المعرفة الواصلة الكلية فيستغني عن الرؤية الجزئية المحفوفة بالخطأ والقصور .

ومن ثم يكون التعقيب عليها :

« والله بكل شيء عليم » . .

فهي هداية إلى شيء من علم الله ، يمنحه لمن يهديه ، حين يصح إيمانه فيستحق إزاحة الحجب ، وكشف الأسرار . . بمقدار . .

ويتابع دعوتهم إلى الإيمان فيدعوهم إلى طاعة الله وطاعة الرسول :

« وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول ، فإن توليتم فإنما على رسولنا البلاغ المبين » . .

وقد عرض عليهم من قبل مصير الذين تولوا . وهنا يقرر لهم أن الرسول مبلغ . فإذا بلغ فقد أدى الأمانة ، ونهض بالواجب ، وأقام الحجة . وبقى ماينتظرهم هم من المعصية والتولى ، مما ذكروا به منذ قليل .

ثم يختم هـذا المقطع بتقرير حقيقة الوحدانية التى ينكرونها ويكذبونها ، ويقرر شأن المؤمنين بالله فى تعاملهم مع الله :

« الله لاإله إلاهو ، وعلى الله فليتوكل المؤمنون » . .

وحقيقة التوحيد هى أساس التصور الإيمانى كله . ومقتضاها أن يكون التوكل عليه وحده . فهذا هو أثر التصور الإيمانى فى القلوب .

وبهذه الآية يدخل السياق فى خطاب المؤمنين . فهى وصلة بين مامضى من السورة ومايجىء .

* **

وفى النهاية يوجه الخطاب إلى المؤمنين يحذرهم فتنة الأزواج والأولاد والأموال ، ويدعوهم إلى تقوى الله ، والسمع والطاعة والإنفاق ، كما يحذرهم شح الأنفس ، ويعدهم على ذلك مضاعفة الرزق والمغفرة والفلاح . ويذكرهم فى الختام بعلم الله للحاضر والغائب ، وقدرته وغلبته ، مع خبرته وحكمته :

« ياأيها الذين آمنوا إن من أزواجكم وأولادكم عدوا لكم فاحذروهم ، وإن تعفوا وتصفحوا وتغفروا فإن الله غفور رحيم . إنما أموالكم وأولادكم فتنة ، والله عنده أجر عظيم . فاتقوا الله مااستطعتم ، واسمعوا وأطيعوا ، وأنفقوا خيرا لأنفسكم ، ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون . إن تقرضوا الله قرضا حسنا يضاعفه لكم ، ويغفر لكم ، والله شكور حليم . عالم الغيب والشهادة العزيز الحكيم » . .

وقد ورد عن ابن عباس ــ رضى الله عنه ــ فى الآية الأولى من هذا السياق وقد سأله عنها رجل فقال : فهؤلاء رجال أسلموا من مكة ، فأرادوا أن يأتوا إلى رسول الله ــ صلى الله تعالى عليه وسلم ــ فأبى أزواجهم وأولادهم أن يدعوهم . فلما أتوا رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ رأوا الناس قد فقهوا فى الدين ، فهموا أن يعاقبوهم ، فأنزل الله هذه الآية : « وإن تعفوا وتصفحوا وتغفروا فإن الله غفور رحيم » . . وهكذا رواه الترمذى بإسناد آخر وقال : حسن صحيح . وهكذا قال عكرمة مولى ابن عباس .

ولكن النص القرآني أشمل من الحادث الجزئي وأبعد مدى وأطول أمدا . فهذا التحذير من الأزواج والأولاد كالتحذير الذى فى الآية التالية من الأموال والأولاد معا: « إنما أموالكم وأولادكم فتنة » . . والتنبيه إلى أن من الأزواج والأولاد من يكون عدوا .. إن هذا يشير إلى حقيقة عميقة فى الحياة البشرية . ويمس وشائج متشابكة دقيقة فى التركيب العاطفى وفى ملابسات الحياة سواء . فالأزواج والأولاد قد يكونون مشغلة وملهاة عن ذكر الله . كما أنهم قد يكونون دافعا للتقصير فى تبعات الإيمان اتقاء للمتاعب التى تحيط بهم لو قام المؤمن بواجبه فلقى ما يلقاه المجاهد فى سبيل الله ! والمجاهد فى سبيل الله يتعرض لخسارة الكثير ، وتضحية الكثير . كما يتعرض هو وأهله للعنت . وقد يحتمل العنت فى نفسه ولا يحتمله فى زوجه وولده . فيبخل ويجبن ليوفر لهم الأمن والقرار أو المتاع والمال ! فيكونون عدوا له ، لأنهم صدوه عن الخير ، وعوقوه عن تحقيق غاية وجوده الإنسانى العليا. كما أنهم قد يقفون له فى الطريق يمنعونه من النهوض بواجبه، اتقاء لما يصيبهم من جرائه ، أو لأنهم قد يكونون فى طريق غير طريقه ، ويعجز هو عن المفاصلة بينه وبينهم والتجرد لله .. وهى كذلك صور من العداوة متفاوتة الدرجات . . وهذه وتلك مما يقع فى حياة المؤمن فى كل آن .

ومن ثم اقتضت هذه الحال المعقدة المتشابكة ، التحذير من الله ، لإثارة اليقظة فى قلوب الذين آمنوا ، والحذر من تسلل هذه المشاعر ، وضغط هذه المؤثرات .

ثم كرر هـذا التحذير فى صورة أخـرى من فتنة الأموال والأولاد . وكلمة فتنة تحتمل معنيين :

الأول أن الله يفتنكم بالأموال والأولاد بمعنى يختبركم ، فانتبهوا لهذا ، وحاذروا وكونوا أبدا يقظين لتنجحوا فى الابتلاء ، وتخلصوا وتتجردوا لله . كما يفتن الصائغ الذهب بالنار ليخلصه من الشوائب !

والثانى أن هذه الأموال والأولاد فتنة لكم توقعكم بفتنتها فى المخالفة والمعصية ، فاحذروا هذه الفتنة لا تجرفكم وتبعدكم عن الله .

وكلا المعنيين قريب من قريب .

وقد روى الإمام أحمد ــ بإسناده ــ عن عبد الله ابن بريدة : سمعت أبى بريدة يقول : « كان رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ يخطب ، فجاء الحسن والحسين ــ رضى الله عنهما ــ عليهما قميصان

أحمران ، يمشيان ويعثران فنزل رسول الله — صلى الله عليه وسلم — من المنبر فحملها ، فوضعها بين يديه . ثم قال: « صدق الله ورسوله . إنما أموالكم وأولادكم فتنة. نظرت إلى هذين الصبيين يمشيان ويعثران ، فلم أصبر حتى قطعت حديثي ورفعتها » . . ورواه أهل السنة من حديث ابن واقد . فهذا رسول الله — صلى الله عليه وسلم — وهذان ابنا بنته . . وإنه لأمر إذن خطير . وخطر . وإن التحذير والتنبيه فيه لضرورة يقدرها من خلق قلوب الناس ، وأودعها هذه المشاعر ، لتكفكف نفسها عن التمادى والإفراط ، وهى تعلم أن هذه الوشائج الحبيبة قد تفعل بها ما يفعل العدو ، وتؤدى بها إلى ماتؤدى إليه مكايد الأعداء !

ومن ثم يلوح لها بما عند الله بعد التحذير من فتنة الأموال والأولاد ، والعداوة المستسرة فى بعض الأبناء والأزواج . فهذه فتنة « والله عنده أجر عظيم » . .

ويهتف للذين آمنوا بتقوى الله فى حدود الطاقه والاستطاعة ، وبالسمع والطاعة :

« فاتقوا الله ما استطعتم — واسمعوا وأطيعوا » . .

وفى هذا القيد : « ما استطعتم » يتجلى لطف الله بعباده ، وعلمه بمدى طاقتهم فى تقواه وطاعته . وقد قال رسول الله — صلى الله عليه وسلم — : « إذا أمرتكم بأمر فأتوا منه ما استطعتم وما نهيتكم عنه فاجتنبوه »[1] فالطاعة فى الأمر ليس لها حدود، ومن ثم يقبل فيها ما يستطاع . أما النهى فلا تجزئة فيه فيطلب بكامله دون نقصان .

ويهيب بهم إلى الإنفاق :

« وأنفقوا خيرا لأنفسكم » . .

فهم ينفقون لأنفسهم . وهو يأمرهم أن ينفقوا الخير لأنفسهم . فيجعل ما ينفقونه كأنه نفقة مباشرة لذواتهم ، ويعدها الخير لهم حين يفعلون .

ويريهم شح النفس بلاء ملازماً . السعيد السعيد من يخلص منه ويوقاه ؛ والوقاية منه فضل من الله :

« ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون » . .

ثم يمضى فى إغرائهم بالبذل وتحبيبهم فى الإنفاق ، فيسمى إنفاقهم قرضا لله . ومن ذا الذى لا يربح هذه الفرصة التى يقرض فيها مولاه ؟ وهو يأخذ القرض فيضاعفه ويغفر به ، ويشكر المقرض ، ويحلم عليه حين يقصر فى شكره . وهو الله !

(١) رواه الشيخان عن أبى هريرة .

« إن تقرضوا الله قرضا حسنا يضاعفه لكم ويغفر لكم . والله شكور حليم » . .

وتبارك الله . ما أكرمه ! وما أعظمه ! وهو ينشىء العبد ثم يرزقه . ثم يسأله فضل ما أعطاه . قرضا . يضاعفه . ثم . . يشكر لعبده الذى أنشأه وأعطاه ! ويعامله بالحلم فى تقصيره هو عن شكر مولاه ! . . يالله ! ! !

إن الله يعلمنا — بصفاته — كيف نتسامى على نقصنا وضعفنا ، ونتطلع إلى أعلى دائما لنراه — سبحانه — ونحاول أن نقلده فى حدود طاقتنا الصغيرة المحدودة . وقد نفخ الله فى الإنسان من روحه. فجعله مشتاقا أبدا إلى تحقيق المثل الأعلى فى حدود طاقته وطبيعته ، ومن ثم تبقى الآفاق العليا مفتوحة دائما ليتطلع هذا المخلوق إلى الكمال المستطاع ، ويحاول الارتفاع درجة بعد درجة ، حتى يلقى الله بما يحبه له ويرضاه .

ويختم هذه الجولة بعد هذا الإيقاع العجيب ، بصفة الله التى بها الاطلاع والرقابة على القلوب:

« عالم الغيب والشهادة العزيز الحكيم » . .

فكل شىء مكشوف لعلمه ، خاضع لسلطانه ، مدبر بحكمته . كى يعيش الناس وهم يشعرون بأن عين الله تراهم ، وسلطانه عليهم ، وحكمته تدبر الأمر كله حاضره وغائبه. ويكفى أن يستقر هذا التصور فى القلوب ، لتتقى الله وتخلص له وتستجيب .

سورة الطلاق مدنية
وآياتها ١٢

بسم الله الرحمن الرحيم

« يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ ، وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ ، وَاتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ ، لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ ، وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّا أَنْ يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ ، وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ ، وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ ، لَا تَدْرِي لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَٰلِكَ أَمْراً .

« فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ ، وَأَشْهِدُوا ذَوَيْ عَدْلٍ مِنْكُمْ ، وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ لِلَّهِ ، ذَٰلِكُمْ يُوعَظُ بِهِ مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ، وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً * وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ، وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ ، إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ ، قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْراً .

« وَاللَّائِي يَئِسْنَ مِنَ الْمَحِيضِ مِنْ نِسَائِكُمْ إِنِ ارْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَاثَةُ أَشْهُرٍ وَاللَّائِي لَمْ يَحِضْنَ ، وَأُولَاتُ الْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ ، وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْراً * ذَٰلِكَ أَمْرُ اللَّهِ أَنْزَلَهُ إِلَيْكُمْ ، وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُعْظِمْ لَهُ أَجْراً .

« أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنْتُمْ مِنْ وُجْدِكُمْ ، وَلَا تُضَارُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُوا عَلَيْهِنَّ ، وَإِنْ كُنَّ أُولَاتِ حَمْلٍ فَأَنْفِقُوا عَلَيْهِنَّ حَتَّىٰ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ ، فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَآتُوهُنَّ

أُجُورَهُنَّ ، وَأْتَمِرُوا بَيْنَكُمْ بِمَعْرُوفٍ ، وَإِنْ تَعَاسَرْتُمْ فَسَتُرْضِعُ لَهُ أُخْرَىٰ * لِيُنْفِقْ ذُو سَعَةٍ مِنْ سَعَتِهِ ، وَمَنْ قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنْفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ ، لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَا آتَاهَا ، سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا .

« وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِ فَحَاسَبْنَاهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَّبْنَاهَا عَذَابًا نُكْرًا * فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا ، وَكَانَ عَاقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا * أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ، فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ الَّذِينَ آمَنُوا ، قَدْ أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا * رَسُولًا يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِ اللَّهِ مُبَيِّنَاتٍ لِيُخْرِجَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ، وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ، قَدْ أَحْسَنَ اللَّهُ لَهُ رِزْقًا * اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ ، يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ ، لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ، وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا » . .

هذه سورة الطلاق ، يبين الله فيها أحكامه ، ويفصل فيها الحالات التى لم تفصل فى السورة الأخرى (سورة البقرة) التى تضمنت بعض أحكام الطلاق ؛ ويقرر فيها أحكام الحالات المتخلفة عن الطلاق من شؤون الأسرة . وقد تضمنت هذه السورة بيان الوقت الذى يمكن أن يقع فيه الطلاق الذى يقبله الله ويجرى وفق سنته: « ياأيها النبى إذا طلقتم النساء فطلقوهن لعدتهن » . .

وحق المطلقة وواجبها فى البقاء فى بيتها ــ وهو بيت مطلقها ــ فترة العدة لاتخرج ولاتخرج إلا أن تأتى بفاحشة مبينة : « لا تخرجوهن من بيوتهن ولا يخرجن إلا أن يأتين بفاحشة مبينة » . .

وحقها بعد انقضاء العدة فى الخروج لتفعل بنفسها ماتشاء ، مالم يكن الزوج قد راجعها وأمسكها فى فترة العدة ، لاليضارها ويؤذيها بهذا الإمساك ويعطلها عن الزواج ، ولكن لتعود الحياة الزوجية بينهما بالمعروف : « فإذا بلغن أجلهن فأمسكوهن بمعروف أوفارقوهن

بمعروف » . . وهذا مع الإشهاد على الإمساك أوالفراق : « وأشهدوا ذوى عدل منكم » . .

وفى سورة البقرة بين مدة العدة للمطلقة ذات الحيض ـ وهى ثلاثة قروء بمعنى ثلاث حيضات أو ثلاثة أطهار من الحيضات على خلاف فقهى ـ وهنا بين هذه المدة بالنسبة للآيسة التى انقطع حيضها وللصغيرة التى لم تحض : « واللائى يئسن من المحيض من نسائكم إن ارتبتم فعدتهن ثلاثة أشهر واللائى لم يحضن » . .

وبين عدة الحامل : « وأولات الأحمال أجلهن أن يضعن حملهن » . .

ثم فصل حكم السكن الذى تعتد فيه المعتدة ونفقة ذات الحمل حتى تضع : « أسكنوهن من حيث سكنتم من وجدكم ، ولا تضاروهن لتضيقوا عليهن . وإن كن أولات حمل فأنفقوا عليهن حتى يضعن حملهن » . .

ثم حكم الرضاعة لولد المطلقة حين تضعه ،وأجر الأم على الرضاعة فى حالة الاتفاق بينها وبين أبيه على مصلحة الطفل بينهما ، وفى حالة إرضاعه من أخرى : « فإن أرضعن لكم فآتوهن أجورهن وأتمروا بينكم بمعروف . وإن تعاسرتم فسترضع له أخرى » . .

ثم زاد حكم النفقة والأجر فى جميع الحالات تفصيلا ، فجعله تابعا لحالة الزوج وقدرته : « لينفق ذو سعة من سعته ، ومن قدر عليه رزقه فلينفق مما آتاه الله . لا يكلف الله نفسا إلا ما آتاها » . .

وهكذا تتبعت النصوص سائر الحالات ، وما يتخلف عنها ، بأحكام مفصلة دقيقة ، ولم تدع شيئا من أنقاض الأسرة المفككة بالطلاق إلا أراحته فى مكانه ، وبينت حكمه ، فى رفق وفى دقة وفى وضوح . .

***

ويقف الإنسان مدهوشا أمام هذه السورة وهى تتناول أحكام هذه الحالة ومتخلفاتها . وهى تحشد للأمر هذا الحشد العجيب من الترغيب والترهيب ، والتعقيب على كل حكم ، ووصل هذا الأمر بقدر الله فى السماوات والأرضين ، وسنن الله فى هلاك العاتين عن أمره ، وفى الفرج والسعة لمن يتقونه . وتكرار الأمر بالمعروف والسماحة والتراضى ، وإيثار الجميل . والإطماع فى الخير . والتذكير بقدر الله فى الخلق وفى الرزق ، وفى اليسر والعسر . .

يقف الإنسان مدهوشا أمام هذا الحشد من الحقائق الكونية الكبرى فى معرض الحديث

عن الطلاق أمام هذا الاحتفال والاهتمام — حتى ليوجه الخطاب إلى النبى — صلى الله عليه وسلم — بشخصه ، وهو أمر عام للمؤمنين وحكم عام للمسلمين ، زيادة فى الاهتمام وإشعارا بخطورة الأمر المتحدث فيه . وأمام هذا التفصيل الدقيق للأحكام حالة حالة ، والأمر المشدد فى كل حكم بالدقة فى مراعاته ، وتقوى الله فى تنفيذه ، ومراقبة الله فى تناوله . والإطالة فى التعقيب بالترغيب والترهيب ، إطالة تشعر القلب كأن هذا الأمر هو الإسلام كله ! وهو الدين كله ! وهو القضية التى تفصل فيها السماء ، وتقف لتراقب تنفيذ الأحكام ! وتعد المتقين فيها بأكبر وأسمى مايتطلع إليه المؤمن ؛ وتوعد الملتوين والمتلكئين والمضارّين بأعنف وأشد مايلقاه عاصٍ ؛ وتلوح للناس بالرجاء الندى والخير المخبوء وراء أخذ الأمر بالمعروف والسماحة والتجمل والتيسير .

ويقرأ القارىء فى هذه السورة . . « واتقوا الله ربكم » . . « وتلك حدود الله ومن يتعد حدود الله فقد ظلم نفسه » . . « لاتدرى لعل الله يحدث بعد ذلك أمرا » . . « وأشهدوا ذوى عدل منكم وأقيموا الشهادة لله » . . « ذلكم يوعظ به من كان يؤمن بالله واليوم الآخر » . . « ومن يتق الله يجعل له مخرجا ويرزقه من حيث لا يحتسب . ومن يتوكل على الله فهو حسبه إن الله بالغ أمره . قد جعل الله لكل شىء قدرا » . . « ومن يتق الله يجعل له من أمره يسرا » . « ذلك أمر الله أنزله إليكم » « ومن يتق الله يكفر عنه سيئاته ويعظم له أجرا » . . « سيجعل الله بعد عسر يسرا » . .

كما يقرأ ذلك التهديد العنيف الطويل المفصل : « وكأى من قرية عتت عن أمر ربها ورسله فحاسبناها حسابا شديدا ، وعذبناها عذابا نكرا . فذاقت وبال أمرها وكان عاقبة أمرها خسرا . أعد الله لهم عذابا شديدا » . .

يعقبه التحذير من مثل هـذا المصير ، والتذكير بنعمة الله بالرسول ومامعه من النور ، والتلويح بالأجر الكبير : « فاتقوا الله ياأولى الألباب الذين آمنوا ، قد أنزل الله إليكم ذكرا : رسولا يتلو عليكم آيات الله مبينات ليخرج الذين آمنوا وعملوا الصالحات من الظلمات إلى النور . ومن يؤمن بالله ويعمل صالحا يدخله جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها أبدا قد أحسن الله له رزقا » . .

ثم يقرأ هذا الإيقاع الهائل الضخم فى المجال الكونى الكبير : « الله الذى خلق سبع سماوات ومن الأرض مثلهن ، يتنزل الأمر بينهن ، لتعلموا أن الله على كل شىء قدير ، وأن الله قد أحاط بكل شىء علما » . .

يقرأ هذا كله تعقيبا على أحكام الطلاق . ويجد سورة كاملة فى القرآن ، من هذا الطراز ، كلها موقوفة على تنظيم هذه الحالة ومتخلفاتها كذلك ! وربطها هكذا بأضخم حقائق الإيمان فى المجال الكونى والنفسى. وهى حالة تهدم لاحالة بناء ، وحالة انتهاء لاحالة إنشاء .. لأسرة . . لا لدولة .. وهى توقع فى الحس أنها أضخم من إنشاء دولة !

علام يدل هذا ؟

إن له عدة دلالات تجتمع كلها عند سمو هذا الدين وجديته وانبثاقه من نبع غير بشرى على وجه التأكيد . حتى لو لم تكن هناك دلالة أخرى سوى دلالة هذه السورة !

إنه يدل ابتداء على خطورة شأن الأسرة فى النظام الإسلامى :

فالإسلام نظام أسرة . البيت فى اعتباره مثابة وسكن ، فى ظله تلتقى النفوس على المودة والرحمة والتعاطف والستر والتجمل والحصانة والطهر ؛ وفى كنفه تنبت الطفولة ، وتدرج الحداثة ؛ ومنه تمتد وشائج الرحمة وأواصر التكافل .

ومن ثم يصور العلاقة البيتية تصويرا رفافا شفيفا ، يشع منه التعاطف ، وترف فيه الظلال ، ويشيع فيه الندى ، ويفوح منه العبير : « ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة » . . « هن لباس لكم وأنتم لباس لهن » .. فهى صلة النفس بالنفس ، وهى صلة السكن والقرار ، وهى صلة المودة والرحمة ، وهى صلة الستر والتجمل . وإن الإنسان ليحس فى الألفاظ ذاتها حنوا ورفقا ، ويستروح من خلالها نداوة وظلا . وإنها لتعبير كامل عن حقيقة الصلة التى يفترضها الإسلام لذلك الرباط الإنسانى الرقيق الوثيق . ذلك فى الوقت الذى يلحظ فيه أغراض ذلك الرباط كلها ، بما فيها امتداد الحياة بالنسل ، فيمنح هذه الأغراض كلها طابع النظافة والبراءة ، ويعترف بطهارتها وجديتها ، وينسق بين اتجاهاتها ومقتضياتها . ذلك حين يقول : « نساؤكم حرث لكم » . فيلحظ كذلك معنى الإخصاب والإكثار .

ويحيط الإسلام هذه الخلية ، أو هذا المحضن ، أو هذه المثابة بكل رعايته وبكل ضماناته. وحسب طبيعة الإسلام الكلية ، فإنه لا يكتفى بالإشعاعات الروحية ، بل يتبعها التنظيمات القانونية والضمانات التشريعية (١) .

---

(١) كتاب السلام العالمى والإسلام . فصل : إسلام البيت

والذى ينظر فى تشريعات الأسرة فى القرآن والسنة فى كل وضع من أوضاعها ولكل حالة من حالاتها ، وينظر فى التوجيهات المصاحبة لهذه التشريعات ، وفى الاحتشاد الظاهر حولها بالمؤثرات والمعقبات ؛ وفى ربط هذا الشأن بالله مباشرة فى كل موضع ، كما هو الحال فى هذه السورة وفى غيرها . . يدرك إدراكا كاملا ضخامة شأن الأسرة فى النظام الإسلامى ، وقيمة هذا الأمر عند الله ، وهو يجمع بين تقواه ـ سبحانه ـ وتقوى الرحم فى أول سورة النساء حيث يقول : « ياأيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة ، وخلق منها زوجها وبث منهما رجالا كثيرا ونساء ، واتقوا الله الذى تساءلون به والأرحام . إن الله كان عليكم رقيبا » . كما يجمع بين عبادة الله والإحسان للوالدين فى سورة الإسراء وفى غيرها : « وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحسانا » . . وبين الشكر لله والشكر للوالدين فى سورة لقمان : « أن اشكر لى ولوالديك » . .

وإن هذه العناية القصوى بأمر الأسرة لتتناسق مع مجرى القدر الإلهى بإقامة الحياة البشرية ابتداء على أساس الأسرة ، حين جرى قدر الله أن تكون أول خلية فى الوجود البشرى هي أسرة آدم وزوجه ، وأن يتكاثر الناس بعد ذلك من هذه الخلية الأولى . وكان الله ـ سبحانه ـ قادرا على أن يخلق الملايين من الأفراد الإنسانيين دفعة واحدة . ولكن قدره جرى بهذا لحكمة كامنة فى وظيفة الأسرة الضخمة فى حياة هذا المخلوق ، حيث تلبي حياة الأسرة فطرته واستعداداته ، وحيث تنمى شخصيته وفضائله ، وحيث يتلقى فيها أعمق المؤثرات فى حياته . ثم جرت هذه العناية فى النظام الإسلامى ـ منهج الله الأخير فى الأرض ـ مع القدر الإلهى فى خلقة الإنسان ابتداء . كما هو الشأن فى تناسق كل مايصدر عن الله بلا تفاوت ولا اختلاف (١)

والدلالة الثانية لسياق السورة، وللاحتفال بشأن العلاقات الزوجية والعائلية هذا الاحتفال فى القرآن كله ، هى اتجاه النظام الإسلامى لرفع هذه العلاقات الإنسانية إلى مستوى القداسة المتصلة بالله ؛ واتخاذها وسيلة للتطهر الروحى والنظافة الشعورية ـ لا كما كان ينظر إليها فى العقائد الوثنية ، وعند أتباع الديانات المحرفة ، البعيدة بهذا التحريف عن فطرة الله التى فطر الناس عليها .

« إن الإسلام لايحارب دوافع الفطرة ولا يستقذرها ، إنما ينظمها ويطهرها ، ويرفعها عن المستوى الحيوانى ، ويرقيها حتى تصبح هى المحور الذى يدور عليه الكثير من الآداب النفسية

(١) كتاب : نحو مجتمع إسلامى . فصل : « مجتمع عائلى » .. لم يصدر بعد ..

والاجتماعية . ويقيم العلاقات الجنسية على أساس من المشاعر الإنسانية الراقية ، التى تجعل من التقاء جسدين ، التقاء نفسين وقلبين وروحين . وبتعبير شامل التقاء إنسانين ، تربط بينهما حيـاة مشتركة ،وآمال مشتركة ، وآلام مشتركة ، ومستقبل مشترك ، يلتقى فى الذرية المرتقبة ، ويتقابل فى الجيل الجـديد ، الذى ينشأ فى العش المشترك ، الذى يقوم عليه الوالدان حارسين لا يفترقان » (١)

ويعد الإسلام الزواج وسيلة للتطهر والارتفاع فيدعو الأمة المسلمة لتزويج رجالها ونسائها إذا قام المال عقبة دون تحقيق هذه الوسيلة الضرورية لتطهير الحياة ورفعها: « وأنكحواالأيامى منكم والصالحين من عبادكم وإمائكم ، إن يكونوا فقراء يغنهم الله من فضله والله واسع عليم . وليستعفف الذين لايجدون نـكاحاحتى يغنيهم الله من فضله » . . ويسمى الزواج إحصانا أى وقاية وصيانة. ويستقر فى أخلاد المؤمنين أن البقاء بدون إحصان ولو فترة قصيرة لاينال رضى الله . فيقول الإمام على ــ كرم الله وجهه ــ وقد سارع بالزواج عقب وفاة زوجه فاطمة بنت الرسول ــ صلى الله عليه وسلم ــ : « لقد خشيت أن ألقى الله وأنا عزب » . . فيدخل الزواج فى عرف المؤمن فى الطاعات التى يتقرب بها إلى ربه . وترتفع هذه الصلة إلى مكان القداسة فى ضميره بمـا أنها إحدى الطاعات لربه .

والدلالة الثالثة لسياق سورة الطلاق ونظائرها هى واقعية هذا النظام الإسلامى ومعاملته للحياة وللنفس البشرية كما هى فى فطرتها ، مع محاولة رفعها إلى ذلك المستوى الـكريم ، عن طريق استعداداتها وملابسات حياتها .ومن ثم لايـكتفى بالتشريع الدقيق فى هذا الأمر الموكول إلى الضمير . ولا يكتفى بالتوجيه . ويستخدم هذا وذاك فى مواجهة واقع النفس وواقع الحياة .

إن الأصل فى الرابطة الزوجية هو الاستقرار والاستمرار . والإسلام يحيط هذه الرابطة بكل الضمانات التى تكفل استقرارها واستمرارها . وفى سبيل هـذه الغاية يرفعها إلى مرتبة الطاعات ، ويعين على قيامها بمال الدولة للفقراء والفقيرات ، ويفرض الآداب التى تمنع التبرج والفتنة كى تستقر العواطف ولا تتلفت القلوب على هتاف الفتنة المتبرجة فى الأسواق ! ويفرض حد الزنا وحد القذف ؛ويجعل للبيوت حرمتها بالاستئذان عليها والاستئذان بين أهلها فى داخلها. وينظم الارتباطات الزوجيـة بشريعة محددة ، ويقيم نظام البيت على أساس قوامة أحـد

(١) فى ظلال القرآن . الجزء ١٨ ص ٦٠

الشريكين وهو الأقدر على القوامة ، منعا للفوضى والاضطراب والنزاع ... إلى آخر الضمانات والتنظيمات الواقية من كل اهتزاز . فوق التوجيهات العاطفية . وفوق ربط هذه العلاقة كلها بتقوى الله ورقابته .

ولكن الحياة الواقعية للبشر تثبت أن هناك حالات تتهدم وتتحطم على الرغم من جميع الضمانات والتوجيهات . وهى حالات لابدأن تواجه مواجهة عملية ، اعترافا بمنطق الواقع الذى لا يجدى إنكاره حين تتعذر الحياة الزوجية ، ويصبح الإمساك بالزوجية عبثا لا يقوم على أساس !

« والإسلام لايسرع إلى رباط الزوجية المقدسة فيفصمه لأول وهلة ،ولأول بادرة من خلاف . إنه يشد على هذا الرباط بقوة ، فلا يدعه يفلت إلا بعد المحاوله واليأس .

« إنه يهتف بالرجال : « وعاشروهن بالمعروف ، فإن كرهتموهن فعسى أن تكرهوا شيئا ويجعل الله فيه خيرا كثيرا » . . فيميل بهم إلى التريث والمصابرة حتى فى حالة الكراهية، ويفتح لهم تلك النافذة المجهولة : « فعسى أن تكرهوا شيئا ويجعل الله فيه خيرا كثيرا » فما يدريهم أن فى هؤلاء النسوة المكروهات خيرا ، وأن الله يدخر لهم هذا الخير . فلا يجوز أن يفلتوه . إن لم يكن ينبغى لهم أن يستمسكوا به ويعزوه ! وليس أبلغ من هذا فى استحياء الانعطاف الوجدانى واستثارته ، وترويض الكره وإطفاء شرته .

« فإذا تجاوز الأمر مسألة الحب والكره إلى النشوز والنفور ، فليس الطلاق أول خاطر يهدى إليه الإسلام . بل لابد من محاولة يقوم بها الآخرون ، وتوفيق يحاوله الخيرون : «وإن خفتم شقاق بينهما فابعثوا حكما من أهله ، وحكما من أهلها إن يريدا إصلاحاً يوفق الله بينهما . إن الله كان عليما خبيرا » .. « وإن امرأة خافت من بعلها نشوزا أوإعراضا . فلاجناح عليهما أن يصلحا بينهما صلحا والصلح خير » ..

« فإذا لم تجد هذه الوساطة ، فالأمر إذن جد ، وهناك مالاتستقيم معه هذه الحياة ، ولا يستقر لها قرار . وإمساك الزوجية على هذا الوضع إنما هو محاولة فاشلة ، يزيدها الضغط فشلا ، ومن الحكمة التسليم بالواقع ،وإنهاء هذه الحياة على كره من الإسلام ، فإن أبغض الحلال إلى الله الطلاق (١) .

(١) كتاب السلام العالمى والإسلام ص ٦٥ — ٦٦ .

فإذا أراد أن يطلق فليس فى كل لحظة يجوز الطلاق . إنما السنة أن يكون فى طهر لم يقع فيه وطء .. وفى هذا مايؤجل فصم العقدة فترة بعد موقف الغضب والانفعال . وفى خلال هذه الفترة قد تتغير النفوس ، وتقر القلوب ، ويصلح الله بين المتخاصمين فلا يقع الطلاق !

ثم بعد ذلك فترة العدة . ثلاثة قروء للتى تحيض وتلد . وثلاثة أشهر للآيسة والصغيرة . وفترة الحمل للحوامل . وفى خلالها مجال للمعاودة إن نبضت فى القلوب نابضة من مودة ، ومن رغبة فى استئناف ماانقطع من حبل الزوجية .

ولكن هذه المحاولات كلها لاتنفى أن هناك انفصالا يقع ، وحالات لابد أن تواجهها الشريعة مواجهة عملية واقعية ، فتشرع لها ، وتنظم أوضاعها ، وتعالج آثارها . وفى هذا كانت تلك الأحكام الدقيقة المفصلة ، التى تدل على واقعية هذا الدين فى علاجه للحياة ، مع دفعها دائما إلى الأمام . ورفعها دائما إلى السماء .

والدلالة الرابعة للسورة ومافيها من الترغيب والترهيب والتعقيب والتفصيل الشديد والتوكيد ، هو أنها كانت تواجه حالات واقعة فى الجماعة المسلمة متخلفة من رواسب الجاهلية ، وماكانت تلاقيه المرأة من العنت والخسف ، مما اقتضى هذا التشديد ، وهذا الحشد من المؤثرات النفسية ، ومن التفصيلات الدقيقة ، التى لاتدع مجالا للتلاعب والالتواء مع ماكان مستقرا فى النفوس من تصورات متخلفة عن علاقات الجنسين ، ومن تفكك وفوضى فى الحياة العائلية (١) .

ولم يكن الحال هكذا فى شبه الجزيرة وحدها ، إنما كان شائعا فى العالم كله يومذاك . فكان وضع المرأة هو وضع الرقيق أوماهو أسوأ من الرقيق فى جنبات الأرض جميعا . فوق ماكان ينظر إلى العلاقات الجنسية نظرة استقذار ، وإلى المرأة كأنها شيطان يغرى بهذه القذارة .

ومن هذه الوهدة العالمية ارتفع الإسلام بالمرأة وبالعلاقات الزوجية إلى ذلك المستوى الرفيع الطاهر الكريم الذى سبقت الإشارة إليه . وأنشأ للمرأة ماأنشأ من القيمة والاعتبار والحقوق والضمانات. .وليدة لاتوأد ولاتهان . ومخطوبة لاتنكح إلا بإذنها ثيبا أوبكرا. وزوجة لها حقوق الرعاية فوق ضمانات الشريعة . ومطلقة لها هذه الحقوق المفصلة فى هذه السورة وفى سورة البقرة وغيرها ..

شرع الإسلام هذا كله . لالأن النساء فى شبه الجزيرة أوفى أى مكان فى العالم حينذاك شعرن

(١) يراجع الجزء الرابع من الظلال ص ٩٦ — ٩٧ والجزء الواحد والعشرون ص ١٢٢ — ١٢٣

بأن مكانهن غير مرض ! ولالأن شعور الرجال كذلك قد تأذى بوضع النساء . ولالأنه كان هناك اتحاد نسائى عربى أوعالمى ! ولالأن المرأة دخلت دار الندوة أومجلس الشورى ! ولالأن هاتفا واخدا فى الأرضهتف بتغيير الأحوال .. إنما كانت هى شريعة السماء للأرض . وعدالة السماء للأرض . وإرادة السماء بالأرض . . أن ترتفع الحياة البشرية من تلك الوهدة ، وأن تتطهر العلاقات الزوجية من تلك الوصمة ، وأن يكون للزوجين من نفس واحدة حقوق الإنسان وكرامة الإنسان .

. . هـذا دين رفيع . . لايعرض عنه إلا مطموس . ولا يعيبه إلامنكوس ، ولا يحاربه إلاموكوس . فإنه لا يدع شريعة الله إلى شريعة الناس إلا من أخلد إلى الأرض واتبع هواه .

* * *

والآن نستعرض الأحكام فى سياق السورة ـ بعد هذا الاستطراد الذى لا يبعد كثيرا عن جو هذا الجزء ومافيه من تنظيم وبناء للجماعة المسلمة ـ والأحكام فى سياقالسورة شىء آخر غير ذلك التلخيص . شىء حى . فيه روح . وفيه حركة . وفيه حياة . وفيه إيحاء .. ولهإيقاع. وهـذا هو الفـارق الأصيل بين مدارسة الأحـكام فى القرآن ومدارستها فى كتب الفقه والأصول .

* * *

« ياأيها النبى إذا طلقتم النساء فطلقوهن لعدتهن ، وأحصوا العدة ، واتقوا الله ربكم ، لاتخرجوهن من بيوتهن ، ولايخرجن إلا أن يأتين بفاحشة مبينة . وتلك حدود الله ، ومن يتعد حدود الله فقد ظلم نفسه . لاتدرى لعل الله يحدث بعد ذلك أمرا » . .

هذه هى أولمرحلة وهذا هو أول حكم يوجه الخطاب به إلى النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ « ياأيها النبى » .. ثم يظهر أن الحكم خاص بالمسلمين لابشخصه ـ صلى الله عليه وسلم ـ : «إذا طلقتم النساء ... الخ » فيوحى هذا النسق من التعبير بما وراءه ، وهو إثارة الاهتمام،وتصوير الجدية . فهو أمر ذوبال ، ينادى الله نبيه بشخصه ليلقى إليه فيه بأمره ، كما يبلغه لمن وراءه . وهى إيحاءات نفسية واضحة الدلالة على مايراد بها من احتفال واحتشاد .

« إذا طلقتم النساء فطلقوهن لعدتهن » . .

وقد ورد فى تحديد معنى هذا النص حديث صحيح رواه البخارى ولفظه : « حدثنا يحي

ابن بكير ، حدثنا الليث ، حدثنى عقيل ، عن ابن شهاب ، أخبرنى سالم ، أن عبد الله ابن عمر أخبره أنه طلق امرأة له وهى حائض ، فذكر عمر لرسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فتغيظ رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ثم قال : « ليراجعها ، ثم يمسكها حتى تطهر ، ثم تحيض فتطهر فإن بدا له أن يطلقها فليطلقها طاهرا قبل أن يمسها ، فتلك العدة التى أمرها الله عز وجل » ..

ورواه مسلم ولفظه : « ... فتلك العدة التى أمر الله أن يطلق لها النساء » ..

ومن ثم يتعين أن هناك وقتا معينا لإيقاع الطلاق ؛ وأنه ليس للزوج أن يطلق حينما شاء إلا أن تكون امرأته فى حالة طهر من حيض ، ولم يقع بينهما فى هذا الطهر وطء . وتفيد آثار أخرى أن هناك حالة ثانية يجوز فيها الطلاق ، وهو أن تكون الزوجة حاملا بينة الحمل. والحكمة فى ذلك التوقيت هى أولا إرجاء إيقاع الطلاق فترة بعد اللحظة التى تتجه فيها النفس للطلاق ؛ وقد تسكن الفورة إن كانت طارئة وتعود النفوس إلى الوئام . كما أن فيه تأكدا من الحمل أو عدمه قبل الطلاق . فقد يمسك عن الطلاق لو علم أن زوجه حامل . فإذا مضى فيه وقد تبين حملها دل على أنه مريد له ولو كانت حاملا . فاشتراط الطهر بلا وطء هو للتحقق من عدم الحمل ، واشتراط تبين الحمل هو ليكون على بصيرة من الأمر .

وهذه أول محاولة لرأب الصدع فى بناء الأسرة ، ومحاولة دفع المعول عن ذلك البناء .

وليس معنى هذا أن الطلاق لايقع إلا فى هذه الفترة . فهو يقع حيثما طلق (١) . ولكنه يكون مكروها من الله ، مغضوبا عليه من رسول الله . وهذا الحكم يكفى فى ضمير المؤمن ليمسك به حتى يأتى الأجل . فيقضى الله مايريد فى هذه المسألة .

« وأحصوا العدة » ..

كى لا يكون فى عدم إحصائها إطالة للأمد على المطلقة ، ومضارة لها بمنعها من الزواج بعد العدة . أو نقص فى مدتها لايتحقق به الغرض الأول ، وهو التأكد من براءة رحم المطلقة من الحمل المستكن حفظا للأنساب . ثم هو الضبط الدقيق الذى يوحى بأهمية الأمر ، ومراقبة السماء له ، ومطالبة أصحابه بالدقة فيه !

« واتقوا الله ربكم . لاتخرجوهن من بيوتهن ، ولايخرجن إلا أن يأتين بفاحشة مبينة » . وهذا أول تنبيه ـ بعد وهلة النداء الأول ـ وأول تحذير من الله وتقديم تقواه . قبل الأمر

(١) هذا هو الرأى الفقهى الراجح . وهناك قول بعدم وقوع الطلاق إلا فى هذه الفترة .

بعدم إخراجهن من بيوتهن — وهى بيوت أزواجهن ولكنه يسميها بيوتهن لتوكيد حقهن فى الإقامة بها فترة العدة — لا يُخرَجن منها ولا يَخرجن ، إلا فى حالة وقوع فاحشة ظاهرة منهن . وقد ورد أن هذه الفاحشة قد تكون الزنا فتخرج للحد : وقد تكون إيذاء أهل الزوج . وقد تكون هى النشوز على الزوج — ولو أنه مطلق — وعمل مايؤذيه . ذلك أن الحكمة من إبقاء المطلقة فى بيت الزوج هى إتاحة الفرصة للرجعة ، واستثارة عواطف المودة ، وذكريات الحياة المشتركة . حيث تكون الزوجة بعيدة بحكم الطلاق قريبة من العين ؛ فيفعل هذا فى المشاعر فعله بين الاثنين ! فأما حين ترتكس فى حمأة الزنا وهى فى بيته ! أو تؤذى أهله ، أو تنشز عليه ، فلامحل لاستحياء المشاعر الطيبة ، واستجاشة المودة الدفينة . ولاحاجة إلى استبقائها فى فترة العدة . فإن قربها منه حينذاك يقطع الوشائج ولايستحييها !

« وتلك حدود الله . ومن يتعد حدود الله فقد ظلم نفسه » . .

وهذا هو التحذير الثانى . فالحارس لهذا الحكم هو الله . فأى مؤمن إذن يتعرض لحد يحرسه الله ؟ ! إنه الهلاك والبوار . . « ومن يتعد حدود الله فقد ظلم نفسه » . . ظلم نفسه لتعريضها هكذا لبأس الله القائم على حدوده يحرسها ويرعاها . وظلم نفسه بظلم زوجه . وهى وهو من نفس واحدة ، فما يظلمها يظلمه كذلك بهذا الاعتبار . . ثم . .

« لاتدرى لعل الله يحدث بعد ذلك أمرا » .

وهى لمسة موحية مؤثرة . فمن ذا الذى يعلم غيب الله وقدره المخبوء وراء أمره بالعدة ، وأمره ببقاء المطلقات فى بيوتهن . إنه يلوح هناك أمل ، ويوصوص هناك رجاء . وقد يكون الخير كله . وقد تتغير الأحوال وتتبدل إلى هناءة ورضى . فقدر الله دائم الحركة ، دائم التغيير ، ودائم الأحداث . والتسليم لأمر الله أولى ، والرعاية له أوفق ، وتقواه ومراقبته فيها الخير يلوح هناك !

***

والنفس البشرية قد تستغرقها اللحظة الحاضرة ، وما فيها من أوضاع وملابسات ، وقد تغلق عليها منافذ المستقبل ، فتعيش فى سجن اللحظة الحاضرة ، وتشعر أنها سرمد ، وأنها باقية ، وأن مافيها من أوضاع وأحوال سيرافقها ويطاردها . . وهذا سجن نفسى مغلق مفسد للأعصاب فى كثير من الأحيان .

وليست هذه هى الحقيقة . فقدر الله دائما يعمل، ودائما يغير ، ودائما يبدل ، ودائما ينشىء ما لايجول فى حسبان البشر من الأحوال والأوضاع. فرج بعد ضيق . وعسر بعديسر . وبسط بعد قبض . والله كل يوم هو فى شأن ، بيديه للخلق بعد أن كان عنهم فى حجاب .

ويريد الله أن تستقر هذه الحقيقة فى نفوس البشر ، ليظل تطلعهم إلى مايحدثه الله من الأمر متجددا ودائما . ولتظل أبواب الأمل فى تغيير الأوضاع مفتوحة دائمة . ولتظل نفوسهم متحركة بالأمل ، ندية بالرجاء ، لاتغلق المنافذ ولا تعيش فى سجن الحاضر . واللحظة التالية قد تحمل ماليس فى الحسبان . . « لاتدرى لعل الله يحدث بعد ذلك أمرا » . .

« فإذا بلغن أجلهن فأمسكوهن بمعروف أوفارقوهن بمعروف ، وأشهدوا ذوى عدل منكم، وأقيموا الشهادة لله . ذلكم يوعظ به من كان يؤمن بالله واليوم الآخر ومن يتق الله يجعل له مخرجا ويرزقه من حيث لا يحتسب .ومن يتوكل على الله فهو حسبه إن الله بالغ أمره .قد جعل الله لكل شيء قدرا » . .

وهذه هى المرحلة الثانية وهذاهو حكمها . وبلوغ الأجل آخر فترة العدة .وللزوج مادامت المطلقة لم تخرج من العدة ــ على آجالها المختلفة التى سبق بيانها ــ أن يراجعها فتعود إلى عصمته بمجرد مراجعتها ــ وهذا هو إمساكها ــ أو أن يدع العدة تمضى فتبين منه ولا تحل له إلا بعقد جديد كالزوجة الجديدة .وسواء راجع أم فارق فهو مأمور بالمعروف فيها . منهى عن المضارة بالرجعة ، كأن يراجعها قبيل انتهاء العدة ثم يعود فيطلقها الثانية ثم الثالثة ليطيل مدة بقائها بلا زواج أوأن يراجعها ليبقيها كالمعلقة ،ويكايدها لتفتدى منه نفسها ــ وكان كلاهما يقع عند نزول هذه السورة ، وهو مايزال يقع كلما انحرفت النفوس عن تقوى الله . وهى الضمان الأول لأحكامه فى المعاشرة والفراق . كذلك هو منهى عن المضارة فى الفراق بالسب والشتم والغلظة فى القول والغضب ، فهذه الصلة تقوم بالمعروف وتنهى بالمعروف استبقاء لمودات القلوب ؛ فقد تعود إلى العشرة ،فلا تنطوى على ذكرى رديئة ،لكلمة نابية ، أو غمزة شائكة ،أو شائبة تعكر صفاءها عند ماتعود . ثم هو الأدب الإسلامى المحض الذى يأخذ الإسلام به الألسنة والقلوب . .

وفى حالتى الفراق أو الرجعة تطلب الشهادة على هذه وذاك . شهادة اثنين من العدول . قطعا للريبة .فقد يعلم الناس بالطلاق ولايعلمون بالرجعة، فتثور شكوك وتقال أقاويل .والإسلام يريد النصاعة والطهارة فى هذه العلاقات وفى ضمائر الناس وألسنتهم على السواء . والرجعة تتم

وكذلك الفرقة بدون الشهادة عند بعض الفقهاء ولا تتم عند بعضهم إلا بها . ولكن الإجماع أن لابد من الشهادة بعد أو مع الفرقة أو الرجعة على القولين .

وعقب بيان الحكم تجيء اللمسات والتوجيهات تترى :

« وأقيموا الشهادة لله » . .

فالقضية قضية الله ، والشهادة فيها لله ، هو يأمر بها ، وهو يراقب استقامتها ، وهو يجزى عليها . والتعامل فيها معه لامع الزوج ولا الزوجة ولا الناس !

« ذلكم يوعظ به من كان يؤمن بالله واليوم الآخر » .

والمخاطبون بهذه الأحكام هم المؤمنون المعتقدون باليوم الآخر . فهو يقول لهم : إنه يعظهم بما هو من شأنهم . فإذا صدقوا الإيمان به وباليوم الآخر فهم إذن سيتعظون ويعتبرون . وهذا هو محك إيمانهم ، وهذا هو مقياس دعواهم فى الإيمان !

« ومن يتق الله يجعل له مخرجا ويرزقه من حيث لايحتسب » ..

مخرجا من الضيق فى الدنياوالآخرة ، ورزقا من حيث لايقدر ولاينتظر.وهو تقرير عام، وحقيقة دائمة . ولكن إلصاقها هنا بأحكام الطلاق يوحى بدقة انطباقها وتحققها عندما يتقى المتقون الله فى هذا الشأن بصفة خاصة . وهو الشأن الذى لاضابط فيه أحس ولاأدق من ضابط الشعور والضمير ، فالتلاعب فيه مجاله واسع ، لايقف دونه إلاتقوى الله وحساسية الضمير .

« ومن يتوكل على الله فهو حسبه ، إن الله بالغ أمره » . .

فمجال الكيد فى هذه العلاقة واسع ، ومسالكه كثيرة ، وقد تؤدى محاولة إتقاء الكيد إلى الكيد ! فهنا إيحاء بترك هذه المحاولة ،والتوكل على الله ، وهو كاف لمن يتوكل عليه . فالله بالغ أمره . فما قدر وقع ، وما شاء كان ؛ فالتوكل عليه توكل على قدرة القادر ، وقوة القاهر . الفعال لما يريد . البالغ مايشاء .

والنص عام . والمقصود به هو إنشاء التصور الإيمانى الصحيح فى القلب ، بالنسبة لإرادة الله وقدره . . ولكن وروده هنا بمناسبة أحكام الطلاق له إيحاؤه فى هذا المجال وأثره .

« قد جعل الله لكل شيء قدرا » . .

فكل شيء مقدر بمقداره ، وبزمانه ، وبمكانه ،وبملابساته ،وبنتائجه وأسبابه . وليس شيء مصادفة ، وليس شيء جزافا . فى هذا الكون كله ، وفى نفس الإنسان وحياته .. وهى حقيقة

ضخمة يقوم عليها جانب كبير من التصور الإيمانى . (وقد فصلنا الحديث عنها عند استعراض قوله تعالى : « وخلق كل شىء فقدره تقديرا » فى سورة الفرقان . وعند قوله تعالى : « إنا كل شىء خلقناه بقدر » . . فى سورة القمر) . ولكن ذكر هذه الحقيقة الكلية هنا يربط بها ماقدره الله من الطلاق وفترته ، والعدة ووقتها ، والشهادة وإقامتها . ويطبع هذه الأحكام بطابع السنة الإلهية النافذة ، والناموس الكلى العام . ويوقع فى الحس أن الأمر جد من جد النظام الكونى المقدر فى كل خلق الله .

* * *

« واللائى يئسن من المحيض من نسائكم — إن ارتبتم — فعدتهن ثلاثة أشهر واللائى لم يحضن . وأولات الأحمال أجلهن أن يضعن حملهن . ومن يتق الله يجعل له من أمره يسرا . ذلك أمر الله أنزله إليكم ، ومن يتق الله يكفر عنه سيئاته ويعظم له أجرا » . .

وهذا تحديد لمدة العدة لغير ذوات الحيض والحمل . يشمل اللواتى انقطع حيضهن ، واللاتى لم يحضن بعد لصغر أو لعلة . ذلك أن المدة التى بينت من قبل فى سورة البقرة كانت تنطبق على ذوات الحيض — وهى ثلاث حيضات أو ثلاثة أطهار من الحيضات . حسب الخلاف الفقهى فى المسألة — فأما التى انقطع حيضها والتى لم تحض أصلا فكان حكمها موضع لبس : كيف تحسب عدتها ؟ فجاءت هذه الآية تبين وتنفى اللبس والشك ، وتحدد ثلاثة أشهر لهؤلاء وهؤلاء ، لاشتراكهن فى عدم الحيض الذى تحسب به عدة أولئك . أما الحوامل فجعل عدتهن هى الوضع . طال الزمن بعد الطلاق أم قصر . ولو كان أربعين ليلة فترة الطهر من النفاس . لأن براءة الرحم بعد الوضع مؤكدة ، فلا حاجة إلى الانتظار . والمطلقة تبين من مطلقها بمجرد الوضع . فلا حكمة فى انتظارها بعد ذلك ، وهى غير قابلة للرجعة إليه إلا بعقد جديد على كل حال . وقد جعل الله لكل شىء قدرا . فليس هناك حكم إلا ووراءه حكمة .

هذا هو الحكم ثم تجىء اللمسات والتعقيبات :

« ومن يتق الله يجعل له من أمره يسرا » . .

واليسر فى الأمر غاية مايرجوه إنسان . وإنها لنعمة كبرى أن يجعل الله الأمور ميسرة لعبد من عباده . فلا عنت ولا مشقة ولا عسر ولا ضيقة . يأخذ الأمور بيسر فى شعوره وتقديره .

وينالها بيسر فى حركته وعمله . ورضاها بيسر فى حصيلتها ونتيجتها . ويعيش من هذا فى يسر رخى ندى ، حتى يلقى الله . . ألا إنه لإغراء باليسر فى قضية الطلاق مقابل اليسر فى سائر الحياة !

« ذلك أمر الله أنزله إليكم » . .

وهذه لمسة أخرى فى جانب آخر .لمسة الجد والانتباه إلى مصدر الأمر .. فقد أنزله الله. أنزله للمؤمنين به ، فطاعته تحقيق لمعنى الإيمان ، ولحقيقة الصلة بينهم وبين الله .

ثم عودة إلى التقوى التى يدق عليها دقا متواصلا فى هذا المجال :

« ومن يتق الله يكفر عنه سيئاته ويعظم له أجرا » ..

فالأولى تيسير للأمور . والثانية تكفير للسيئات وإعظام للأجر بعد التكفير .. فهو الفيض المغرى والعرض المثير . وهو حكم عام ووعد شامل . ولكنه يخلع على موضوع الطلاق ظلاله ، ويغمر القلب بالشعور بالله وفضله العميم . فماله إذن يعسر ويعقد والله يغمره بالتيسير والمغفرة والأجر الكبير ؟

* * *

« أسكنوهن من حيث سكنتم من وجدكم ،ولا تضاروهن لتضيقوا عليهن .وإن كن أولات حمل فأنفقوا عليهن حتى يضعن حملهن . فإن أرضعن لكم فآتوهن أجورهن ،وأتمروا بينكم بمعروف ، وإن تعاسرتم فسترضع له أخرى . لينفق ذو سعة من سعته ، ومن قدر عليه رزقه فلينفق مما آتاه الله ، لايكلف الله نفسا إلا ما آتاها ، سيجعل الله بعد عسر يسرا » . .

وهذا هو البيان الأخير لتفصيل مسألة الإقامة فى البيوت ، والإنفاق فى فترة العدة — على اختلاف مدتها . فالمأمور به هو أن يسكنوهن مما يجدون هم من سكنى . لاأقل مما هم عليه فى سكناهم ، وما يستطيعونه حسب مقدرتهم وغناهم . غير عامدين إلى مضارتهم سواء بالتضييق عليهن فى فسحة المسكن أومستواه أوفى المعاملة فيه . وخص ذوات الأحمال بذكر النفقة — مع وجوب النفقة لكل معتدة — لتوهم أن طول مدة الحمل يحدد زمن الإنفاق ببعضه دون بقيته ، أوبزيادة عنه إذا قصرت مدته . . فأوجب النفقة حتى الوضع ، وهو موعد انتهاء العدة لزيادة الإيضاح التشريعى .

ثم فصل مسألة الرضاعة فلم يجعلها واجبا على الأم بلامقابل . فما دامت ترضع الطفل المشترك

بينهما، فمن حقها أن تنال أجرا على رضاعته تستعين به على حياتها وعلى إدرار اللبن للصغير ،وهذا منتهى المراعاة للأم فى هذه الشريعة. وفى الوقت ذاته أمر الأب والأم أن يأتمرا بينهما بالمعروف فى شأن هذا الوليد ، ويتشاورا فى أمره ورائدهما مصلحته ، وهو أمانة بينهما ،فلا يكون فشلهما هما فى حياتهما نكبة على الصغير البرىء فيهما !

وهذه هى المياسرة التى يدعوهما الله إليها. فأما إذا تعاسرا ولم يتفقا بشأن الرضاعة وأجرها، فالطفل مكفول الحقوق : « فسترضع له أخرى » . . دون اعتراض من الأم ودون تعطيل لحق الطفل فى الرضاعة ، بسبب تعاسرهما بعد فشلهما !

ثم يفصل الأمر فى قدر النفقة . فهو اليسر والتعاون والعدل . لا يجور هو ، ولا تتعنت هى. فمن وسع الله عليه رزقه فلينفق عن سعة . سواء فى السكن أو فى نفقة المعيشة أو فى أجر الرضاعة. ومن ضيق عليه فى الرزق ، فليس عليه من حرج ، فالله لا يطالب أحدا أن ينفق إلا فى حدود ما آتاه . فهو المعطى ، ولا يملك أحد أن يحصل على غير ما أعطاه الله . فليس هناك مصدر آخر للعطاء غير هـذا المصدر ، وليست هناك خزانة غير هـذه الخزانة : « لا يكلف الله نفسا إلا ما آتاها » . .

ثم لمسة الإرضاء ، وإفساح الرجاء ، للاثنين على السواء :

« سيجعل الله بعد عسر يسرا » . .

فالأمر منوط بالله فى الفرج بعـد الضيق ، واليسر بعـد العسر . فأولى لهما إذن أن يعقدا به الأمر كله ، وأن يتجها إليه بالأمر كله ، وأن يراقباه ويتقياه والأمر كله إليه . وهو المانح المانع . القابض الباسط . وبيده الضيق والفرج ، والعسر واليسر ، والشدة والرخاء .

* * *

وإلى هنا يكون قد تناول سائر أحكام الطلاق ومتخلفاته ، وتتبع كل أثر من آثاره حتى انتهى إلى حل واضح ؛ ولم يدع من البيت المتهدم أنقاضا ولا غبارا يملأ النفوس ويغشى القلوب ، ولم يترك بعده عقابيل غير مستريحة بعلاج ، ولا قلاقل تثير الاضطراب .

وكذلك يكون قد عالج جميع الوساوس والهواجس التى تثور فى القلوب ، فتمنعها من السماحة والتيسير والتجمل للأمر . فأبعد أشباح الفقر والضيق وضياع الأموال من نفس الزوج إذا هو أسكن وأنفق ووسع على مطلقته أو مرضعة ولده . ومن نفس الزوجة التى تضيق بنفقة

الإعسار ، أو تطمع فى زيادة ماتصيب من مال زوجها السابق . فأكد اليسر بعد العسر لمن اتقى ، والضيق بعد الفرج ، والرزق من حيث لا يحتسب . وفوق رزق الدنيا رزق الآخرة والأجر الكبير هناك بعد التكفير .

كما عالج ماتخلفه حالة الخلاف والشقاق التى أدت إلى الطلاق . من غيظ وحنق ومشادة وغبار فى الشعور والضمير . . فمسح على هذا كله بيد الرفق والتجمل ، ونسم عليه من رحمة الله والرجاء فيه ؛ ومن ينابيع المودة والمعروف التى فجرها فى القلوب بلمسات التقوى والأمل فى الله وانتظار رضاه .

وهذا العلاج الشامل الكامل ، وهذه اللمسات المؤثرة العميقة ، وهذا التوكيد الوثيق المتكرر . . هذه كلها هى الضمانات الوحيدة فى هذه المسألة لتنفيذ الشريعة المقررة . فليس هناك ضابط إلا حساسية الضمائر وتقوى القلوب . وإن كلا الزوجين ليملك مكايدة صاحبه حتى تنفقىء مرارته إذا كانت الحواجز هى فقط حواجز القانون ! ! وبعض الاوامر من المرونة بحيث تسع كل هذا . فالأمر بعدم المضارة : « ولا تضاروهن » يشمل النهى عن ألوان من العنت لا يحصرها نص قانونى مهما اتسع . والأمر فيه موكول إلى هذه المؤثرات الوجدانية ، وإلى استجاشة حاسة التقوى وخوف الله المطلع على السرائر ، المحيط بكل شىء علما . وإلى التعويض الذى يعده الله للمتقين فى الدنيا والآخرة . وبخاصة فى مسألة الرزق التى تكرر ذكرها فى صور شتى ، لأنها عامل مهم فى تيسير الموقف ، وتندية الجفاف الذى تنشئه حالة الطلاق .

وإن الزوجين ليفارقان ـ فى ظل تلك الأحكام والتوجيهات ـ وفى قلوبهما بذور للود لم تمت ، ونداوة قد تحيى هذه البذور فتنبت . . ذلك إلى الأدب الجميل الرفيع الذى يريد الإسلام أن يصبغ به حياة الجماعة المسلمة ، ويشيع فيها أرجه وشذاه .

* * *

فإذا انتهى السياق من هذا كله ساق العبرة الأخيرة فى مصير الذين عتوا عن أمر ربهم ورسله ، فلم يسمعوا ولم يستجيبوا . وعلق هذه العبرة على الرؤوس ، تذكرهم بالمصير البائس الذى ينتظر من لا يتقى ولا يطيع . كما تذكرهم بنعمة الله على المؤمنين المخاطبين بالسورة والتشريع :

« وكأى من قرية عتت عن أمر ربها ورسله ، فحاسبناها حسابا شديدا وعذبناها عذابا نكرا . فذاقت وبال أمرها ، وكان عاقبة أمرها خسرا . أعد الله لهم عذابا شديدا . فاتقوا

الله ياأولى الألباب الذين آمنوا،قد أنزل الله إليكم ذكرا :رسولا يتلو عليكم آيات الله مبينات ليخرج الذين آمنوا وعملوا الصالحات من الظلمات إلى النور . ومن يؤمن بالله ويعمل صالحا يدخله جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً . قد أحسن الله له رزقا » . .

وهو إنذار طويل وتحذير مفصل المشاهد. كما أنه تذكير عميق بنعمة الله بالإيمان والنور، ووعده بالأجرفى الآخرة وهو أحسن الرزق وأكرمه .

فأخذ الله لمن يعتو عن أمره ولا يسلم لرسله هو سنة متكررة : « وكأى من قرية عتت عن أمر ربها ورسله فحاسبناها حسابا شديدا وعذبناها عذابا نكرا » . .وتفصيل أخذها وذكر الحساب العسير والعذاب النكير ، ثم تصوير العاقبة وسوء المصير : « فذاقت وبالأمرها وكان عاقبة أمرها خسرا » .. ثم تأخير صورة هذه العاقبة الخاسرة فى الآية التالية : « أعد اللهلهم عذابا شديدا » .. كل هذا لإطالة المشهد وتفصيل خطواته ومراحله . وهى طريقة من طرق الأسلوب القرآنى فى تعميق الأثر فى الحس وإطالة مكثه فى الأعصاب (١)

ونقف لحظة أمام هذا التحذير فنرى أن الله أخذ القرى واحدة بعد واحدة كلما عتت عن أمرها ورسله .. ونجد أن هذا التحذير يساق هنا بمناسبة الطلاق وأحكامه ، فيرتبط الطلاق وحكمه بهذه السنة الكلية . ويوحى هذا الارتباط أن أمر الطلاق ليس أمر أسر أو أزواج . إنما هو أمر الأمة المسلمة كلها . فهى المسؤولة عن هذا الأمر . وهى المسؤولة فيه عن شريعة الله . ومخالفتها عن أمر الله فيه ـ أو مخالفتها عن أمر الله فى غيره من أحكام هذا النظام ، أو هذاالنهج الإلهى المتكامل للحياة ـ هى عتو عن أمر الله، لايؤاخذ بهالأفراد الذين يرتكبونه، إنما تؤاخذ به القرية أو الأمة التى تقع فيها المخالفة ، والتى تنحرف فى تنظيم حياتها عن نهج الله وأمره . فقد جاء هذا الدين ليطاع ، ولينفذ كله ، وليهيمن على الحياة كلها . فمن عتا عن أمر الله فيه ـ ولو كان هذا فى أحوال الأفراد الشخصية ـ فقد تعرض لما تعرضت له القرى من سنة الله التى لاتتخلف أبدا .

وتلك القرى ذاقت وبال أمرها وكان عاقبة أمرها خسرا .. ذاقته فى هذه الأرض قبل يوم الحساب الأخير . ولقد ذاقت هذا الوبال قرى وأمم وشعوب عتت عن منهج الله فى الأرض . ونحن نشهد وأسلافنا شهدوا هذا الوبال . ذاقته فسادا وانحلالا ، وفقرا وقحطا ،

---

(١) يراجع فصل « التناسق الفنى » فى كتاب « التصوير الفنى فى القرآن ».

وظلما وجورا ، وحياة مفزعة لاأمن فيها ولاسلام ، ولاطمأنينة فيها ولااستقرار . وفى كل يوم نرى مصداق هذا النذير !

وذلك فوق العذاب الشديد الذى ينتظر العتاة عن أمر الله ونهجه فى الحياة حيث يقول الله : « أعد الله لهم عذابا شديدا » .. والله أصدق القائلين .

إن هذا الدين منهج نظام جماعى ــ كما أسلفنا الحديث فى سورة الصف ــ جاء لينشىء جماعة مسلمة ذات نظام خاص . وجاء ليصرف حياة هذه الجماعة كلها . ومن ثم فالجماعة كلها مسؤولة عنه ، مسؤولة عن أحكامه . ولن تخالف عن هذه الأحكام حتى يحق عليها هذا النذير الذى حق على القرى التى عتت عن أمر ربها ورسله .

وفى مواجهة هذا الإنذار ومشاهده الطويلة يهتف بأولى الألباب الذين آمنوا . الذين هدتهم ألبابهم إلى الإيمان . يهتف بهم ليتقوا الله الذى أنزل لهم الذكر : « قد أنزل الله إليكم ذكرا » . . ويجسم هذا الذكر ويمزجه بشخص الرسول ــ صلى الله عليه وسلم ــ فيجعل شخصه الكريم هو الذكر ، أو بدلا منه فى العبارة : « رسولا يتلو عليكم آيات الله مبينات » . .

وهنا لفتة مبدعة عميقة صادقة ذات دلائل منوعة ..

إن هذا الذكر الذى جاء من عند الله مر إليهم من خلال شخصية الرسول الصادق حتى لكأن الذكر نفذ إليهم مباشرة بذاته ، لم تحجب شخصية الرسول شيئا من حقيقته .

والوجه الثانى لإيحاء النص هو أن شخصية الرسول ــ صلى الله عليه وسلم ــ قد استحالت ذكرا ، فهى صورة مجسمة لهذا الذكر صنعت به فصارت هو . وهو ترجمة حية لحقيقة القرآن . وكذلك كان رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ وهكذا وصفته عائشة ــ رضى الله عنها ــ وهى تقول : « كان خلقه القرآن » . . وهكذا كان القرآن فى خاطره فى مواجهة الحياة . وكان هو القرآن يواجه الحياة !

وفوق نعمة الذكر والنور والهداية والصلاح ، وعد بنعيم الجنات خالدين فيها أبدا . وتذكير بأن هذا الرزق هو أحسن الرزق ، فلايقاس إليه رزق الأرض : « قد أحسن الله له رزقا » .. وهو الرازق فى الدنيا والآخرة ، ولكن رزقا خير من رزق ، واختياره للأحسن هو الاختيار الحق الكريم :

وهكذا يلمس نقطة الرزق مرة أخرى ،ويهون بهذه الإشارة من رزق الأرض ،إلى جانب رزق الجنة . بعد ماوعد فى المقاطع الأولى بسعة رزق الأرض أيضا . .

***

وفى الختام يجى ذلك الإيقاع الكونى الهائل، فيربط موضوع السورة وتشريعاتها وتوجيهاتها بقدر الله وقدرة الله ، وعلم الله ، فى المجال الكونى العريض :

« الله الذى خلق سبع سماوات ومن الأرض مثلهن ،يتنزل الأمر بينهن ، لتعلموا أن الله على كل شىء قدير ، وأن الله قد أحاط بكل شىء علما » . .

والسماوات السبع لاعلم لنا بحقيقة مدلولها وأبعادها ومساحاتها . وكذلك الأراضى السبع. فقد تكون أرضنا هذه التى نعرفها واحدة منهن والباقيات فى علم الله . وقد يكون معنى مثلهن أن هذه الأرض من جنس السماوات فهى مثلهن فى تركيبها أو خصائصها . . وعلى أية حال فلا ضرورة لمحاولة تطبيق هذه النصوص على مايصل إليه علمنا ، لأن علمنا لايحيط بالكون ، حتى نقول على وجه التحقيق : هذا مايريده القرآن . ولن يصح أن نقول هكذا إلا يوم يعلم الإنسان تركيب الكون كله علما يقينيا . . وهيهات . .!

فننتفع بإيحاء هذه الإشارة إلى تلك الحقيقة فى مجالها النفسى ، وفى إنشاء التصور الإيمانى الكونى الصحيح .

والإشارة إلى هذا الكون الهائل : « سبع سماوات ومن الأرض مثلهن » .. يهول الحس ويقف القلب وجها لوجه أمام مشهد من مشاهد قدرة الخالق ،وسعة ملكه ،تصغر أمامه هذه الأرض كلها ، فضلا على بعض مافيها ، فضلا على حادث من أحداثها . فضلا على دريهمات ينفقها الزوج أو تتنازل عنها الزوجة !

وبين هذه السماوات السبع والأرض أوالأرضين السبع يتنزل أمر الله — ومنه هذا الأمر الذى هم بصدده فى هذا السياق . فهو أمر هائل إذن ، حتى بمقاييس البشر وتصوراتهم فى المكان والزمان بقدر مايطيقون التصور . والمخالفة عنه مخالفة عن أمر تتجاوب به أقطار السماوات والأرضين ، ويتسامع به الملأ الأعلى وخلق الله الآخرون فى السماوات والأرضين . فهى مخالفة بلقاء شنعاء ، لايقدم عليها ذو عقل مؤمن ، جاءه رسول يتلو عليه آيات الله مبينات ، ويبين له هذا الأمر ، ليخرجه من الظلمات إلى النور . .

وهذا الأمر يتنزل بين السماوات والأرض ، لينشىء فى قلب المؤمن عقيدة أن الله على كل شى

قدير ؛ فلا يعجزه شيء مما يريد . وأنه أحاط بكل شيء علما ؛ فلا يند عن علمه شيء مما يكون في ملكه الواسع العريض ، ولا مما يسرونه في حنايا القلوب .

ولهذه اللمسة قيمتها هنا من وجهين :

الأول أن الله الذي أحاط بكل شيء علما هو الذي يأمر بهذه الأحكام . فقد أنزلها وهو محيط بكل ظروفهم وملابساتهم ومصالحهم واستعداداتهم . فهي أولى بالاتباع لا يلتفتون عنها أدنى التفات ؛ وهي من وضع العليم المحيط بكل شيء علما .

والثاني أن هذه الأحكام بالذات موكولة إلى الضمائر ، فالشعور بعلم الله واطلاعه على كل شيء هو الضمان لحساسية هذه الضمائر ، في شأن لا يجدي فيه شيء إلا تقوى الله العليم بذات الصدور .

* * *

وهكذا تختم السورة بهذا الإيقاع الذي يهول ويروع ، بقدر ما يحرك القلوب لتخبت وتطيع . فسبحان خالق القلوب ، العليم بما فيها من المنحنيات والدروب !

سورة التحريم مدنيّة
وآياتها ١٢

بسم الله الرحمن الرحيم

« يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللهُ لَكَ ، تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ ، وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ » * قَدْ فَرَضَ اللهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ ، وَاللهُ مَوْلَاكُمْ ، وَهُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ .

« وَإِذْ أَسَرَّ النَّبِيُّ إِلَىٰ بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثًا ، فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِ وَأَظْهَرَهُ اللهُ عَلَيْهِ عَرَّفَ بَعْضَهُ وَأَعْرَضَ عَنْ بَعْضٍ ، فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِ قَالَتْ : مَنْ أَنْبَأَكَ هَٰذَا ؟ قَالَ : نَبَّأَنِيَ الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ .

« إِنْ تَتُوبَا إِلَى اللهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا ، وَإِنْ تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ ، وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ * عَسَىٰ رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَكُنَّ أَنْ يُبْدِلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِنْكُنَّ مُسْلِمَاتٍ مُؤْمِنَاتٍ قَانِتَاتٍ تَائِبَاتٍ عَابِدَاتٍ سَائِحَاتٍ ، ثَيِّبَاتٍ وَأَبْكَارًا .

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ ، عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ ، لَا يَعْصُونَ اللهَ مَا أَمَرَهُمْ ، وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ .

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَعْتَذِرُوا الْيَوْمَ ، إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ .

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللهِ تَوْبَةً نَصُوحًا ، عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَنْ يُكَفِّرَ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ، يَوْمَ لَا يُخْزِي اللهُ

ٱلنَّبِيَّ وَٱلَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ ، نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَ بِأَيْمَانِهِمْ ، يَقولُونَ رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَٱغْفِرْ لَنَا ، إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ .

« يَا أَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَاهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَافِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ ، وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ .

« ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا ٱمْرَأَةَ نُوحٍ وَٱمْرَأَةَ لُوطٍ ، كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا ، فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيْئًا ، وَقِيلَ : ٱدْخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّاخِلِينَ .

« وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ آمَنُوا ٱمْرَأَةَ فِرْعَوْنَ ، إِذْ قَالَتْ : رَبِّ ٱبْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي ٱلْجَنَّةِ ، وَنَجِّنِي مِنْ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ ، وَنَجِّنِي مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّالِمِينَ * وَمَرْيَمَ ٱبْنَةَ عِمْرَانَ ٱلَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا ، فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا ، وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِ وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَانِتِينَ » . .

عندما جرى قدر الله أن يجعل الإسلام هو الرسالة الأخيرة ؛ وأن يجعل منهجه هو المنهاج الباقي إلى آخر الخليقة ؛ وأن تجرى حياة المؤمنين به وفق الناموس الكونى العام ؛ وأن يكون هذا الدين هو الذى يقود حياة البشرية ويهيمن على نشاطها فى كل ميدان . .

عندما جرى قدر الله بهذا كله جعل الله هذا المنهج فى هذه الصورة ، شاملا كاملا متكاملا، يلبى كل طاقات البشر واستعداداتهم ، فى الوقت الذى يرفع هذه الطاقات وهذه الاستعدادات إلى الأفق اللائق بخليفة الله فى الأرض ، وبالكائن الذى كرمه الله على كثير من عباده ، ونفخ فيه من روحه .

وجعل طبيعة هذا الدين الانطلاق بالحياة إلى الأمام : نموا وتكاثرا ، ورفعة وتطهرا ، فى آن واحد . فلم يعطل طاقة بانية ، ولم يكبت استعدادا نافعا . بل نشط الطاقات وأيقظ الاستعدادات وفى الوقت ذاته حافظ على توازن حركة الاندفاع إلى الأمام مع حركة الارتفاع

إلى الأفق الكريم ، الذى يهىء الأرواح فى الدنيا لمستوى نعيم الآخرة ، ويعد المخلوق الفانى فى الأرض للحياة الباقية فى دار الخلود .

وعندما جرى قدر الله أن يجعل طبيعة هذه العقيدة هكذا جرى كذلك باختيار رسولها — صلى الله عليه وسلم — إنسانا تتمثل فيه هذه العقيدة بكل خصائصها ، وتتجسم فيه بكل حقيقتها ، ويكون هو بذاته وبحياته الترجمة الصحيحة الكاملة لطبيعتها واتجاهها . إنسانا قد اكتملت طاقاته الإنسانية كلها . ضليع التكوين الجسدى ، قوى البنية ، سليم البناء ؛ صحيح الحواس ، يقظ الحس ، يتذوق المحسوسات تذوقا كاملا سليما . وهو فى ذات الوقت ضخم العاطفة ، حى الطبع ، سليم الحساسية ، يتذوق الجمال ، متفتح للتلقى والاستجابة . وهو فى الوقت ذاته كبير العقل ، واسع الفكر ، فسيح الأفق ، قوى الإرادة ، يملك نفسه ولا تملكه .. ثم هو بعد ذلك كله .. النبى .. الذى تشرق روحه بالنور الكلى ، والذى تطيق روحه الإسراء والمعراج ، والذى ينادى من السماء ، والذى يرى نور ربه ، والذى تتصل حقيقته بحقيقة كل شىء فى الوجود من وراء الأشكال والظواهر ، فيسلم عليه الحصى والحجر ، ويحن له الجذع ، ويرتجف به أحد — الجبل .. ! .. ثم تتوازن فى شخصيته هذه الطاقات كلها . فإذا هو التوازن القابل لتوازن العقيدة التى اختير لها . .

ثم يجعل الله حياته الخاصة والعامة كتابا مفتوحا لأمته وللبشرية كلها ، تقرأ فيه صور هذه العقيدة ، وترى فيه تطبيقاتها الواقعية . ومن ثم لا يجعل فيها سرا مخبوءا ، ولا سترا مطويا . بل يعرض جوانب كثيرة منها فى القرآن ، ويكشف منها ما يطوى عادة عن الناس فى حياة الإنسان العادى . حتى مواضع الضعف البشرى الذى لا حيلة فيه لبشر . بل إن الإنسان ليكاد يلمح القصد فى كشف هذه المواضع فى حياة الرسول — صلى الله عليه وسلم — للناس !

إنه ليس له فى نفسه شىء خاص . فهو لهذه الدعوة كله . فعلام يختبىء جانب من حياته — صلى الله عليه وسلم — أو يخبأ ؟ إن حياته هى المشهد المنظور القريب الممكن التطبيق من هذه العقيدة ؛ وقد جاء — صلى الله عليه وسلم — ليعرضها للناس فى شخصه وفى حياته ، كما يعرضها بلسانه وتوجيهه . ولهذا خلق . ولهذا جاء .

ولقد حفظ عنه أصحابه — صلى الله عليه وسلم — ونقلوا للناس بعدهم — جزاهم الله خيرا — أدق تفصيلات هذه الحياة . فلم تبق صغيرة ولا كبيرة حتى فى حياته اليومية العادية ، لم تسجل

ولم تنقل .. وكان هذا طرفا من قدر الله فى تسجيل حياة هذا الرسول ، أوتسجيل دقائق هذه العقيدة مطبقة فى حياة الرسول . فكان هذا إلى جانب ماسجله القرآن الكريم من هذه الحياة السجل الباقى للبشرية إلى نهاية الحياة .

* * *

وهذه السورة تعرض فى صدرها صفحة من الحياة البيتية لرسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وصورة من الانفعالات والاستجابات الإنسانية بين بعض نسائه وبعض، وبينهن وبينه! وانعكاس هذه الانفعالات والاستجابات فى حياته ـ صلى الله عليه وسلم ـ وفى حياة الجماعة المسلمة كذلك.. ثم فى التوجيهات العامة للأمة على ضوء ماوقع فى بيوت رسول الله وبين أزواجه .

والوقت الذى وقعت فيه الأحداث التى تشير إليها السورة ليس محددا . ولكن بالرجوع إلى الروايات التى جاءت عنه يتأكد أنه بعد زواج رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ من زينب بنت جحش قطعا .

ولعله يحسن أن نذكر هنا ملخصا عن قصة أزواج النبى ،وعن حياته البيتية يعين على تصور الحوادث والنصوص التى جاءت بصددها فى هذه السورة . ونعتمد فى هذا الملخص على ماأثبته الإمام ابن حزم فى كتابه : « جوامع السيرة » .. وعلى السيرة لابن هشام مع بعض التعليقات السريعة :

أول أزواجه ـ صلى الله عليه وسلم ـ خديجة بنت خويلد . تزوجها رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وهو ابن خمس وعشرين سنة وقيل ثلاث وعشرون، وسنها ـ رضى الله عنها ـ أربعون أو فوق الأربعين ، وماتت ـ رضى الله عنها ـ قبل الهجرة بثلاث سنوات ، ولم يتزوج غيرها حتى ماتت . وقد تجاوزت سنه الخمسين .

فلما ماتت خديجة تزوج عليه السلام سودة بنت زمعة ـ رضى الله عنها ـ ولم يرو أنها ذات جمال ولا شباب. إنما كانت أرملة للسكران ابن عمرو ابن عبد شمس . كان زوجها من السابقين إلى الإسلام من مهاجرى الحبشة . فلما توفى عنها ، تزوجها رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم .

ثم تزوج عائشة ـ رضى الله عنها ـ بنت الصديق أبى بكر ـ رضى الله عنه وأرضاه ـ وكانت صغيرة فلم يدخل بها إلا بعد الهجرة . ولم يتزوج بكرا غيرها . وكانت أحب نسائه إليه ، وقيل كانت سنها تسع سنوات وبقيت معه تسع سنوات وخمسة أشهر . وتوفى عنها رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ .

ثم تزوج حفصة بنت عمر ـ رضى الله عنه وعنها ـ بعد الهجرة بسنتين وأشهر . تزوجها ثيبا . بعـد ماعرضها أبوها على أبى بـكر وعلى عثمان فلم يستجيبا . فوعـده النبى خيرا منها وتزوجها !

ثم تزوج زينب بنت خزيمة . وكان زوجها الأول عبيدة ابن الحارث ابن عبد المطلب قد قتل يوم بدر . وتوفيت زينب هذه فى حياته ـصلى الله عليه وسلمـ .وقيل كان زوجهاقبل النبى هو عبد الله ابن جحش الأسدى المستشهد يوم أحد . ولعل هذا هو الأقرب .

وتزوج أم سلمة . وكانت قبله زوجا لأبى سلمة ، الذى جرح فى أحد ، وظل جرحه يعاوده حتى مات به . فتزوج رسـول الله ـ صلى الله عليـه وسلم ـ أرملته . وضم إليه عيالهـا من أبى سلمة .

وتزوج زينب بنت جحش . بعد أن زوجها لمولاه ومتبناه زيد ابن حارثة فلم تستقم حياتها فطلقها. وقد عرضنا قصتها فى سورة الأحزاب فى الجزء الثانى والعشرين، وكانت جميلة وضيئة . وهى التى كانت عائشة ـ رضى الله عنهـا ـ تحس أنها تساميها ، لنسبها من رسـول اللهـ صلى الله عليه وسلم ـ وهى بنت عمته ، ولوضاءتها !

ثم تزوج جويرية بنت الحارث سيد بنى المصطلق بعد غزوة بنى المصطلق فى أواسط السنة السادسة الهجرية . قال ابن إسحاق : وحدثنى محمد ابن جعفر ابن الزبير ، عن عروة ابن الزبير عن عائشة رضى الله عنها . قالت : « لما قسم رسول الله صلى الله عليه وسلم سبايا بنى المصطلق وقعت جويرية بنت الحارث فى أسهم الثابت ابن قيس ابن الشماس أولابن عم له فكاتبته على نفسها، وكانت امرأة حلوة مليحة ملاحة لايراها أحد إلا أخذت بنفسه، فأتت رسول اللهـ صلى الله عليه وسلم ـ تستعينه فى كتابتها . قالت عائشة : فوالله ماهو إلاأن رأيتها على باب حجرتى فكرهتها! وعرفت أنه سيرى منها ـ صلى الله عليه وسلم ـ مارأيت ، فدخلت عليه فقالت : يارسول الله . أناجويرية بنت الحارث ابن أبى ضرار سيد قومه . وقد أصابنى من البلاء مالم يخف عليك فوقعت فى السهم لثابت ابن قيس ابن الشماس ـ أولابن عم له ـ فكاتبته على نفسى ، فجئت أستعينك على كتابتى . قال : « فهل لك فى خيرمن ذلك؟ قالت : وماهو يارسول الله ؟ قال : « أقضى عنك كتابتك وأتزوجك ؟ » قالت : نعم يارسول الله . قال : « قد فعلت » . .

ثم تزوج أم حبيبة بنت أبى سفيان بعد الحديبية . وكانت مهاجرة مسلمة فى بلاد الحبشة ،

فارتد زوجها عبد الله ابن جحش إلى النصرانية وتركها . فخطبها النبى – صلى الله عليه وسلم – وأمهرها عنه نجاشى الحبشة . وجاءت من هناك إلى المدينة .

وتزوج إثر فتح خيبر بعد الحديبية صفية بنت حى ابن أخطب زعيم بنى النضير . وكانت زوجة لكنانة ابن أبى الحقيق وهو من زعماء اليهود أيضا . ويذكر ابن إسحاق فى قصة زواجه – صلى الله عليه وسلم – منها : أنه أتى بها وبأخرى معها من السبى ، فمر بهما بلال – رضى الله عنه – على قتلى من قتلى اليهود فلما رأتهم التى مع صفية صاحت وصكت وجهها وحثت التراب على رأسها . فقال – صلى الله عليه وسلم – : « اعزبوا عنى هذه الشيطانة » وأمر بصفية فحيزت خلفه ، وألقى عليها رداءه فعرف المسلمون أن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – قد اصطفاها لنفسه . فقال رسول الله – صلى الله عليه وسلم – لبلال – فيما بلغنى – حين رأى بتلك اليهودية ما رأى : « أنزعت منك الرحمة يا بلال ؟ حين تمر بامرأتين على قتلى رجالهما ؟ » . .

ثم تزوج ميمونة بنت الحارث ابن حزن . وهى خالة خالد ابن الوليد وعبدالله ابن عباس . وكانت قبل رسول الله – صلى الله عليه وسلم – عند أبى رهم ابن عبد العزى . وقيل حويطب ابن عبد العزى . وهى آخر من تزوج صلى الله عليه وسلم .

وهكذا ترى أن لكل زوجة من أزواجه – صلى الله عليه وسلم – قصة وسببا فى زواجه منها . وهن فيمن عدا زينب بنت جحش ، وجويرية بنت الحارث ، لم يكن شوابا ولا ممن يرغب فيهن الرجال لجمال . وكانت عائشة – رضى الله عنها – هى أحب نسائه إليه . وحتى هاتان اللتان عرف عنهما الجمال والشباب كان هناك عامل نفسى وإنسانى آخر – إلى جانب جاذبيتهن – ولست أحاول أن أنفى عنصر الجاذبية الذى لحظته عائشة فى جويرية مثلا ، ولا عنصر الجمال الذى عرفت به زينب . فلا حاجة أبدا إلى نفى مثل هذه العناصر الإنسانية من حياة النبى – صلى الله عليه وسلم – وليست هذه العناصر موضع اتهام يدفعه الأنصار عن نبيهم . إذا حلا لأعدائه أن يتهموه ! فقد اختير ليكون إنسانا . ولكن إنسانا رفيعا . وهكذا كان . وهكذا كانت دوافعه فى حياته وفى أزواجه – صلى الله عليه وسلم – على اختلاف الدوافع والأسباب .

ولقد عاش فى بيته مع أزواجه بشرا رسولا كما خلقه الله ، وكما أمره أن يقول : « قل : سبحان ربى ! هل كنت إلا بشرا رسولا ؟ » . .

استمتع بأزواجه وأمتعهن ، كما قالت عائشة – رضى الله عنها – عنه : « كان إذا خلا

بنسائه ألين الناس. وأكرم الناس ضحاكا بساما [١] » .. ولكنه إنما كان يستمتع بهن ويمتعهن من ذات نفسه ، ومن فيض قلبه ، ومن حسن أدبه ، ومن كريم معاملته . فأما حياتهن المادية فكانت فى غالبها كفافا حتى بعد أن فتحت له الفتوح وتبجبح المسلمون بالغنائم والفيء . وقد سبق فى سورة الأحزاب قصة طلبهن الوسعة فى النفقة ، وما أعقب هذا الطلب من أزمة ، انتهت بتخييرهن بين الله ورسوله والدار الآخرة ، أو المتاع والتسريح من عصمته — صلى الله عليه وسلم — فاخترن الله ورسوله والدار الآخرة [٢].

ولكن الحياة فى جو النبوة فى بيوت رسول الله — صلى الله عليه وسلم — لم تكن لتقضى على المشاعر البشرية ، والهواتف البشرية فى نفوس أزواجه — رضى الله عنهن — فقد كان يبدر أو يشجر بينهن ، مالا بد أن يشجر فى قلوب النساء فى مثل هذه الحال . وقد سلف فى رواية ابن إسحاق عن عائشة — رضى الله عنها — أنها كرهت جويرية بمجرد رؤيتها لما توقعته من استملاح رسول الله — صلى الله عليه وسلم — لها إذا رآها .وصح ماتوقعته فعلا ! وكذلك روت هى نفسها حادثا لها مع صفية . قالت . « قلت للنبى — صلى الله عليه وسلم : حسبك من صفية كذا وكذا . قال الراوى : تعنى قصيرة ! فقال صلى الله عليه وسلم : « لقد قلت كلمة لو مزجت بماء البحر لمزجته [٣] » . كذلك روت عن نفسها أن النبى — صلى الله عليه وسلم — حين نزلت آية التخيير التى فى الأحزاب ، فاختارت هى الله ورسوله والدار الآخرة ، طلبت إليه ألا يخبر زوجاته عن اختيارها! — وظاهر لماذا طلبت هذا ! — فقال — صلى الله عليه وسلم —: « إن الله تعالى لم يبعثنى معنفا ، ولكن بعثنى معلما ميسرا . لاتسألنى امرأة منهن عما اخترت إلا أخبرتها . . [٤] »

وهذه الوقائع التى روتها عائشة — رضى الله عنها — عن نفسها — بدافع من صدقها ولتربيتها الإسلامية الناصعة — ليست إلا أمثلة لغيرها تصور هذا الجو الإنسانى الذى لابد منه فى مثل هذه الحياة . كما تصور كيف كان الرسول — صلى الله عليه وسلم — يؤدى رسالته بالتربية والتعلية فى بيته كما يؤديها فى أمته سواء .

* * *

(١) رواه السيوطى فى الجامع الصغير عن ابن سعد وابن عساكر عن عائشة

(٢) ص ٦ — ٨ الجزء الثانى والعشرون

(٣) أخرجه أبو داود

(٤) أخرجه مسلم .

وهذا الحادث الذى نزل بشأنه صدر هذه السورة هو واحد من تلك الأمثلة التى كانت تقع فى حياة الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ وفى حياة أزواجه . وقد وردت بشأنه روايات متعددة ومختلفة سنعرض لها عند استعراض النصوص القرآنية فى السورة .

وبمناسبة هذا الحادث وماورد فيه من توجيهات . وبخاصة دعوة الزوجتين المتآمرتين فيه إلى التوبة . أعقبه فى السورة دعوة إلى التوبة وإلى قيام أصحاب البيوت على بيوتهم بالتربية ، ووقاية أنفسهم وأهليهم من النار . كما ورد مشهد للكافرين فى هذه النار . واختتمت السورة بالحديث عن امرأة نوح وامرأة لوط كمثل للكفر فى بيت مؤمن . وعن امرأة فرعون كمثل للإيمان فى بيت كافر ، وكذلك عن مريم ابنة عمران التى تطهرت فتلقت النفخة من روح الله وصدقت بكلمات ربها وكتبه وكانت من القانتين . .

« ياأيها النبى لم تحرم ماأحل الله لك ، تبتغى مرضاة أزواجك ، والله غفور رحيم. قدفرض الله لكم تحلة أيمانكم والله مولاكم وهو العليم الحكيم .

« وإذ أسر النبى إلى بعض أزواجه حديثا فلما نبأت به وأظهره الله عليه عرف بعضه وأعرض عن بعض ، فلما نبأها به قالت : من أنبأك هذا ؟ قال :نبأنى العليم الخبير .

« إن تتوبا إلى الله فقد صغت قلوبكما،وإن تظاهرا عليه فإن الله هو مولاه وجبريل وصالح المؤمنين،والملائكة بعد ذلك ظهير. عسى ربه إن طلقكن أن يبدله أزواجا خيرا منكن مسلمات مؤمنات قانتات تائبات عابدات سائحات ثيبات وأبكارا » . .

وردت فى سبب نزول هذه الآيات روايات متعددة منها مارواه البخارى عند هذه الآية قال : حدثنا إبراهيم ابن موسى ، أخبرنا هشام ابن يوسف ، عن ابن جريج ، عن عطاء ، عن عبيد ابن عمير، عن عائشة ، قالت: كان النبى ـ صلى الله تعالى عليه وعلى آله وسلم ـ يشرب عسلا عند زينب بنت جحش ، ويمكث عندها . فتواطأت أنا وحفصة على أيتنا دخل عليها فلتقل له : أكلت مغافير [١] . إنى أجد منك ريح مغافير . قال : « لا . ولكنى كنت أشرب عسلا عند زينب بنت جحش فلن أعود له . وقد حلفت . لاتخبرى بذلك أحدا » . . فهذا هو ماحرمه على نفسه وهو حلال له : « لم تحرم ماأحل الله لك ؟ » .

---

(١) المغافير : صمغ حلو الطعم كريه الرائحة .

ويبدو أن التى حدثها رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ هذا الحديث وأمرها بستره قالت لزميلتها للتآمرة معها . فأطلع الله رسوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ على الأمر . فعاد عليها فى هذا وذكر لها بعض مادار بينها وبين زميلتها دون استقصاء لجميعه . تمشيا مع أدبه الكريم . فقد لمس الموضوع لمسا مختصرا لتعرف أنه يعرف وكفى . فدهشت هى وسألته : « من أنبأك هذا؟ » .. ولعله دار فى خلدها أن الأخرى هى التى نبأته ! ولكنه أجابها : « نبأنى العليم الخبير » . . فالخبر من المصدر الذى يعلمه كله . ومضمون هذا أن الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ يعلم كل مادار ، لاالطرف الذى حدثها به وحده !

وقد كان من جراء هذا الحادث ، وما كشف عنه من تآمر ومكايدات فى بيت الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن غضب . فآلى من نسائه لايقربهن شهرا ، وهم بتطليقهن ـ على ماتسامع المسلمون ـ ثم نزلت هذه الآيات . وقد هدأ غضبه ـ صلى الله عليه وسلم ـ فعاد إلى نسائه بعد تفصيل سنذكره بعد عرض رواية أخرى للحادث .

وهذه الرواية الأخرى أخرجها النسائى من حديث أنس ، أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ كان له أمة يطؤها ، فلم تزل به عائشة وحفصة حتى حرمها .. فأنزل الله عز وجل : «ياأيها النبى لم تحرم ماأحل الله لك ؛ تبتغى مرضاةأزواجك » ...

وفى رواية لابن جرير ولابن إسحاق أن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ وطىء مارية أم ولده إبراهيم فى بيت حفصة . فغضبت وعدتها إهانة لها . فوعدها رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بتحريم مارية وحلف بهذا . وكلفها كتمان الأمر . فأخبرت به عائشة .. فهذاهو الحديث الذى جاء ذكره فى السورة .

وكلا الروايتين يمكن أن يكون هو الذى وقع . وربما كانت هذه الثانية أقرب إلى جو النصوص وإلى ماأعقب الحادث من غضب كاد يؤدى إلى طلاق زوجات الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ نظرا لدقة الموضوع وشدة حساسيته . ولكن الرواية الأولى أقوى إسنادا . وهى فى الوقت ذاته ممكنة الوقوع ، ويمكن أن تحدث الآثار التى ترتبت عليها . إذا نظرنا إلى المستوى الذى يسود بيوت النبى ، مما يمكن أن تعد فيه الحادثة بهذا الوصف شيئا كبيرا .. والله أعلم أى ذلك كان .

أما وقع هذا الحادث ـ حادث إيلاء النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ من أزواجه ، فيصوره

الحديث الذى رواه الإمام أحمد فى مسنده عن ابن عباس ــ رضى الله عنهما ــ وهو يرسم كذلك جانبا من صورة المجتمع الإسلامى يومذاك . . قال : حدثنا عبد الرزاق ، أخبرنا معمر ، عن الزهرى، عن عبيد الله ابن عبدالله ابن أبى ثور،عن ابن عباس قال: «لم أزل حريصا على أن أسأل عمرعن المرأتين من أزواج رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ اللتين قال الله تعالى : (إن تتوبا إلى الله فقد صغت قلوبكما) حتى حج عمر وحججت معه، فلما كان ببعض الطريق عدل عمر وعدلت معه بالإداوة ، فتبرز ، ثم أتانى فسكبت على يديه فتوضأ ، فقلت :ياأمير المؤمنين من المرأتان من أزواج النبى ــ صلى الله عليه وسلم ــ اللتان قال الله تعالى : (إن تتوبا إلى الله فقد صغت قلوبكما)؟ فقال عمر : واعجبا لك ياابن عباس ! (قال الزهرى : كره والله ماسأله عنه ولم يكتمه) قال: هى عائشة وحفصة .قال : ثم أخذ يسوق الحديث ، قال : كنا معشر قريش قوما نغلب النساء، فلما قدمنا المدينة وجدنا قوما تغلبهم نساؤهم ، فطفق نساؤنا يتعلمن من نسائهم . قال : وكان منزلى فى دار أمية ابن زيد بالعوالى . قال: فغضبت يوما على امرأتى ، فإذا هى تراجعنى ، فأنكرت أن تراجعنى .فقالت : ما تنكر أن أراجعك؟ فوالله إن أزواج رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ ليراجعنه وتهجره إحداهن اليوم إلى الليل ! قال : فانطلقت فدخلت على حفصة فقلت :أتراجعين رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ؟ قالت : نعم ! قلت : وتهجره إحداكن اليوم إلى الليل ؟ قالت : نعم !قلت:قدخاب من فعل ذلك منكن وخسر ! أفتأمن إحداكن أن يغضب الله عليها لغضب رسوله فإذا هى قد هلكت ؟ لا تراجعى رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ ولا تسأليه شيئا وسلينى من مالى مابدا لك ،ولا يغرنك إن كانت جارتك هى أوسم ــ أى أجمل ــ وأحب إلى رسول الله ــ صلى الله عليه وآله وسلم ــ منك ــ يريد عائشة ــ قال: وكان لى جار من الأنصار وكنا نتناوب النزول إلى رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ ينزل يوما وأنزل يوما ،فيأتينى بخبر الوحى وغيره وآتيه بمثل ذلك. قال: وكنا نتحدث أن غسان تنحل الخيل لتغزونا . فنزل صاحبى يوما ثم أتى عشاء فضرب بابى ثم نادى ، فخرجت إليه ، فقال : حدث أمر عظيم . فقلت : وما ذاك ؟ أجاءت غسان ؟ قال : لا . بل أعظم من ذلك وأطول !طلق رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ نساءه ! فقلت : قد خابت حفصة وخسرت! قد كنت أظن هذا كائنا . . حتى إذا صليت الصبح شددت على ثيابى ثم نزلت فدخلت على حفصة وهى تبكى . فقلت : أطلقكن رسول الله ــ صلى الله تعالى عليه وعلى آله وسلم ؟ ــ فقالت : لا أدرى . هو هذا معتزل فى هذه المشربة .

فأتيت غلاما أسود فقلت :استأذن لعمر. فدخل الغلام ثم خرج إلى فقال :ذكرتك له فصمت ! فانطلقت حتى أتيت المنبر ، فإذا عنده رهط جلوس يبكى بعضهم . فجلست عنده قليلا ، ثم غلبنى ماأجد ، فأتيت الغلام فقلت : استأذن لعمر . فدخل ثم خرج إلىّ فقال : ذكرتك له فصمت ! فخرجت فجلست إلى المنبر ، ثم غلبنى ماأجد ، فأتيت الغلام فقلت . استأذن لعمر . فدخل ثم خرج إلىّ فقال : ذكرتك له فصمت ! فوليت مدبرا فإذا الغلام يدعونى . فقال : ادخل قد أذن لك . فدخلت فسلمت على رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ فإذا هو متكئ على رمل حصير قد أثر فى جنبه . فقلت:أطلقت يارسول الله نساءك ؟ فرفع رأسه إلىّ وقال: « لا » . فقلت : الله أكبر ! ولو رأيتنا يارسول الله وكنا معشر قريش قوما نغلب النساء ، فلما قدمنا المدينة وجدنا قوما تغلبهم نساؤهم ، فطفق نساؤنا يتعلمن من نسائهم ، فغضبت على امرأتى يوما ، فإذا هى تراجعنى ، فأنكرت أن تراجعنى ، فقالت : ماتنكر أن أراجعك ؟ فوالله إن أزواج النبى ــ صلى الله عليه وسلم ــ ليراجعنه وتهجره إحداهن اليوم إلى الليل . فقلت : قد خاب من فعل ذلك منكن وخسر ! أفتأمن إحداكن أن يغضب الله عليها لغضب رسوله فإذا هى قد هلكت؟ فتبسم رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ فقلت: يارسول الله قد دخلت على حفصة فقلت: لايغرنك أن كانت جارتك هى أوسم وأحب إلى رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ منك ! فتبسم أخرى . فقلت : أستأنس يارسول الله ؟ قال : « نعم » فجلست ، فرفعت رأسى فى البيت فوالله مارأيت فى البيت شيئا يرد البصر إلاهيبة مقامه فقلت : ادع الله يارسول الله أن يوسع على أمتك فقد وسع على فارس والروم وهم لايعبدون الله.فاستوى جالسا وقال : « أفى شك أنت ياابن الخطاب؟ أولئك قوم عجلت لهم طيباتهم فى الحياة الدنيا » . فقلت : استغفر لى يارسول الله .. وكان أقسم ألا يدخل عليهن شهرا من شدة موجدته عليهن حتى عاتبه الله عز وجل » . . (وقد رواه البخارى ومسلم والترمذى والنسائى من طرق عن الزهرى بهذا النص) .

* * *

هذه رواية الحادث فى السير . فلننظر فى السياق القرآنى الجميل :

تبدأ السورة بهذا العتاب من الله سبحانه لرسوله ــ صلى الله عليه وسلم ــ :

« ياأيها النبى لم تحرم ما أحل الله لك ، تبتغى مرضاة أزواجك ، والله غفور رحيم ؟ قد فرض الله لكم تحلة أيمانكم ، والله مولاكم ، وهو العليم الحكيم » . .

وهو عتاب مؤثر موح . فما يجوز أن يحرم المؤمن على نفسه ماأحله الله له من متاع . والرسول ــ صلى الله عليه وسلم ــ لم يكن حرم العسل أو مارية بمعنى التحريم الشرعى ؛ إنما كان قد قرر حرمان نفسه . فجاء هذا العتاب يوحى بأن ماجعله الله حلالا فلا يجوز حرمان النفس منه عمدا وقصدا إرضاء لأحد . . والتعقيب : « والله غفور رحيم » . . يوحى بأن هذا الحرمان من شأنه أن يستوجب المؤاخذة ، وأن تتداركه مغفرة الله ورحمته . وهو إيحاء لطيف .

فأما اليمين التى يوحى النص بأن الرسول ــ صلى الله عليه وسلم ــ قد حلفها ، فقد فرض الله تحلتها . أى كفارتها التى يحل منها . مادامت فى غير معروف والعدول عنها أولى . « والله مولاكم » . . فهو يعينكم على ضعفكم وعلى مايشق عليكم . ومن ثم فرض تحلة الأيمان ، للخروج من العنت والمشقة . . « وهو العليم الحكيم » . . يشرع لكم عن علم وعن حكمة ، ويأمركم بما يناسب طاقتكم ومايصلح لكم . فلا تحرموا إلا ماحرم ، ولا تحلوا غير ماأحل . وهو تعقيب يناسب ماقبله من توجيه .

ثم يشير إلى الحديث ولايذكر موضوعه ولا تفصيله ، لأن موضوعه ليس هو المهم ، وليس هو العنصر الباقى فيه . إنما العنصر الباقى هو دلالته وآثاره :

« وإذ أسر النبى إلى بعض أزواجه حديثا » . . :

ومن النص نطلع على نموذج من تلك الفترة العجيبة فى تاريخ البشرية . الفترة التى يعيش فيها الناس مع السماء . والسماء تتدخل فى أمرهم علانية وتفصيلا . ونعلم أن الله قد أطلع نبيه على ما دار بين زوجيه بشأن ذلك الحديث الذى أسره إلى بعض أزواجه . وأنه ــ صلى الله عليه وسلم ــ حين راجعها فيه اكتفى بالإشارة إلى جانب منه . ترفعا عن السرد الطويل ، وتجملا عن الإطالة فى التفصيل ؛ وأنه أنبأها بمصدر علمه وهو المصدر الأصيل :

« فلما نبأت به وأظهره الله عليه عرف بعضه وأعرض عن بعض . فلما نبأها به قالت : من أنبأك هذا ؟ قال : نبأنى العليم الخبير » . .

والإشارة إلى العلم والخبرة هنا إشارة مؤثرة فى حالة التآمر والمكايدات المحبوكة وراء الأستار ! ترد السائلة إلى هذه الحقيقة التى ربما نسيتها أو غفلت عنها ، وترد القلوب بصفة عامة إلى هذه الحقيقة كلما قرأت هذا القرآن .

ويتغير السياق من الحكاية عن حادث وقع إلى مواجهة وخطاب للمرأتين كأن الأمر حاضر:

« إن تتوبا إلى الله فقد صغت قلوبكما .وإن تظاهرا عليه فإن الله هومولاه وجبريل وصالح المؤمنين والملائكة بعد ذلك ظهير » . .

وحين نتجاوز صدر الخطاب ،ودعوتهما إلى التوبة لتعود قلوبهما فتميل إلى الله، فقد بعدت عنه بما كان منهما . . حين نتجاوز هذه الدعوة إلى التوبة نجد حملة ضخمة هائلة وتهديدا رعيبا مخيفا . .

ومن هذه الحملة الضخمة الهائلة ندرك عمق الحادث وأثره فى قلب رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ حتى احتاج الأمر إلى إعلان موالاة الله وجبريل وصالح المؤمنين . والملائكة بعد ذلك ظهير ! ليطيب خاطر الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ ويحس بالطمأنينة والراحة من ذلك الأمر الخطير !

ولا بد أن الموقف فى حس رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وفى محيطه كان من الضخامة والعمق والتأثير إلى الحد الذى يتناسب مع هذه الحملة . ولعلنا ندرك حقيقته من هذا النص ومما جاء فى الرواية على لسان الأنصارى صاحب عمر ـ رضى الله عنهما ـ وهو يسأله :جاءت غسان؟ فيقول لابل أعظم من ذلك وأطول . وغسان هى الدولة العربية الموالية للروم فى الشام على حافة الجزيرة ، وهجومها إذ ذاك أمر خطير . ولكن الأمر الآخر فى نفوس المسلمين كان أعظم وأطول ! فقد كانوا يرون أن استقرار هذا القلب الكبير ، وسلام هذا البيت الكريم أكبر من كل شأن . وأن اضطرابه وقلقه أخطر على الجماعة المسلمة من هجوم غسان عملاء الروم ! وهو تقدير يوحى بشتى الدلالات على نظرة أولئك الناس للأمور . وهو تقدير يلتقى بتقدير السماء للأمر ، فهو إذن صحيح قويم عميق .

وكذلك دلالة الآية التالية ، وتفصيل صفات النساء اللواتى يمكن أن يبدل الله النبى بهن من أزواجه لو طلقهن . مع توجيه الخطاب للجميع فى معرض التهديد :

« عسى ربه إن طلقكن أن يبدله أزواجا خيرا منكن مسلمات،مؤمنات ،قانتات ، تائبات عابدات ، سائحات . ثيبات وأبكارا » . .

وهى الصفات التى يدعوهن إليها عن طريق الإيحاء والتلميح .

الإسلام الذى تدل عليه الطاعة والقيام بأوامر الدين . والإيمان الذى يعمر القلب ، وعنه

ينبثق الإسلام حين يصح ويتكامل . والقنوت وهو الطاعة القلبية . والتوبة وهى الندم على ماوقع من معصية والاتجاه إلى الطاعة . والعبادة وهى أداة الاتصال بالله والتعبير عن العبودية له . والسياحة وهى التأمل والتدبر والتفكر فى إبداع الله والسياحة بالقلب فى ملكوته..وهن – مع هذه الصفات – من الثيبات ومن الأبكار . كما أن نساءه الحاضرات كان فيهن الثيب وفيهن البكر .

وهو تهديد لهن لابد كان له مايقتضيه من تأثير مكايداتهن فى قلب رسول الله – صلى الله عليه وسلم – وما كان ليغضب من قليل !

وقد رضيت نفس النبى – صلى الله عليه وسلم – بعد نزول هذه الآيات ، وخطاب ربه له ولأهل بيته . واطمأن هذا البيت الكريم بعد هذه الزلزلة ،وعاد إليه هدوؤه بتوجيه الله سبحانه. وهو تكريم لهذا البيت ورعاية تناسب دوره فى إنشاء منهج الله فى الأرض وتثبيت أركانه .

وبعد فهذه صورة من الحياة البيتية لهذا الرجل الذى كان ينهض بإنشاء أمة ، وإقامة دولة ، على غير مثال معروف ، وعلى غير نسق مسبوق . أمة تنهض بحمل أمانة العقيدة الإلهية فى صورتها الأخيرة ، وتنشىء فى الأرض مجتمعا ربانيا ، فى صورة واقعية يتأسى بها الناس .

وهى صورة من حياة إنسان كريم رفيع جليل عظيم . يزاول إنسانيته فى الوقت الذى يزاول فيه نبوته . فلا تفترق هذه عن تلك ؛ لأن القدر جرى بأن يكون بشرا رسولا ، حينما جرى بأن يحمله الرسالة الأخيرة للبشر أومنهج الحياة الأخير .

إنها الرسالة الكاملة يحملها الرسول الكامل . ومن كمالها أن يظل الإنسان بها إنسانا . فلا تكبت طاقة من طاقاته البانية ، ولاتعطل استعدادا من استعداداته النافعة ؛ وفى الوقت ذاته تهذبه وتربيه ، وترتفع به إلى غاية مراقيه .

وكذلك فعل الإسلام بمن فقهوه وتكيفوا به ، حتى استحالوا نسخا حية منه . وكانت سيرة نبيهم وحياته الواقعية ، بكل مافيها من تجارب الإنسان،ومحاولات الإنسان ، وضعف الإنسان، وقوة الإنسان ، مختلطة بحقيقة الدعوة السماوية ، مرتقية بها خطوة خطوة – كما يبدو فى سيرة أهله وأقرب الناس إليه – كانت هى النموذج العملى للمحاولة الناجحة ، يراها ويتأثر بها من يريد القدوة الميسرة العملية الواقعية ، التى لاتعيش فى هالات ولافى خيالات !

وتحققت حكمة القدر فى تنزيل الرسالة الأخيرة للبشر بصورتها الكاملة الشاملة المتكاملة.

وفى اختيار الرسول الذى يطيق تلقيها وترجمتها فى صورة حية . وفى جعل حياة هذا الرسول كتابا مفتوحا يقرؤه الجميع . وتراجعه الأجيال بعد الأجيال ...

* * *

وفى ظلال هذا الحادث الذى كان وقعه عميقا فى نفوس المسلمين ، يهيب القرآن بالذين آمنوا ليؤدوا واجبهم فى بيوتهم من التربية والتوجيه والتذكير ، فيقوا أنفسهم وأهليهم من النار . ويرسم لهم مشهدا من مشاهدها . وحال الكفار عندها . وفى ظلال الدعوة إلى التوبة التى وردت فى سياق الحادث يدعو الذين آمنوا إلى التوبة ، ويصور لهم الجنة التى تنتظر التائبين . ثم يدعو النبى — صلى الله عليه وسلم — إلى جهاد الكفار والمنافقين . . وهذا هو المقطع الثانى فى السورة :

« ياأيها الذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم نارا ، وقودها الناس والحجارة ، عليها ملائكة غلاظ شداد لايعصون الله ما أمرهم ، ويفعلون ما يؤمرون . ياأيها الذين كفروا لاتعتذروا اليوم ، إنماتجزون ما كنتم تعملون . ياأيها الذين آمنوا توبوا إلى الله توبة نصوحا عسى ربكم أن يكفر عنكم سيئاتكم ، ويدخلكم جنات تجرى من تحتها الأنهار ، يوم لايخزى الله النبى والذين آمنوا معه ، نورهم يسعى بين أيديهم وبأيمانهم ، يقولون : ربنا أتمم لنا نورنا ، واغفر لنا إنك على كل شىء قدير . ياأيها النبى جاهد الكفار والمنافقين واغلظ عليهم ، ومأواهم جهنم وبئس المصير » . .

إن تبعة المؤمن فى نفسه وفى أهله تبعة ثقيلة رهيبة . فالنار هناك وهو متعرض لها هو وأهله ،وعليه أن يحول دون نفسه وأهله ودون هذه النار التى تنتظر هناك . إنها نار . فظيعة متسعرة : « وقودها الناس والحجارة » . . الناس فيها كالحجارة سواء . فى مهانة الحجارة . وفى رخص الحجارة ، وفى قذف الحجارة . دون اعتبار ولا عناية . وما أفظعها نارا هذه التى توقد بالحجارة ! وما أشده عذابا هذا الذى يجمع إلى شدة اللذع المهانة والحقارة ! وكل مابها وما يلابسها فظيع رهيب : « عليها ملائكة غلاظ شداد » . تتناسب طبيعتهم مع طبيعة العذاب الذى هم به موكلون . . « لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون مايؤمرون » . . فمن خصائصهم طاعة الله فيما يأمرهم ، ومن خصائصهم كذلك القدرة على النهوض بما يأمرهم . . وهم بغلظتهم هذه وشدتهم موكلون بهذه النار الشديدة الغليظة . وعلى المؤمن أن يقى نفسه وأن يقى

أهله من هذه النار . وعليه أن يحول بينها وبينهم قبل أن تضيع الفرصة ولا ينفع الاعتذار .
فهاهم أولاء الذين كفروا يعتذرون وهم عليها وقوف ،فلا يؤبه لاعتذارهم ،بل يجبهون بالتيئيس:
« يا أيها الذين كفروا لا تعتذروا اليوم . إنما تجزون ما كنتم تعملون » . .
لاتعتذروا فليس اليوم يوم اعتذار ، إنما هو يوم الجزاء على ما كان من عمل . وقد عملتم ماتجزون عليه بهذه النار !

فكيف يقى المؤمنون أنفسهم وأهليهم من هذه النار ؟ إنه يبين لهم الطريق ، ويطمعهم بالرجاء :
« ياأيها الذين آمنوا توبوا إلى الله توبة نصوحا ، عسى ربكم أن يكفر عنكم سيئاتكم ، ويدخلكم جنات تجرى من تحتها الأنهار . يوم لايخزى الله النبي والذين آمنوا معه ، نورهم يسعى بين أيديهم وبأيمانهم ، يقولون : ربنا أتمم لنا نورنا ، واغفر لنا إنك على كل شيء قدير » . .
هذا هو الطريق . . توبة نصوح . . توبة تنصح القلب وتخلصه ، ثم لاتغشه ولا تخدعه .
توبة عن الذنب والمعصية ، تبدأ بالندم على ما كان ، وتنتهى بالعمل الصالح والطاعة ، فهى عندئذ تنصح القلب فتخلصه من رواسب المعاصى وعكارها ؛ وتحضه على العمل الصالح بعدها .
فهذه هى التوبة النصوح . التوبة التى تظل تذكر القلب بعدها وتنصحه فلا يعود إلى الذنوب .
فإذا كانت هذه التوبة فهى مرجوة إذن فى أن يكفر الله بها السيئات . وأن يدخلهم الجنات .
فى اليوم الذى يخزى فيه الكفار كما هم فى المشهد الذى سبق فى السياق . ولا يخزى الله النبي والذين آمنوا معه .

وإنه لإغراء مطمع ، وتكريم عظيم ، أن يضم الله المؤمنين إلى النبي — صلى الله عليه وسلم — فيجعلهم معه صفا يتلقى الكرامة فى يوم الخزى . ثم يجعل لهم نورا « يسعى بين أيديهم وبأيمانهم » . نورا يعرفون به فى ذلك اليوم الهائل المائج العصيب الرهيب . ونورا يهتدون به فى الزحام المريج . ونورا يسعى بين أيديهم وبأيمانهم إلى الجنة فى نهاية المطاف !

وهم فى رهبة الموقف وشدته يلهمون الدعاء الصالح بين يدى الله : « يقولون : ربنا أتمم لنا نورنا ، واغفر لنا ، إنك على كل شيء قدير » . . وإلهامهم هذا الدعاء فى هذا الموقف الذى يلجم الألسنة ويسقط القلوب ، هو علامة الاستجابة . فما يلهم الله المؤمنين هذا الدعاء إلا وقد جرى قدره بأنه سيستجيب . فالدعاء هنا نعمة يمن بها الله عليهم تضاف إلى منة الله بالتكريم وبالنور .

فأين هذا من النار التى وقودها الناس والحجارة ؟

إن هذا الثواب ، كذلك العقاب ، كلاهما يصور تبعة المؤمن فى وقاية نفسه وأهله من النار ، وإنالتهم هذا النعيم فى جنات تجرى من تحتها الأنهار .

وفى ظلال ذلك الحادث الذى كان فى بيوت النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ ندرك الإيحاء المقصود هنا من وراء هذه النصوص .

إن المؤمن مكلف هداية أهله ، وإصلاح بيته ، كما هو مكلف هداية نفسه وإصلاح قلبه .

إن الإسلام دين أسرة ـ كما أسلفنا فى سورة الطلاق ـ ومن ثم يقرر تبعة المؤمن فى أسرته ، وواجبه فى بيته . والبيت المسلم هو نواة الجماعة المسلمة ، وهو الخلية التى يتألف منها ومن الخلايا الأخرى ذلك الجسم الحى .. المجتمع الإسلامى . .

إن البيت الواحد قلعة من قلاع هذه العقيدة . ولابد أن تكون القلعة متماسكة من داخلها حصينة فى ذاتها ، كل فرد فيها يقف على ثغرة لاينفذ إليها . وإلا تكن كذلك سهل اقتحام المعسكر من داخل قلاعه . فلايصعب على طارق ، ولايستعصى على مهاجم !

وواجب المؤمن أن يتجه بالدعوة أول مايتجه إلى بيته وأهله . واجبه أن يؤمن هذه القلعة من داخلها . واجبه أن يسد الثغرات فيها قبل أن يذهب عنها بدعوته بعيدا .

ولابد من الأم المسلمة . فالأب المسلم وحده لايكفى لتأمين القلعة . لابد من أب وأم ليقوما كذلك على الأبناء والبنات. فعبثا يحاول الرجل أن ينشئ المجتمع الإسلامى بمجموعة من الرجال. لابد من النساء فى هذا المجتمع فهن الحارسات على النشء ، وهو بذور المستقبل وثماره .

ومن ثم كان القرآن يتنزل للرجال وللنساء ؛ وكان ينظم البيوت ، ويقيمها على المنهج الإسلامى ، وكان يحمل المؤمنين تبعة أهليهم كما يحملهم تبعة أنفسهم : « ياأيها الذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم نارا » . .

هذا أمر ينبغى أن يدركه الدعاة إلى الإسلام وأن يدركوه جيدا . إن أول الجهد ينبغى أن يوجه إلى البيت. إلى الزوجة . إلى الأم . ثم إلى الأولاد؛ وإلى الأهل بعامة . ويجب الاهتمام البالغ بتكوين المسلمة لتنشئ البيت المسلم . وينبغى لمن يريد بناء بيت مسلم أن يبحث له أولا عن الزوجة المسلمة . وإلا فسيتأخر طويلا بناء الجماعة الإسلامية . وسيظل البنيان متخاذلا كثير الثغرات !

وفى الجماعة المسلمة الأولى كان الأمر أيسر مما هو فى أيامنا هذه . . كان قد أنشئ مجتمع مسلم ـ فى المدينة ـ يهيمن عليه الإسلام . يهيمن عليه بتصوره النظيف للحياة البشرية ، ويهيمن عليه بتشريعه المنبثق من هذا التصور . وكان المرجع فيه ، مرجع الرجال والنساء جميعا ، إلى الله ورسوله . وإلى حكم الله وحكم رسوله . فإذا نزل الحكم فهو القضاء الأخير . . وبحكم وجود هذا المجتمع وسيطرة تصوره وتقاليده على الحياة كان الأمر سهلا بالنسبة للمرأة لكى تصوغ نفسها كما يريد الإسلام . وكان الأمر سهلا بالنسبة للأزواج كى ينصحوا نساءهم ويربوا أبناءهم على منهج الإسلام . .

نحن الآن فى موقف متغير . نحن نعيش فى جاهلية . جاهلية مجتمع . وجاهلية تشريع . وجاهلية أخلاق . وجاهلية تقاليد . وجاهلية نظم . وجاهلية آداب . وجاهلية ثقافة كذلك !!

والمرأة تتعامل مع هـذا المجتمع الجاهلى ، وتشعر بثقل وطأته الساحقة حين تهم أن تلبى الإسلام ، سواء اهتدت إليه بنفسها ، أو هداها إليه رجلها . زوجها أو أخوها أو أبوها . .

هنالك كان الرجل والمرأة والمجتمع . كلهم . يتحاكمون إلى تصور واحد ، وحكم واحد ، وطابع واحد. فأماهنا فالرجل المسلم يتحاكم إلى تصور مجرد لاوجود له فى دنيا الواقع . والمرأة تنوء تحت ثقل المجتمع الذى يعادى ذلك التصور عداء الجاهلية الجامح ! وما من شك أن ضغط المجتمع وتقاليده على حس المرأة أضعاف ضغطه على حس الرجل !

وهنا يتضاعف واجب الرجل المؤمن . إن عليه أن يقى نفسه النار ! ثم عليه أن يقى أهله وهم تحت هذا الضغط الساحق والجذب العنيف !

فينبغى له أن يدرك ثقل هـذا الواجب ليبذل له من الجهـد الباشر أضعاف ما كان يبذله أخوه فى الجماعة المسلمة الأولى . ويتعين حينئذ على من يريد أن ينشئ بيتا أن يبحث أولا عن حارسة للقلعة ، تستمد تصورها من مصدر تصوره هو . . من الإسلام . . وسيضحى فى هذا بأشياء :سيضحى بالالتماع الكاذب فى المرأة . سيضحى بخضراء الدمن ! سيضحى بالمظهر البراق للجيف الطافية على وجه المجتمع . ليبحث عن ذات الدين ، التى تعينه على بناء بيت مسلم ، وعلى إنشاء قلعة مسلمة ! ويتعين على الآباء المؤمنين الذين يريدون البعث الإسلامى أن يعلموا أن الخلايا الحية لهذا البعث وديعة فى أيديهم .وأن عليهم أن يتوجهوا إليهن وإليهم بالدعوة والتربية والإعداد قبل أى أحد آخر . وأن يستجيبوا لله وهو يدعوهم : « ياأيها الذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم نارا » !

ونرجع الكرة ـ بهذه المناسبة ـ إلى طبيعة الإسلام التى تقتضى قيام الجماعة المسلمة التى يهيمن عليها الإسلام، والتى يتحقق فيها وجوده الواقعى . فهو مبنى على أساس أن تكون هناك جماعة. الإسلام عقيدتها ، والإسلام نظامها ، والإسلام شريعتها ، والإسلام منهجها الكامل الذى تستق منه كل تصوراتها (١) .

هذه الجماعة هى المحضن الذى يحمى التصور الإسلامى ويحمله إلى النفوس ، ويحميها من ضغط المجتمع الجاهلى ، كما يحميها من فتنة الإيذاء سواء .

ومن ثم تتبين أهمية الجماعة المسلمة التى تعيش فيها الفتاة المسلمة والمرأة المسلمة ، محتمية بها من ضغط المجتمع الجاهلى حولها . فلا تتمزق مشاعرها بين مقتضيات تصورها الإسلامى وبين تقاليد المجتمع الجاهلى الضاغط الساحق . ويجد فيها الفتى المسلم شريكة فى العش المسلم ، أو فى القلعة المسلمة ، التى يتألف منها ومن نظيراتها العسكر الإسلامى .

إنها ضرورة ــ وليست نافلة ــ أن تقوم جماعة مسلمة ، تتواصى بالإسلام ، وتحتضن فكرته وأخلاقه وآدابه وتصوراته كلها ،فتعيش بهافيما بينها ،وتعيش لهاتحرسها وتحميها وتدعو إليها ، فى صورة واقعية يراها من يدعون إليهامن المجتمع الجاهلى الضال ليخرجوا من الظلمات إلى النور بإذن الله . إلى أن يأذن الله بهيمنة الإسلام . حتى تنشأ الأجيال فى ظله ، فى حماية من الجاهلية الضاربة الأطناب . .

وفى سبيل حماية الجماعة المسلمة الأولى كان الأمر لرسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ بمجاهدة أعدائها :

« ياأيها النبى جاهد الكفار والمنافقين ، واغلظ عليهم ، ومأواهم جهنم وبئس المصير » . .

وهى لفتة لها معناها وقيمتها بعد ماتقدم من أمر المؤمنين بوقاية أنفسهم وأهليهم من النار. وبالتوبة النصوح التى تكفر عنهم السيئات وتدخلهم الجنة تجرى من تحتها الأنهار . .

لها معناها وقيمتها فى ضرورة حماية المحضن الذى تتم فيه الوقاية من النار . فلاتترك هذه العناصر المفسدة الجائرة الظالمة ، تهاجم العسكر الإسلامى من خارجه كما كان الكفار يصنعون. أوتهاجمه من داخله كما كان المنافقون يفعلون .

وتجمع الآية بين الكفار والمنافقين فى الأمر بجهادهم والغلظة عليهم . لأن كلا من الفريقين

---

(١) الظلال ــ هذا الجزء ــ سورة الصف ص ٧٧

يؤدى دورا مماثلا فى تهديد المعسكر الإسلامى ، وتحطيمه أو تفتيته . فجهادهم هو الجهاد الواقى من النار . وجزاؤهم هو الغلظة عليهم من رسول الله والمؤمنين فى الدنيا .

« ومأواهم جهنم وبئس المصير » فى الآخرة !

وهكذا تتناسق هذه الجولة فيما بين آياتها واتجاهاتها ؛ كما تتناسق بجملتها مع الجولة الأولى فى السياق . .

* * *

ثم تجىء الجولة الثالثة والأخيرة . وكأنها التكملة المباشرة للجولة الأولى . إذ تتحدث عن نساء كافرات فى بيوت أنبياء . ونساء مؤمنات فى وسط كفار :

« ضرب الله مثلا للذين كفروا امرأة نوح وامرأة لوط ، كانتا تحت عبدين من عبادنا صالحين ، فخانتاهما فلم يغنيا عنهما من الله شيئا ، وقيل : ادخلا النار مع الداخلين . . وضرب الله مثلا للذين آمنوا امرأة فرعون ، إذ قالت رب ابن لى عندك بيتا فى الجنة ، ونجنى من فرعون وعمله ، ونجنى من القوم الظالمين . ومريم ابنة عمران التى أحصنت فرجها فنفخنا فيه من روحنا ، وصدقت بكلمات ربها وكتبه . وكانت من القانتين » . .

والمأثور فى تفسير خيانة امرأة نوح وامرأة لوط ، أنها كانت خيانة فى الدعوة ، وليست خيانة الفاحشة . امرأة نوح كانت تسخر منه مع الساخرين من قومه ؛ وامرأة لوط كانت تدل القوم على ضيوفه وهى تعلم شأنهم مع ضيوفه !

والمأثور كذلك عن امرأة فرعون أنها كانت مؤمنة فى قصره ـ ولعلها كانت أسيوية من بقايا المؤمنين بدين سماوى قبل موسى . وقد ورد فى التاريخ أن أم « أمنحوتب الرابع » الذى وحد الآلهة فى مصر ورمز للإله الواحد بقرص الشمس ، وسمى نفسه « إخناتون » . . كانت أسيوية على دين غير دين المصريين .. والله أعلم إن كانت هى المقصودة فى هذه السورة أم إنها امرأة فرعون موسى . وهو غير « أمنحوتب » هذا . .

ولا يعنينا هنا التحقيق التاريخى لشخص امرأة فرعون . فالإشارة القرآنية تعنى حقيقة دائمة مستقلة عن الأشخاص . والأشخاص مجرد أمثلة لهذه الحقيقة ..

إن مبدأ التبعة الفردية يراد إبرازه هنا ، بعد الأمر بوقاية النفس والأهل من النار . كما يراد أن يقال لأزواج النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ وأزواج المؤمنين كذلك : إن عليهن

أنفسهن بعد كل شيء . فهن مسؤولات عن ذواتهن ، ولن يعفهن من التبعة أنهن زوجات نبي أوصالح من المسلمين !

وهاهي ذي امرأة نوح.وكذلك امرأة لوط . «كانتا تحت عبدين من عبادناصالحين».. « فخانتاهما » .. « فلم يغنيا عنهما من الله شيئا » .. « وقيل : ادخلا النار مع الداخلين » ..

فلا كرامة ولاشفاعة فى أمر الكفر والإيمان . وأمر الخيانة فى العقيدة حتى لأزواج الأنبياء !

وهاهي ذى امرأة فرعون،لم يصدهاطوفان الكفر الذى تعيش فيه .. فى قصر فرعون .. عن طلب النجاة وحدها . . وقد تبرأت من قصر فرعون طالبة إلى ربها بيتا فى الجنة . وتبرأت من صلتها بفرعون فسألت ربها النجاة منه . وتبرأت من عمله مخافة أن يلحقها من عمله شيء وهى ألصق الناس به : « ونجنى من فرعون وعمله » . . وتبرأت من قوم فرعون وهى تعيش بينهم : « ونجنى من القوم الظالمين » ..

ودعاء امرأة فرعون وموقفها مثل للاستعلاء على عرض الحياة الدنيا فى أزهى صوره . فقد كانت امرأة فرعون أعظم ملوك الأرض يومئذ . فى قصر فرعون أمتع مكان تجد فيه امرأة ماتشتهى .. ولكنها استعلت على هذا بالإيمان . ولم تعرض عن هذا العرض فحسب ، بل اعتبرته شرا ودنسا وبلاء تستعيذ بالله منه ، وتتفلت من عقابيله ، وتطلب النجاة منه !

وهى امرأة واحدة فى مملكة عريضة قوية .. وهذا فضل آخر عظيم .فالمرأة ـ كما أسلفنا ـ أشد شعورا وحساسية بوطأة المجتمع وتصوراته . ولكن هذه المرأة . . وحدها . . فى وسط ضغط المجتمع، وضغط القصر ، وضغط الملك ، وضغط الحاشية ،والمقام الملوكى.. فى وسط هذا كله رفعت رأسها إلى السماء . . وحدها . . فى خضم هذا الكفر الطاغى !

وهى نموذج عال فى التجرد للهمن كل هذه المؤثرات وكل هذه الأواصر ،وكل هذه المعوقات، وكل هذه الهواتف . ومن ثم استحقت هذه الإشارة فى كتاب الله الخالد . الذى تتردد كلماته فى جنبات الكون وهى تتنزل من الملأ الأعلى . .

« ومريم ابنة عمران » . . إنها كذلك مثل للتجرد لله منذ نشأتها التى قصها الله فى سور أخرى . ويذكر هنا تطهرها : « التى أحصنت فرجها » .. يبرئها مما رمتها به يهود الفاجرة ! « فنفخنا فيه من روحنا » . ومن هذه النفخة كان عيسى عليه السلام ، كما هو مفصل فى

السورة المفصلة لهذا المولد « سورة مريم » فلا نستطرد معه هنا تمشيا مع ظل النص الحاضر ، الذى يستهدف تصوير طهارة مريم وإيمانها الكامل وطاعتها : « وصدقت بكلمات ربها وكتبه وكانت من القانتين » . .

وإفراد امرأة فرعون بالذكر هنا مع مريم ابنة عمران يدل على المكانة العالية التى جعلتها قرينة مريم فى الذكر . بسبب ملابسات حياتها التى أشرنا إليها . . وهما الاثنتان نموذجان للمرأة المتطهرة المؤمنة المصدقة القانتة يضربها الله لأزواج النبى — صلى الله عليه وسلم — بمناسبة الحادث الذى نزلت فيه آيات صدر السورة ، ويضربها للمؤمنات من بعد فى كل جيل . .

* * *

وأخيرا فإن هذه السورة — وهذا الجزء كله — قطعة حية من السيرة ، رسمها القرآن بأسلوبه الموحى . لا تملك روايات البشر التاريخية عن تلك الفترة أن ترسمها . فالتعبير القرآنى أكثر إيحاء ، وأبعد آمادا ، وهو يستخدم الحادثة المفردة لتصوير الحقيقة المجردة ، الباقية وراء الحادثة ووراء الزمان والمكان . . كما هو شأن القرآن . .

تم الجزء الثامن والعشرون ويليه الجزء
التاسع والعشرون مبدوءا بسورة تبارك

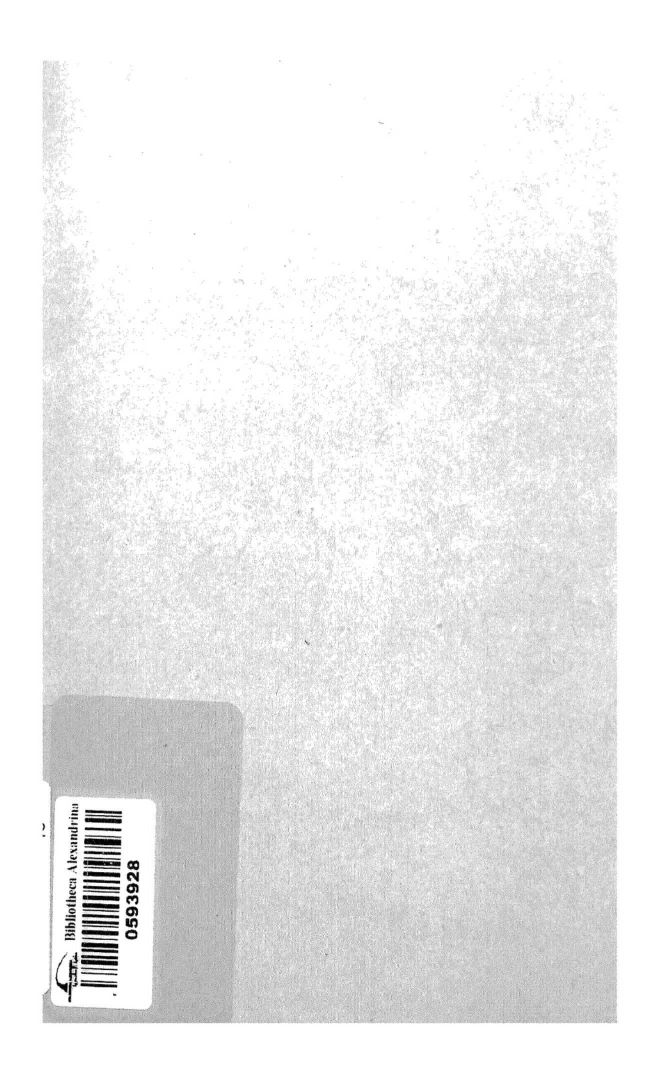
كتب للمؤلف

١ ــ فى ظلال القرآن	(فى ثلاثين جزءاً)	دار إحياء الكتب العربية	
٢ ــ العدالة الاجتماعية فى الإسلام	(طبعة خامسة)	» »	» »
٣ ــ معركة الإسلام والرأسمالية	(« ثانية)	دار الإخوان للطباعة والصحافة	
٤ ــ السلام العالمى والإسلام	(« ثانية)	مكتبة وهبه شارع إبراهيم بعابدين	
٥ ــ دراسات إسلامية	(« أولى)	مكتبة لجنة الشباب المسلم	
٦ ــ التصوير الفنى فى القرآن	(« رابعة)	دار المعارف	
٧ ــ مشاهد القيامة فى القرآن	(« ثالثة)	» »	
٨ ــ المدينة المسحورة	(« ثانية)	» »	
٩ ــ النقد الأدبى : أصوله ومناهجه	(« ثانية)	دار الفكر العربى	
١٠ ــ أشواك	(« أولى)	دار سعد مصر بالفجالة	
١١ ــ طفل من القرية	(« «)	لجنة النشر للجامعيين	
١٢ ــ الأطياف الأربعة	(بالاشتراك مع إخوته)	» » »	
١٣ ــ القصص الدينى	(بالاشتراك مع الأستاذ السحار)	» » »	
١٤ ــ الشاطئ المجهول	(شعر)	... نفد	
١٥ ــ كتب وشخصيات	(نقد)	... »	
١٦ ــ مهمة الشاعر فى الحياة	(«)	... »	
١٧ ــ نقد كتاب مستقبل الثقافة	(«)	... »	

الكتب التالية

(١) نحو مجتمع إسلامى. (٢) أمريكا التى رأيت

(٣) حلم الفجر (شعر) (٤) قافلة الرقيق (شعر)


Bibliotheca Alexandrina
05593928